منظومة القيم والأخلاق

عند الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

أعده الدكتور

عبد الرحمن بن ظافر القشيري

١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٤٣٣٦ تاريخ ١٤٤٥/٣/٣٠هـ
عنوان العمل: منظومة القيم والأخلاق عند الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ
نوع العمل: كتاب إلكتروني
المؤلف: القشيري الشهري ، عبدالرحمن ظافرعبدالله
رقم ردمك: 978-603-04-8448-5
تاريخ النشر: 1445
مكان النشر: جدة

مقدمـــــــة

الحمد لله الذي جعل القرآن كثير البركات والخيرات، وأنزل فيه خير الدنيا والآخرة، وجعل إنزاله على هذه الأمة أكبر فضل يبين لهم ما يقربهم إلى ربهم، وما يبعدهم من النار، وما يهذب نفوسهم ويربي أرواحهم، ويرفع أخلاقهم، ويبين لهم مكارم الأخلاق.

والصلاة والسلام على رسول الله الذي ختم به الرسل والأنبياء، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة. **وبعد:**

فكتاب الله جَلَّوَعَلَا هو مصدر القيم والأخلاق، ومنه نستلهمُ مبادئ ديننا وإليه نحتكم. والبشرية اليوم أحوج ما تكون إلى العودة إلى الوحي الذي جاءنا من عند الله جَلَّوَعَلَا. وفي غياب هدي القرآن فإنّ القيم والأخلاق ستظلّ متأرجحة بلا ضابط، فالقرآن طهر النفوس، وهذّب الأخلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فلا هدي أعظم من هديه.

في العام السادس عشر بعد الأربعمائة وألف من الهجرة النبوية كُنتُ قد جردتُ شيئاً كثيراً من الفوائد مما كتبه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير (أضواء البيان)، وبقيت الكراريس حبيسة الأدراج، حتى رافقتني في ترحّلي وانتقالي من محافظة النماص إلى مدينة تبوك بسبب ظروف العمل، ثمّ من مدينة تبوك إلى محافظة جدة إلى أن انتهى بها المطاف في رفوف النسيان وغبار السنين.

وقد رأيتُ بعد تيك السنين، وبعد توديعِ عملي الذي اشتغلتُ به ربع قرن من الزمان، وشُغلتُ به عن مسامرة الكتب والتقاط الفوائد منها أن أعيد كتابة ما كنت قد حبّرتهُ وأخرجه في كتاب يحمل اسم (**منظومة القيم والأخلاق، عند الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ). فقمتُ مرة أخرى بتتبع هذه المنظومة في مؤلفات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما نُقل عنه في دروسه ومحاضراته ورحلاته واستلالها، وذلك لحاجة المجتمع المسلم اليوم إلى التمسّك بقيم الإسلام وأخلاقه النبيلة التي جاء بها الوحي من عند الله جَلَّ وَعَلَا، فكان هذا الكتاب.

وقد قسمته على النحو الآتي:

- **مقدمة.**
- **المطلب الأول:** نبذة عن الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- **المطلب الثاني:** جوانب من القيم والأخلاق في حياة وشخصية الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- **المطلب الثالث:** حديث الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القيم والأخلاق.
- **المطلب الرابع:** مفهوم القيم والأخلاق عند الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- **المطلب الخامس:** مصادر القيم والأخلاق عند الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- **المطلب السادس:** صلة القيم والأخلاق بالدين.
- **المطلب السابع:** الحضارة الغربية، ومفهوم القيم والأخلاق.
- **المطلب الثامن:** القيم والأخلاق في الإسلام، والمذاهب المعاصرة.
- **المطلب التاسع:** القيم والأخلاق المحمودة.
- **المطلب العاشر:** الأخلاق المذمومة.
- **فهرس الموضوعات.**

وبعدُ.. فإني أرجو الله تعالى أن يكون هذا الجهد المتواضع من العلم الذي يُنتفعُ به في الحياة وبعد الممات، وأن يدخر ثوابه لجامعه وكاتبه، ولشيخنا العلامة محمد الأمين الجكني الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والحمد لله في المبتدأ، والختام، وصلى الله وسلم على رسول الهدى، ونبي الرحمة، وسلم تسليماً كثيرا.

عبد الرحمن بن ظافر القشيري

محافظة جدة

(٢٤/ ٣/ ١٤٤٥هـ)

المطلب الأول

نبذة عن الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

حريّ بعالم قطعَ مسافةً تزيد على (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف ميل من بلاد شنقيط غرب أفريقية، قاصداً بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، وزيارة مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمّ الاستقرار في طيبة الطيبة لنشر العلم من مسجد الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُحتفى بعلمه، وتخدم مؤلفاته[١].

اسمه ونسبه، وطلبه العلم:

من أعلام هذا الزمان؛ الشيخ المفسّر الفقيه الأصولي العلامة **محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب التفسير اللامع (أضواء البيان، في إيضاح القرآن بالقرآن). ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عام (١٣٠٥هـ) بشنقيط، دولة موريتانيا الإسلامية الآن. حفظ القرآن الكريم وأخذ سنداً بذلك إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمره ست عشرة سنة[٢].

درَس بعض المختصرات في فقه مالك، كما درس الأدب على زوجة خاله أم ولد الخال، كما درس علوم القرآن والأدب والسير والتاريخ في بيت أخواله على أخواله وأبناء

---

(١) أثناء مراجعة وتصحيح هذا المؤلف وقّع صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة المدينة المنورة رئيس مجلس نظارة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، اتفاقية إنشاء كرسي بحثي يحمل اسم الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجامعة الإسلامية. انظر: صحيفة الرياض (١٠/١١/١٤٤٤هـ).

(٢) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/٤٨٠).

أخواله وزوجات أخواله[١]. أما بقية الفنون فقد درس مختصر خليل على الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات، ثم درس عليه النصف من ألفية ابن مالك، ثم أخذ بقية الفنون على مشايخ متعددة، في فنون مختلفة، وكلهم من الجكنيين[٢].

جهوده في نشر العلم:

جهوده في نشر العلم قبل قدومه إلى المملكة: كانت أعماله في بلاده رَحِمَهُ ٱللَّهُ كعمل أمثاله من العلماء؛ الدرس والفتيا، ولكنه كان قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه، وكان المواطنون عظيمي الثقة فيه، فيأتونه للقضاء بينهم ويفدون إليه من أماكن بعيدة أو حيث يكون نازلا.

وفي رحلته رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأداء فريضة الحج –وكان سفره براً–[٣] كتب فيه رحلة ضمنها مباحث جليلة، كان آخرها مبحث القضايا الموجهة في المنطق مع علماء أم درمان بالمعهد العلمي بالسودان[٤]، وفيها أفتى ودرّس في بلادٍ ومناطق عدّة أثناء الطريق[٥].

---

(١) في تأريخنا الإسلامي، لم تخل سير الأعلام من ذكر عالمات تلقى الفقهاء العلم على أيديهن، ومنهن: "كريمة أم الكرام بنت أحمد بن محمد المروزية". انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣). وفي ترجمته لابن عساكر قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ بالسماع، وبضع وثمانون امرأة لهن (معجم) صغير سمعناه. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٥٦)

(٢) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٤٨٢/٩).

(٣) قمت بقياس الرحلة بواسطة برنامج (قوقل إيرث)، وذلك بتتبعها من خلال المدن والقرى والبلدان التي مرّ وذُكرت في كتاب الرحلة إلى الحج، فكان طولها (٦٤٠٠ كيلاً)، وبالميل (٣٧٣٠ميلاً). وكانت رحلته رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الحج قد بدأت براً من صحراء شنقيط، حتى وصل إلى السودان، ثم ركب البحر حتى نزل ميناء جدّة، ثمّ سار برّاً إلى مكة، ومنها إلى طيبة الطيبة، وقد بدأ رحلته يوم (١٣٦٧/٦/٨هـ)، وكان دخوله مكة محرماً ضحى يوم الإثنين المصادف لـ (١٧ /١١/ ١٣٦٧هـ).

(٤) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٤٨٩/٩ وما بعدها).

(٥) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام (ص: ٥٠).

جهوده في نشر العلم بعد قدومه إلى المملكة: عندما استقر به المقام في المملكة العربية السعودية؛ نفع الله به نفعاً عظيماً، فسخر وقته وجهده وحياته لنشر العلم وتفسير القرآن الكريم، فقد جلس الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتدريس في المسجد النبوي، فختم القرآن تفسيراً مرتين[١].

وفي سنة (١٣٧١هـ) افتتحت الإدارة العامة بالرياض المعهد العلمي، تلاه عدة معاهد وكليتا الشريعة واللغة، واختير للتدريس في المعهد والكليتين نخبة من العلماء من داخل وخارج المملكة، وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممن اختير لذلك، فتولى تدريس التفسير والأصول إلى سنة (١٣٨١هـ) حين افتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة[٢].

آثاره في مدينة الرياض: كانت مدة اختياره للتدريس بالرياض عشر سنوات دراسية يعود لقضاء العطلة بالمدينة، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدرس التفسير والأصول، وقد رغب المدرسون آنذاك في قراءة بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣] واستيعاب دقائقه، فلم يكن أولى بذلك من فضيلته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث خُصص لذلك مجلس خاص في صحن المعهد بدخنه[٤] بين المغرب والعشاء[٥].

وفي مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٦] بدأ درس الأصول لكبار الطلبة في

---

(١) ترجمة الشيخ عطية سالم في الأضواء (٩/ ٤٩١).

(٢) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/ ٤٩٢).

(٣) تقي الدين أبو العباس احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها، ولد بحران، وتوفي سنة (٧٢٨هـ) بقلعة دمشق رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر ترجمته في: العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: ٢٨).

(٤) **دخنة**: حيّ من أحياء مدينة الرياض.

(٥) ترجمة الشيخ عطية سالم في الأضواء (٩/ ٤٩٤).

(٦) المفتي الأول للمملكة العربية السعودية. توفي عام (١٣٨٩هـ). انظر: الأعلام للزركلي (٥/ ٣٠٦)

قواعد الأصول، حضره العامة والخاصة، وكان يتوافد إليه من أطراف الرياض، وكان درس الأصول بمثابة فتح جديد في هذا الفن[١].

وفي سنة (١٣٨٦هـ) افتتح معهد القضاء العالي بالرياض برياسة فضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، وكانت الدراسة فيه ابتداء على نظام استقدام الأساتذة الزائرين فكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممن يذهب لإلقاء المحاضرات المطلوبة في التفسير والأصول[٣].

وهكذا قدم الرياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترحيب وإكرام، وانتقل منها في إعزاز وإكبار بعد أن ترك فيها أطيب الآثار، وساهم في أكبر نهضة علمية في البلاد[٤].

دوره في الجامعة الإسلامية: كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بجانب التعليم عضو مجلس الجامعة؛ حيث ساهم في سيرها ومناهجها، كما ساهم في إنتاجها وتعليمها[٥].

امتداد نشاطه خارج المملكة: قامت الجامعة الإسلامية بإرسال بعثات إلى الأقطار الإسلامية خاصة إفريقيا، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رأس بعثة الجامعة إلى عشر دول إفريقية[٦] بدأت بالسودان، وانتهت بموريتانيا موطن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٧].

في هيئة كبار العلماء: وعندما شكلت هيئة كبار العلماء بعد سماحة المفتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

---

(١) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/ ٤٩٤).

(٢) عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البرّ النوبي، فقيه أصولي، اشتغل بالتدريس في مصر، وفي المملكة العربية السعودية، ثم عُيّن نائباً لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. توفي عام (١٤١٥هـ). انظر ترجمته في: الشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي، تأليف/ محمد بن أحمد سيد أحمد.

(٣) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/ ٤٩٦).

(٤) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/ ٤٩٥).

(٥) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/ ٤٩٥).

(٦) وللاستزادة ينظر كتاب الرحلة إلى أفريقيا للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد احتوى مسائل وأطروحات علمية مفيدة.

(٧) ترجمة الشيخ عطية سالم في الأضواء (٩/ ٤٩٦).

وهي أكبر هيئة علمية في البلاد كان الشيخ الشنقيطي أحد أعضائها، وقد ترأس إحدى دوراتها فكانت له السياسة الرشيدة والنتائج الحميدة .. قال فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو عضو فيها: "ما رأيت قبله أحسن إدارة منه مع بُعد نظر في الأمور، وحسن تدبر للعواقب"(١).

في الرابطة: وفي رابطة العالم الإسلامي كان عضو المجلس التأسيسي لم تقل خدماته فيه عن خدماته في غيرها.

وهكذا كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حكيماً في تعليمه، حكيماً في دعوته، حكيماً في بحثه وإقناعه، وقد ظهر ذلك كل الوضوح في مؤلفاته(٢).

تلاميـــــذه:

تلاميذ الشيخ كثُرٌ لا يمكن أن تحصيهم هذه الترجمة، ومن أبرزهم:

- سماحة الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- الشيخ: محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ .
- الشيخ: صالح بن محمد اللحيدان، رئيس مجلس القضاء الأعلى سابقا.
- الشيخ: عبد الله بن غديان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عضو هيئة كبار العلماء.
- الشيخ: عبد المحسن العباد، رئيس الجامعة الإسلامية، عضو هيئة كبار العلماء.
- الشيخ: عطية محمد سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من تلامذته الذين لازموه كثيراً .
- الشيخ: بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب التصانيف الكثيرة.
- ابنه الشيخ الدكتور: عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي.

(١) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/ ٤٩٧).
(٢) ترجمة الشيخ عطية سالم، للشيخ في الأضواء (٩/٤٩٧).

- ابنه الشيخ الدكتور: محمد المختار بن محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

رحلاتـــــه:

الرحلة الأولى: رحلته من بلاده لسبع مضين من جمادى الآخرة، من سنة (١٣٦٧هـ) قاصداً بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، ثم زيارة مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعدها يرجع إلى بلاده، ولكن شاء الله للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يستقر في المدينة النبوية، ويقيم دروساً حافلة في المسجد النبوي وغيره، فانتفع منه القاصي والداني[٢].

الرحلة الثانية: رحلته رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رأس بعثة للجامعة الإسلامية إلى عشر دول إفريقية بدأت بالسودان وانتهت بموريتانيا موطن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان لهذه البعثة في تلك البلاد أعظم الأثر، وكان له رَحِمَهُ ٱللَّهُ العديد من المحاضرات والمحادثات سجلت كلها في أشرطة، وضم إليها منهجه وسلوكه مع الحكام وصغار الطلاب والعوام مما يرسم الطريق الصحيح للدعوة إلى الله على بصيرة وبالحكمة والموعظة الحسنة[٣].

وقد طبعت هذه الرحلة ضمن آثار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإشراف تلميذه: بكر بن عبدالله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٤٢٦هـ، ضمن مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة.

مؤلفاتـه، ومحاضراته:

١. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، وهو أهمّ مؤلفاته وآخرها[٤].

---

(١) ترجمة السديس للشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة أطروحته (ص ٨٦).

(٢) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام (ص: ٣).

(٣) ترجمة الشيخ: عطية محمد سالم، في الأضواء البيان (٩/ ٤٩٦)، وانظر: الرحلة إلى أفريقيا.

(٤) ذكر الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبب تأليفه أنه سأل الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهما خارجان من باب السلام بالمسجد النبوي بعد صلاة الظهر في إجازة الصيف عام (١٣٧٣هـ) عن قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، ما هو عهده، وما هو عهدهم؟ قال: "أما عهدهم فيفسره حديث معاذ: (أتدري

٢. **العذب النمير في مجالس الشنقيطي في التفسير** [١].

٣. **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، أراد من تأليفه أن يبين أوجه الجمع بين

ما حق الله على العباد..)" صحيح البخاري (١١٤/٩) برقم (٧٣٧٣)، وصحيح مسلم (٥٩/١) برقم (٥٠). واستمر يذكر نماذج مما أجمل في كتاب الله، وجاء بيانه في موضع آخر من كتاب الله؛ إلى أن وصلا إلى دار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب الكومة.. قال الشيخ عطية، قلت له: "يا شيخ هل أحد كتب في هذا؟" فقال: "فيه نماذج لابن قتيبة في كذا، ولفلان في كذا"، فقلت له: "نماذج أو كتب؟ " فقال: "لا؛ نماذج"، فقلت: "هل أحد تتبع القرآن في هذا؟" فقال: "هذا شيء كثير؛ ما رأيت أحدا تتبعه"، فقلت له: "إذن يتعين عليك"، فقال: "هذا شيء كثير"، فقلت له: "أنت ابدأ؛ ولو حالت دون إتمامه المنية – بعد عمر طويل إن شاء الله – يأتي غيرك ويكمله"، فقال: "خير إن شاء الله، نحن الآن في العطلة نريد أن نستريح " – وذلك في إجازة آخر العام الدراسي عام (١٣٧٣هـ) – قال الشيخ عطية: "ثم التقيت بالشيخ في الرياض بعد قدومي من مهمة كلفت بها، وهي التدريس في معهد الأحساء العلمي، ووجدت الشيخ قد بدأ في الملزمة الأولى حيث كتب من أول تفسير سورة البقرة حوالي اثنتى عشرة ورقة، وقال لي: هذا كتابك ماذا تريد أن تسميه؟ فقلت له: أنت أحق بتسميته، وأنا لا أريد أن أسميه عفواً، بل لا بد أن أقرأ منه عدة أوراق وأرى الاتجاه الذي هو عليه لأستطيع أن أسميه، فأخذ الإخوان ومنهم أحمد الأحمد، وبعض أبناء عمومته كل، منهم يأتي باسم من عنده، فقال لهم: اصبروا على مثل ما قال فلان إلى أن نمشي فيه قليلاً ثم نختار الاسم، فكان (**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**). وكانت مدة تأليفه عشرين سنة، اعتراها عدة أشياء من أمراض تضطره أن يترك الكتاب، والدراسة تشغله كذلك، واهتم أكثر عندما جاء إلى الجامعة، وقد تولى طباعة الأجزاء الثلاثة الأولى محمد بن عوض بن لادن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بينما تولى طباعة الجزء الرابع والخامس والسادس على نفقة الأمير: عبد الله بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، ووزعت جميعها مجانا". وقد انتهى رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى آخر آية في سورة المجادلة، وهي قوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾[المجادلة: ٢٢]، وأتم تلميذه الشيخ: عطية سالم، تفسيره ابتداء من سورة الحشر إلى سورة الناس. انظر: **ترجمة السديس للشيخ في مقدمة أطروحته (ص ١٢٦)**.

(١) وهو مفرّغ من أشرطة دروسه في التفسير في المسجد النبوي، وفي بيته، ومجموع هذه الأشرطة يبلغ (٧٦ شريطاً) موزعة على خمس سور من القرآن الكريم، وهي: (البقرة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، التوبة) انظر: مقدمة تفسير العذب النمير (٣٢/١ – ٤٢).

الآيات التي يظن بها التعارض في القرآن العظيم. وقد كتبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خمس عشرة ليلة، وهي إجازة الامتحانات عام (١٣٧٣هـ)[١].

٤. **منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز**، وهي رسالة ألفها لما رأى جلّ أهل هذا الزمان يقولون بجواز المجاز في القرآن.

٥. **نظم في فروع مذهب الإمام مالك**.

٦. **نظم في الفرائض**.

٧. **مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر**، للعلامة ابن قدامة[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقد وضعها حين أسند إليه تدريس مادة الأصول بكلية الشريعة بالرياض عند افتتاحها عام (١٣٧٤هـ)، ولم تُطبع إلا في عام (١٣٩١هـ)[٣].

٨. **ألفية في المنطق**.

٩. **آداب البحث والمناظرة**، وقد فرغ من الجزء الأول بتاريخ (٢٨/ ٣ / ١٣٨٨هـ). كما فرغ من الجزء الثاني بتاريخ (١٤/ ٥ / ١٣٨٨هـ)[٤].

١٠. **شرح على سلم الأخضري في المنطق**، أملاه على أحد الطلبة في النيجر.

١١. **خالص الجمان**، نظم في أنساب العرب[٥].

---

(١) المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» طليعة أضواء البيان (ص: ٣٤).

(٢) موفق الدين، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، الحنبلي، صاحب (المغني)، عالم أهل الشام في زمانه، كان ثقة، حجة، نبيلا، غزير الفضل، نزهاً، ورعاً، عابداً، صنف (المغني)، و (الكافي)، و (المقنع)، و (العمدة)،و (الروضة)، توفي سنة (٦٢٠هـ). انظر :سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٧٢).

(٣) المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» – طليعة أضواء البيان (ص: ٣٥).

(٤) المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» – طليعة أضواء البيان (ص: ٣٥).

(٥) وقد ألفه قبل البلوغ، ثم دفنه في صحراء شنقيط، معللًا هذا الصنيع بأنه كتبه على نية التفوق على الأقران.

وقد قال فيه: سميتُه بخالصِ الجُمَانِ ... في ذِكْرِ أنسَابِ بني عدنانِ.

انظر: ترجمة الشنقيطي في أضواء البيان (٩/ ٤٩٧).

١٢. رحلة الحج إلى بيت الله الحرام[١].

١٣. الرحلة إلى أفريقيا[٢].

١٤. معارج الصعود إلى تفسير سورة هود[٣].

١٥. تفسير سورة النور[٤].

أما المحاضرات والرسائل فمنها:

١. فتوى في التعليل بالحكمة، والسائل هو الشيخ عبد الله بن منيع.

٢. وجهة نظر في حكم السعي فوق سقف المسعى.

٣. رسالة في حكم الصلاة في الطائرة، وتقع في ست صفحات، كتبها عام (١٣٨٥هـ).

٤. رسالة في جواب سؤال ورد إليه من أحد أمراء بلاد شنقيط، يسأله عن العالم هل هو مخلوق ومرزوق من بركة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو ذلك بأسباب أخرى؟ ويقع الجواب في ست عشرة صفحة.

٥. رسالة في جواب سؤالات ثلاثة، مقدمة من الشيخ محمد الأمين الخضر، والسؤالات هي:

أ- أين مقر العقل في الإنسان؟[٥].

ب- هل يشمل لفظ (المشركين) أهل الكتاب؟

ت- هل يجوز للكافر أن يدخل مساجد الله غير المسجد الحرام[٦].

ث- فتوى في الاختلاط[١] .

---

(١) ترجمة السديس (ص ١٢٧)، وعقود الجمان من أضواء البيان لعبدالله الشنقيطي (١/أ ي).

(٢) وقد طبعت ضمن مشروع آثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، بإشراف الدكتور/ خالد السبت.

(٣) وهو ضمن دروس التفسير في الجامعة الإسلامية، قام بتسجيلها وتحريرها تلميذه الدكتور/ عبدالله قادري.

(٤) وهو ضمن دروس التفسير في الجامعة الإسلامية، قام بتسجيلها وتحريرها تلميذه الدكتور/ عبدالله قادري.

(٥) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ٨٤).

(٦) المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» - طليعة أضواء البيان (ص: ٣٦).

وللشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العديد من المحاضرات، وقد طُبع بعضها، ومن ذلك:

١. المُثُلُ العليا.

٢. المصالح المرسلة. ألقاها عام (١٣٩٠هـ).

٣. الإسلام دين كامل، وكانت بالمسجد النبوي عام (١٣٧٨هـ).

٤. منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، بتاريخ (١٣٨٢/٩/١٣هـ).

٥. محاضرة حول شبهة الرقيق، ألقاها نيابة عنه/ عطية سالم، ولا تزال مخطوطة[٢].

وفـــــــاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ارتحل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من بلاد شنقيط، ودخل مكة حاجّاً ضحى يوم الإثنين (١٧ ذي القعدة عام ١٣٦٧هـ) ليخرج منها ويعود إليها بعد سنوات عدّة حاجاً، ويدفن بها ضحى يوم الخميس (١٧ ذي الحجة عام ١٣٩٣هـ)، وكلاهما يومان تعرض الأعمال فيهما على الله، فبدأ حياته في الحجاز بالحج، وانتهت حياته فيه بالحجّ، وعسى شيخنا أن يكون ممن بدأ حياته في هذه الأرض المباركة كيوم ولدته أمه، وختمت حياته فيها كيوم ولدته أمه[٣].

هذا العلَم الجهبذ الذي سرَت بذكرهِ الرُّكبان؛ قال عنه الشيخ محمد الأمين بن الحسين: "إني لم أر أحداً من العلماء إلا وهو يثني على الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ". وقال عنه الشيخ محمد بن عبد الله بن آدُ: "سألت الشيخ عبد الله بن زاحم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد مقابلته للشيخ الأمين عند مجيئه من بلاده ومحاورته عن العقيدة: كيف رأيت صاحبي؟" قال: " لا نظير له، ولامثيل له، فنحن تأتينا وفود العلماء من كلّ جهة؛ لأننا عند الحرمين، ولم أر كقدرة

(١) مقدمة فتوى في تحريم التعليم المختلط، ضمن «محاضرات الشنقيطي» (ص: ١٥١).

(٢) المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» – طليعة أضواء البيان (ص: ٣٦).

(٣) المجموع الثمين، للدكتور/ يوسف مازي (ص/٢١١) .

الشيخ محمد الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الإلقاء، ومطاوعة قلبه ولسانه في اتجاه واحد، وحسن تعبيره عند أيّ أحد ممن رأيت من العلماء". وقال[١]: "إني حضرت عند كثير من العلماء في مصر والشام ومكة والمدينة وموريتانيا، فلم أر قطّ أحداً أعلم من الشيخ محمد الأمين لا في التفسير، ولا في اللغة العربية. وأكبر دليل على ذلك؛ أنه إذا أراد أن يتكلم في التفسير، وجاءت مسألة في التفسير، أو في الأصول، أو التاريخ، أو الأدب أو الحديث، وتكلم عليها يظنّ السامعون أنّ ذلك الحديث عن تلك المسألة – لخبرته وقوته في تلك المسألة التي يتكلم فيها – خارجاً عن التفسير، فكان يحفظ الأدب والشعر بشكل لا يتصور"[٢].

وكان الشيخ محمد المختار[٣] يترك درسه الذي يدرس فيه أيام تدريس الشيخ محمد الأمين في الحرم في رمضان، ويقول: "أنا لا يمكن أن يفوتني درس الشيخ محمد الأمين لعلمي أنه العالم الوحيد الباقي في هذه الدنيا[٤]".

وكان الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجلّه أعظم الإجلال، وكذا الشيخ محمد بن إبراهيم، المفتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يثني عليه ثناء العلماء. ويكفي في ذلك ما قاله الشيخ محمد بن إبراهيم للملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنّ هذا الرجل مفلوت من صحراء مستعمرة، ولو كان للإسلام في بلده دولة لما تركَتْهُ يخرج؛ لأنه من العلماء الأفذاذ" .

---

(١) أي: الشيخ محمد بن عبد الله بن آدُ .

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، للطويان، بتصرف (١/ ٨٤) .

(٣) محمد المختار أحمد مزيد المدرس بالمسجد النبوي، والجامعة الإسلامية. توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٤٠٥هـ. انظر: جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٧٦).

(٤) هذا رأي الشيخ محمد المختار رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإلا فإنه في ذلك الزمان كان هناك علماء كُثُر في أرجاء الدنيا، علمهم من علمهم، وجهلهم وجهلهم، والله تعالى وحده يعرفهم.

يقول الدكتور محمد الخضر الناجي: "رأيت شخصاً وقف أثناء تدريس الشيخ في الحرم، وقال: "ما أظنّ مثل هذا موجوداً في العالم اليوم أبداً"[١].

وعندما توجَّهَ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مدينة (سين لويس) السِّنغالية في صيف (١٩٤٧م)، يريد تصريحًا للسَّفر إلى البلاد المقدَّسة، وبها آنذاك محافظ المستعمرة الفرنسية الموريتانية[٢]، فاتفق أنْ كانَ المسؤول عن مكتب محافظ المستعمر للشؤون السياسية والإدارية مستشرقًا يُدْعَى: مِسْيو لرِيش [Lerich.M]، ولما قابلَ الشَّيخَ أعجبَتْهُ معلوماته لاسيما حين بَحَثا في المنطق، وفي القضايا المُوَجَّهَة منه بالذات[٣].

ومما ذكره أحد قضاة موريتانيا في ثنائه على الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسبب توضيحه لعقيدة السلف في الصفات، وذلك عندما زار الشيخ موريتانيا على رأس بعثة الدعوة في أفريقيا عام ١٣٨٥هـ، قال: ".. هذا وقد بعثت الخطبة التي خطب بها رئيس الوفد محمد الأمين بن محمد المختار في زيارته للعاصمة نواكشط روحاً قيمة في نفوس المجتمع الإسلامي عامة، وفي نفوس الموريتانيين خاصة؛ تلك الخطبة التي أزلتم بها الشكوك عن الدين بأوضح حجة، وأوضح براهين، مما لا يوقع شكاً بعد اليقين"[٤].

---

(١) جهود الشيخ محمد الأمين في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٨٤).

(٢) للاستزادة عن الحقبة الاستعمارية للسنغال، وتاريخ السنغال، ينظر: الاستعمار الفرنسي للسنغال ١٨٥٤-١٨٦٥م، وموقف القوى الإسلامية منه. د. عبدالله عيسى (ص: ٨٣)، وما بعدها. الناشر: المكتب العربي للمعارف، الطبعة الأولى ٢٠١٧م. والسنغال، محمود شاكر، ط/١٣٩١هـ-١٩٧١م، مكتبة دار الفتح، دمشق. و تحرير الأقوال في تاريخ السنغال، من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، أحمد التجاني الهادي تر الفاسي السنغال، المقطم للنشر والتوزيع.

(٣) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عطيه سالم (ص: ٣٠).

(٤) جهود الشيخ محمد الأمين في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٨٤).

المؤلفات التي أُلّفت في علم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد وفاته:

قام الأستاذ/ زاهر بن محمد الشهري، في كتابه (الفهارس الشاملة لآثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي)، ببيان جهود العلماء والباحثين في العناية بمؤلفات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد وفاته، وذكر أنه تضمنت جانبين:

الجانب الأول: الدراسات والبحوث العلمية التي تناولت حياة الشيخ، ومنهجه في التفسير، واجتهاداته الفقهية، وتقريراته الأصولية واللغوية والبيانية وغيرها. وذكر أنّه وقف على أربعة وثلاثين بحثاً ورسالة علمية قدّمت عن الشيخ وكتبه في عدد من الجامعات.

الجانب الثاني: المؤلفات التي تناولت بعض كتب الشيخ –خاصة أضواء البيان– بتقريب مسائلها وفهرستها[1].

(١) للاستزادة: يُنظر/ الفهارس الشاملة لآثار الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، زاهر محمد الشهري (١/ ١٠ــ ١٦)، دار عطاءات العلم، ودار ابن حزم (١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م).

المطلب الثاني

جوانب من القيم والأخلاق في حياة وشخصية الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

كان الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ شديد التمسّك بقيم وأخلاق الإسلام، ولا غرابة في ذلك فقد عاش حياته مع القرآن قلباً وقالباً، فيروي تلميذه الدكتور/ محمد الخضر الناجي، أنه لا ينتقم لنفسه(١)، ويحب إذا كان له يد في الحصول على مصالح عامة يحاول أن يتساوى فيها إخوانه، ولا يفرق بين قريب وبعيد فيهم(٢).

وكان يتبسط مع إخوانه في الفكاهة والممازحة التي تدخل عليهم السرور(٣)، وله مُلَح ونوادر كثيرة في هذا المجال من غير أن يؤذي أحداً. وكانت مجالسُ محبيه معه أيام أعياد وأعراس، مرة في العلم، ومرة في المرح، ومرة في النكت(٤)، ولا يمكن أن يُتعرض لشخص

---

(١) وهو منهج قرآني، وأدب سماوي، ومنهج نبوي. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٣٤]. وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨٩) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: «ما خير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها».

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٥).

(٣) وقد جاءت أحاديث في فضل إدخال السرور على المسلم. قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" من أفضل العمل؛ إدخال السرور على المؤمن، تقضي عنه دينا ، تقضي له حاجة ، تنفس عنه كربة". الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٧/ ٢٢٧).

(٤) كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمازح أصحابه ويُدخل عليهم الفرح والسرور، ومن ذلك: ممازحته لأنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بقوله: (يا ذا الأذنين). سنن أبي داود (٤/ ٣٠١). وعنه قال: إن كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخالطنا، حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير». صحيح البخاري (٨/

إلا غضب غضباً شديداً[١].

وكان كريم السجايا، فيسعى في قضاء حاجة الضعيف[٢]، وغض الطرف عن زلة من زل عليه[٣]، وعن إساءة من أساء إليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤].

ويروي الأستاذ/ محمد الأمين بن الحسين، أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معروف بسعة الخاطر، وعدم الغضب، فكانت الناس تعجب من عدم غضبه[٥]، فكل من قال له ما لا يرضيه يقابله بالحسنة على الرغم من أنه كان من قبيلة ذات شوكة وخطورة ولا تخاف من أحد، وأهله كذلك. لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من صغره لم يعلم أنه أساء إلى أحد، أو قابل أحداً إلا بشيء حسن. وكان كريماً، ومن كرمه أنه قال لي: "لم يسألني أحد قرضة من مال وأقرضه، ذلك لأنه إن كان عندي أعطيته ولم أقرضه، وإن لم يكن عندي طلبه فذلك شأن آخر"[٦]. وما يسأله أحد من ماله زائد عنه إلا أعطاه إياه، وهذا نعلمه.

---

٣٠). قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه أن الكبير إذا زار قوماً واسى بينهم، فإنه صافح أنسا ومازح أبا عمير". فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٥٨٥).

(١) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٥).

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤).

(٣) قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"ما زال التغافل من فعل الكبراء". انظر: نظم الدرر، البقاعي(٢٠/ ١٨٧).

(٤) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٥).

(٥) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رجلا قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مرارا، قال: «لا تغضب». صحيح البخاري (٨/ ٢٨).

(٦) عن أبي موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: كنت عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة، ومعه بلال فأتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «أبشر». صحيح البخاري (٥/ ١٥٧).

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يأخذ من راتبه ويعطي لكل ضعيف من جماعته امرأة أو رجل صدقة سراً وعلانية. وكان يحمل لواء جماعته هنا وهناك في إدارة مصالحهم، فجمع بين الدنيا والآخرة. وكان مهاباً لا يجلس في مجلس -حسب علمي به وكثرة ملازمتي له-[1] يستطيع أحد أن يناقشه في مسألة سواء جدية أو هزلية[2]. وكان كثير القيام بالليل، كثير المطالعة، كثير قراءة القرآن والتدبر فيه.. وكانت أمور الرجولة متناهية فيه كلها، فصيح اللسان، خطيب، إذا أراد أن يتكلم، لا يستطيع أحد الحاضرين الكلام معه لا في مسألة جدية ولا هزلية ولا مداعبة ونحو ذلك. وكان حسن المجلس، صاحب دعابة خالية من الغيبة، وخالية من القدح، ومما يغضب الناس. ولم يُغضب أحداً حسب علمي[3].

ويذكر ولده الدكتور/ عبد الله، أن والده لم يكن يؤثرهم على تلاميذه وإخوانه، ومن أمثلة ذلك: أن سيارة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يركبها من يسبق إليها، وكنت مرة ذهبت معه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وقت حارّ إلى المسجد النبوي، ولمّا جئت معه إلى السيارة بعد الظهر، وجدناها امتلأت، فقال لي: يا ولدي اذهب على رجليك، فأراد أحد الركاب أن ينزل، فقال: لا تنزل أنت سبقته، فكانت السيارة من سبق إليها يركب، ومن تأخر - ولو ابنه - يمشي على رجليه".

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يردّ الزوار عن بيته، ولا يقول لأحد لا تدخل، ولم يكن على بيته حاجب، ولكن إذا كان يشتغل وجاء الزوار، فإذا رأوه يشتغل إما أن يخرجوا أو يجلسوا، وكانوا إذا جلسوا يتفرغ لهم، ويترك عمله[4].

---

(١) والكلام هنا للأستاذ/ محمد الأمين بن الحسين.

(٢) وله في ذلك مطارحات علمية، في مجلس الشيخ عبدالله بن زاحم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره. انظرها في: مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ٤٧).

(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٥).

(٤) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٦).

أمّا زهده في الدنيا، فيتحدث الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن زهد شيخه محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيقول: الواقع أن الدنيا لم تكن تساوي عنده شيئاً، فلم يكن يهتم لها. ومنذ وجوده في المملكة وصِلتُه بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاءً، ولا مرتباً، ولا ترفيعاً لمرتبه، ولا حصولاً على مكافأة أو علاوة، ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه، وما حصل عليه لم يكن يستبقيه، بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين. وكنتُ أتولى توزيعه وإرساله من الرياض إلى كل من مكة والمدينة. ومات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، وكان مستغنياً بعفته وقناعته، بل إن حقه الخاص ليتركه تعففاً عنه كما فعل في مؤلفاته وهي فريدة في نوعها، لم يقبل التكسب بها، وتركها لطلبة العلم. وسمعته يقول: لقد جئتُ معي من البلادِ[1] بكنز عظيم يكفيني مدى الحياة وأخشى عليه الضياع. فقلت له: "وما هو؟ قال: القناعة. وكان شعاره في ذلك قول الشاعر:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس ... فعلام تكثر حسرتي ووساوسي[2]

ويروي عنه ابنه الدكتور/ عبدالله، فيقول: "كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يريد الدنيا، ولا يهتم بها، ويحرص على الاقتصاد". وكان يقول: "الذي يفرحنا أن الدنيا لو كانت ميتة لأباح الله منها سدّ الخلة". ويقول: "لم أقترض قط لأحد، ولم أبع، ولم أشتر، وترك لي والدي ثروة فكنت أعيش منها، وكان عندي كنز عظيم أرجو الله أن لا يضيع مني؛ هو القناعة"[3].

---

(١) يقصد بلاد شنقيط.

(٢) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٥). والبيت منسوب لابن سكّرة، وتكملته:

(والموت أنصف حين عدّل قسمة ... بين الخليفة والفقير البائس).

انظر: شرح مقامات الحريري، أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسي الشُّريشي (٣/ ٤٧٦).

(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٨).

ويذكر ابنه الدكتور/ عبدالله: أنه كان في المدينة، وكان لا يوجد عنده أي مال، وقد وعده أحد جيرانه أن يقترض له مالاً، ولما أراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يأتيه وجده يشتغل، وعليه ملابس متبذلة، فرجع عنه وكأنه وجد في نفسه قليلاً أنه في عازة. قال: "ولم أشعر حتى خررتُ ساجداً في الطريق في الغبار، ورفعت رأسي وعندي فرح ونشوة لا يعلمها إلا الله إكراماً لما أعطاني من العلم، فكيف أريد دنيا وربي أكرمني بالعلم، وبفهم كتاب الله، فذهبت إلى البيت وكأن الدنيا كملت لي لاستشعاري نعمة الله عليّ بما أعطاني من فهم القرآن، وقد سد الله لي تلك الحاجة من غير أن أسأل أحداً ونذهب لأحد إكراماً منه وفضلاً"[(١)].

وفي إشارة منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مساعدة المحتاجين[(٢)]، ونصح المسلمين، ونصرة المستضعفين، قال: "الكرة الأرضية أصغر من أن تكون لرجل وطنا". يقول ابنه الدكتور عبدالله: "وماكنت أفهم هذا في البداية، ولكن بعد ذلك فهمت أنّ قصده أنّ المسلم كلّ العالم أهله، فيحاول أن يساعدهم ويقومهم، وينصحهم، وينصر ضعيفهم، ويساعد فقيرهم؛ لأنّ المسلم للمسلم كالبنيان، إنما المؤمنون إخوة، فكان يقول لي: يا بني اعلم أن المسلمين في أنحاء البلاد هم إخوانك، والمسلم لا يتقوقع ولا ينتمي لجهة عن جهة، وإن كان الأقربون أولى بالمعروف"[(٣)].

وحين كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحد الفصول أثناء درس إذ ناوله ساعي البريد برقية من أحد

---

(١) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٨).

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...». صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤).

(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٤٥).

أخوته عزيز عليه يقول فيها: "لقد تقرر تسفيري أنا ومن أعول، ولقد خرجت في كفالة أحد الإخوان على أن يحضرني للسفر يوم الأربعاء المقبل". أي بعد أسبوع واحد، فما كان من الشيخ إلا أن أبلغ الشيخ: محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالبرقية وما تفيده، فقال الشيخ محمد: "هذه أمور لا نتدخل فيها بتاتاً"، **فقال الشيخ الشنقيطي له:** "ابعثوا إذاً من يقطع لي تذكرة سفر إلى جدة، ويحجز لي مقعداً في أول طائرة إليها"، فقال الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعلم الله أنه ما سبق أن تدخلنا في موضوع كهذا، ولكن فضيلتكم ليس عندنا مثل الناس، وعندي اقتراح على فضيلتكم أن تكتب إلى الإمام[1] كتاباً توضح فيه وضع هؤلاء الإخوان وترجو منه بموجبه أن ينظر إليهم بعين الرحمة؛ قال: وأنا رسولك إليه، أضعه بين يده بإذن الله، وعسى أن يكون الخير"، فكتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى جلالة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاباً مضمونه أن هؤلاء إنما أتوا من استعمار غاشم همه القضاء على تقاليد الشعوب الدينية وعلى لغاتها، وحيث إنه لم يسبق لأحد من هؤلاء التدخل في سياسة، ولم يسبق لأحدهم إصابة حدّ من حدود الله، فإني أسترحم لهم عطف جلالتكم بأمركم بعدم تسفير أحد منهم. فذهب سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالخطاب وسلمه لجلالة الملك، وكلمه مشافهة في الموضوع، فاستدعى جلالته أحد أفراد مكتبه، وقال: "اذهب إلى القائمة بهذا المعروض ثم ائتني حالا بالجواب" وقد كتب عليه: "هل يوجد شنقيطي متدخل في سياسة، أو أصاب أحد منهم حدّا من حدود الله؟"، وجاء الرد: "لا يوجد "، فأرسل جلالته رَحِمَهُ ٱللَّهُ برقية تعميمية إلى مدير الأمن العام مفادها: "الشناقطة إخوان الشيخ محمد الأمين لا تتعرضوا لهم، ومن رغب منهم في الرعوية السعودية أعطوه بدون قيد ولا شرط". وهكذا أصبحوا يتمتعون باحترام

(١) الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لدى السلطات الحكومية بفضل الله، ثم بفضل فضيلة الشيخ محمد الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

وكان دائماً يحثّ طلاب العلم على التحلي بالأخلاق، ففي محاضرة ألقاها في الجامعة الإسلامية حثّ فيها طلبة العلم على الصبر وعلى التحمل، وعلى الأخلاق الحميدة[٢].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يخاف من الدنيا، بقوله: "احذر من الدنيا فإنها كالماء المالح، والشيطان يكذب عليك". ويقول: "اجمع الأموال لتتصدق بها، وتبني بها المدارس، وتعمل بها".

ويروي الدكتور محمد الخضر الناجي، مزية عظيمة من مزايا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: "من أفضل أخلاقه التي تعلمتها منه: هو قوله: (لا أدري) حين يستفتى في بعض الأحيان، والوقف عند ما يشتبه من الأمور"[٣].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ زاهداً في الملبس، لا يأبه للثياب، ولا يبالي بها[٤]. يقول الأستاذ محمد الأمين بن الحسين: "حضرته يوماً في الرياض، وكان قادماً لإلقاء محاضرة في المعهد العالي للدعوة، وكان عليه ثوب لا يناسب في نظري الحضور، فقلت له: نغير لك هذا الثوب؟ فقال: يا فلان القضية ليست بالثياب، وإنما ما تحت الثياب من العلم"[٥].

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفى في ١٣٩٣/١٢/١٧هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ متقللاً من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة

---

(١) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، كتبها: أحمد بن محمد الشنقيطي (ص ٧٥ – ٧٨).

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٤٦).

(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٤١). قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:"الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم: الله أعلم ولا أدري، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء". انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢٨٥).

(٤) سيأتي لاحقاً -إن شاء الله- عند الحديث عن القناعة والزهد الإشارة إلى ما ذكره الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه في هذا الجانب.

(٥) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣١).

الورقية[١]، وقد شافهني بقوله:"لقد جئت من البلاد -شنقيط- ومعي كنز قل أن يوجد عند أحد، وهو (القناعة)، ولو أردت المناصب، لعرفت الطريق إليها، ولكني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية"[٢].

وإذا كان علماء الأخلاق يُعَنْوِنُونَ لأصول الأخلاق والفضائل بالمروءة، فإن المروءة كانت شعاره ودثاره، وكانت هي التي تحكمه في جميع تصرفاته سواء في نفسه أو مع إخوانه وطلابه أو مع غيرهم، من عرفهم أو لم يعرفهم. وقد قال فيه بعض الناس في حياته: "إنه لا عيب فيه سوى عيب واحد، هو أننا نفقده بعد موته"[٣].

ويروي تلميذه عطيه سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٤]عن مكارم أخلاقه، فيقول: أما مكارم أخلاقه ومراعاة شعور جلسائه فهذا فوق حد الاستطاعة فمذ صحبته لم أسمع منه مقالا لأي إنسان ولو مخطئ عليه يكون فيه جرح لشعوره وما كان يعاتب إنسانا في شيء يمكن تداركه وكان كثير التغاضي عن كثير من الأمور في حق نفسه وحينما كنت أسائله في ذلك يقول:

ليس الغبي بسيد في قومه ... ولكن سيد القوم المتغابي[٥]

أمّا في تحفظه عن الغيبة، فلم يكن يغتاب أحداً أو يسمح بغيبة أحد في مجلسه وكثيراً

---

(١) سئل الشيخ الدكتور/ المختار ابن محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ما ذكره الشيخ بكر أبو زيد فأجاب: "هذا بعيد، ولمّا نُقل لي أن الشيخ بكر أبو زيد ذكر هذا -والشيخ بكر ثقة- فتحصل عندي أنه يمكن عند تغيّر العملات، فإنه في زمن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ غُيّرت العملة الأولى، وغُيّرت العملة الثانية. فلربما أنه في وقت تغير العملات جيء إليه بعملة لم يألف عليها، فيمكن حمل كلامه على ذلك".

(٢) حلية طالب العلم (ص: ١٤٧)

(٣) ترجمة الشيخ في أضواء البيان (٩/ ٥٠٢).

(٤) سأورد بعض الشواهد من كلام الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بصفته تلميذ الشيخ الذي لازمه حتى وفاته.

(٥) ديوان أبي تمام الطائي (ص: ٢٠).

ما يقول لإخوانه (**أتكايسوا**) أي من الكياسة والتحفظ من خطر الغيبة. ويقول: "إذا كان الإنسان يعلم أن كل ما يتكلم به يأتي في صحيفته، فلا يأتي فيها إلا الشيء الطيب"[١].

وذكر ابنه الشيخ الدكتور/ عبدالله، أنّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ينكر إذا تكلم أحدٌ في أحد، وكان يقول لجلسائه: "يا إخواني إنكم إذا متم ولم تسبوا فرعون فلن يسألكم الله: لِمَ لمْ تسبوا فرعون؟. فاتركوا أعراض الناس"[٢].

وذكر أن رجلاً كبيراً اغتاب أحداً عنده فنهاه، فقال المغتاب: "أنا المتكلم لا أنت"، فردّ عليه الشيخ بقوله: "أنا شايب بين جنبي سورة البقرة؛ تسكت بأدب أو تخرج"[٣].

وقال[٤]: "كنت يوماً أنا وأحد الطلاب، وكان عنده شيخ يصحح عليه تأليفاً له، وكنا في مكة، فقال أحد الجلوس: (ويكره التأليف من مقصر). فضحكت أنا، فغضب، وقال: يا بني ماذا فعلت لك؟. كيف تأكل الغيبة في المسجد الحرام"[٥].

وعن تواضعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومما وقع لي معه وأكبرته فيه تواضعه وإنصافه سمعت منه في مبحث زكاة الحلي في أضواء البيان[٦] عند سرد الأدلة

---

(١) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٦).

(٢) ذكر ذلك ابنه عبد الله في لقاء معه في مدينة جدة مساء يوم الثلاثاء الأول من شهر ربيع الآخر عام (١٤١٢هـ)، وتم رفعها على الشبكة العنكبوتية في موقع: [طريق الإسلام islamway.net]، كذلك في الندوة التي أقيمت ضمن [فعاليات المدينة المنورة عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٣م] وكانت مساء الأربعاء الخامس عشر من جماد الأول عام (١٤١٣هـ)، بعنوان: (حياة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، مسجلة على موقع اليوتيوب.

(٣) ترجمة السديس، في مقدمة الأطروحة .

(٤) أي: ابنه الشيخ الدكتور/ عبدالله.

(٥) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، للطويان (١/ ٤٠).

(٦) انظر: المسألة الثالثة في أضواء البيان (٢/ ١٢٦)، عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الآية [سورة التوبة: ٣٤].

ومناقشتها أن من أدلة الموجبين حديث المرأة اليمنية ومعها ابنتها وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب فسألها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أتؤدين زكاة هذا)، فقالت:"لا". فقال: (هُما حسبك من النار)[(١)]. وأجاب المانعون بأن ذلك كان قبل إباحة الذهب للنساء فتساءلت مستوضحا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وماذا يسمى هذا منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سكوته عن لبسه وهو محرم وسؤاله عن زكاته؟". فقال: "عجباً، إن هذا يتضمن وجود اللبس عند السؤال ويدل على إباحته آنذاك؛ لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقر أحداً على محرم، ولا يتأتى أن يسكت على لبسها إياه وهو ممنوع، ويهتم لزكاته، ولو أعيد طبع الكتاب لنبهت عليه رغم أن جميع المراجع لم تلتفت إليه فهو بهذا يلقن طلبة العلم درسا في موقفه من الحق ولكأني بكلام عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في كتابه لأبي موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وظهر لك الحق أن تأخذ به فالحق أحق أن يتبع"[(٢)]. وقد رأينا من قبل للشافعي القديم والجديد. وهذا ما يقتضيه إنصاف العلماء وأمانة العلم[(٣)].

ومما لوحظ عليه في سنواته الأخيرة تباعده عن الفتيا وإذا اضطر يقول: "لا أتحمل في ذمتي شيئا العلماء يقولون كذا وكذا"[(٤)]. وقد سأله الشيخ عطية سالم مرة عن ذلك، فقال: "إن الإنسان في عافية ما لم يبتلى والسؤال ابتلاء؛ لأنك تقول عن الله ولا تدري

(١) سنن أبي داود (٢/ ٩٦).

(٢) سنن الدارقطني (٥/ ٣٦٩).

(٣) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٣).

(٤) كان عبد الله بن نجم بن شاس [المتوفى: ٦١٦ هـ] مقبلاً على الحديث، مدمناً للتفقه فيه، ذا ورع، وتحرّ، وإخلاص، وتأله، وجهاد. وبعد عوده من الحج، امتنع من الفتوى إلى حين وفاته، وكان من بيت حشمة وإمرة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٢/ ٩٨). تاريخ الإسلام، الذهبي (١٣/ ٤٧٤).

أتصيب حكم الله أم لا[١]، فما لم يكن عليه نص قاطع من كتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجب التحفظ فيه"، ويتمثل بقول الشاعر:

إذا ما قتلت الشيء علماً فقل به ... ولا تقل الشيء الذي أنت جاهله

فمن كان يهـــوي أن يرى متصدراً ... ويكـــره لا أدري أصيبت مقاتله[٢]

وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوصي أولاده بالتزام الأدب، والتحلي بالأخلاق الكريمة، ومما يرويه عنه ابنه فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الله، أنه كان يقول له:

تأدب إذا ما دخلت على أناس... وكُـــــن منهم بمنزلة الأقلّ

فإن رفعوك كان الفضل منهـــم ... وإن وضعوك فقل هذا محلي[٣]

وفي الجملة فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ خير قدوة وأحسنها في جميع مجالات الحياة، فكان العالم العامل ولا أزكي على الله أحداً[٤].

أما الناحية الشخصية: في تقويمه الشخصي لسلوكه، وأخلاقه، وآدابه، وكرمه، وعفته، وزهده وترفع نفسه وما إلى ذلك. فهذا ما يستحق أن يفرد بحديث. وما كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحب أن يذكر عنه شيء في ذلك. ولكن على سبيل الإجمال لو أن للفضائل والمكرمات والشيم وصفات الكمال في الرجال عنوان يجمعها لكان هو أحق به[٥]. قال الشيخ عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رحم الله شيخنا ما أحلمه، وما أرحمه، وما أشد تغاضيه عن زلات الناس، والله ما رأيته

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره: فإذا رأى بها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى". انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٢٧).

(٢) البيتان لحارثة بن بدر الغداني. انظر: التذكرة الحمدونية (١/ ٣٧٠).

(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، للطويان (١/ ٤٤).

(٤) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٦).

(٥) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٤).

منتقماً من أحد[١]، ولا سمعته متكلماً في أحد، ولا يستطيع أحد في مجلسه أن يتكلم -مهما كانت مكانته عنده- في أحد إلا قال له: احذر لا تعطه أحسن ما عندك. رحم الله شيخنا برحمته الواسعة، وجمعنا به في مستقر رحمته، إنه سميع مجيب"[٢].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوياً صلباً في بيانه، لينا سهلاً في الرجوع إلى ما ظهر إليه منه[٣].

(١) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما انتقم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفسه في شيء يؤتى إليه حتى ينتهك من حرمات الله، فينتقم لله» صحيح البخاري (٨/ ١٧٤).

(٢) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٧٨).

(٣) أضواء البيان (٩/ ٥٠٠). وانظر: مع صاحب الفضيلة الشيخ محمد الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٢).

المطلب الثالث
حديث الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القيم والأخلاق

لمّا أنّ المصدر الأول للقيم والأخلاق هو الوحي المنزل من عند الله جَلَّوَعَلَا، ولمّا أن اعتزاز الأمة بقيمها وأخلاقها من أعظم أسباب تقدمها وبقائها، وديمومة ذكرها، وصمود حضارتها، فقد أكّد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن الواجب على المسلمين أن يعلموا أن الدين يأمر بالتقدم والقوة في كل الميادين، وأن الإخلاد إلى العجز والضعف خلاف أوامر القرآن، وأنه مع هذا يهذب أرواحنا على ضوء تعليم السماء، ويقربنا من ربنا جَلَّوَعَلَا. وقد بين لنا القرآن في مواضع منه أن من كان متمسكاً بهذا الدين كما ينبغي، وكانت صلته بالله قوية كما ينبغي، ذا روح مربى على ضوء نور القرآن، أنه ولو بلغوا من القلة لا يمكن أن تقهرهم قوة، ولا أن يغلبهم غالب؛ لأن الله الذي اعتمدوا إليه، وصاروا من حزبه قوي قاهر لا يغلبه شيء. ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شاهداً لذلك، فقال: "وتعلمون في التاريخ، وتاريخ القرآن، أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه عام غزوة الأحزاب –غزوة الخندق– لما حاصره المشركون ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم، الذي نوه الله به مُعظماً أمره:﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١]، هذا لقوة ذلك الحصار العسكري، وهم في ذلك الوقت، جميع من في الأرض يقاطعونهم في السياسة، والاقتصاد، ليس بينهم روابط سياسية، ولا اقتصادية مع أحد، وهم في فقر وقلة وجوع، وسيد الخلق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في يطوي حزامه على الحجارة من الجوع، هم في هذا الوقت من الجوع وشدة الأعداء، وقوة الحصار العسكري، وكل من في الأرض أعداء لهم يقاطعونهم سياسة، واقتصاداً، ما العلاج، وما

قاوموا به هذا الأمر العظيم، وهذا الحصار العسكري؟. **الجواب**: أنه قوة الإيمان بالله، وصدق الالتجاء لخالق هذا الكون، كما نص الله على ذلك في قوله:﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]. هذا الإيمان والتسليم لله، وقوة الإيمان به، والاستسلام له، كان من نتائجه ما قص الله علينا في سورة الأحزاب. **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧] يعني: إن كنتم ضعافاً عاجزين فمن توكلتم عليه وآمنتم به وكنتم عباده حقاً ليس بعاجز، بل هو قادر على كل شيء، ولذا ختم القصة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾" [(١)].

ويلفت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنّ الإسلام جمع بين التقدم في الميادين والمحافظة على الآداب الروحية السماوية المتمثلة في إقامة الصلاة حتى في أحلك الظروف وأشدها[(٢)]، وهي الحرب وملاقاة العدو، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾[النساء:

(١) العذب النمير، الشنقيطي (١/ ٥٤٧).

(٢) يقول المفكر/ مراد هوفمان، في وصفه لأثر الصلاة عليه مع مرور الأيام: "وراحت أيامي تتشكل أكثر فأكثر تبعاً لمواقيت الصلاة، وليس تبعاً لساعتي التي تسبب القلق والتوتر، فعندما يتواعد المرء مع مسلمين فإنه لا يواعدهم (الساعة الثالثة والربع)، وإنما يواعدهم لوقت غير محدد إلى حد ما بعد (صلاة الظهر)، أو (بعد صلاة المغرب)". انظر: رحلة إلى مكة، مراد هوفمان (ص: ٦٨).

١٠٢] فنراه ينظم الخطة العسكرية أحسن تنظيم وأدقه في الوقت الذي يحافظ فيه على ذلك الأدب الروحي السماوي في وقت التحام الكفاح المسلح والرؤوس تنزل عن الأعناق، ألا وهو الصلاة جماعة، في ذلك الوقت الضنك[١].

ولا يكاد الحديث عن القيم والأخلاق يفارق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا يُستغربُ ذلك منه، فهو الذي عاش مع القرآن منذ طفولته حتى وفاته، يقول ابنه الأستاذ الدكتور/ عبدالله: "أوصاني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فقال له:

تأدب إذا ما دخلت على أناسٍ ... وكـــــن منهم بمنزلة الأقلِّ

فإن رفعوك كان الفضل منهـــــــم ... وإن وضعوك فقل هـذا محلي"[٢]

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمثل بعض الأبيات التي تحث على القيم ومكارم الأخلاق[٣]. ومن هذه الأبيات، وخصوصاً إذا ذهب للصيد:

قال الطريفة ما تبقى دراهمنا يوما ... وما بنا سرف فيها ولا خـــــرق

إنَّا إذا اجتمعت يوماً دراهمنـــــا ... ظلت إلى طـــرق الخيرات تستبق

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا ... لكـــن يمرّ عليها وهـــــو منطلق

حتى يصير إلى نذل يخلـــــــده ... يكاد من صره إيـــــاه ينمزق[٤]

وحين تحدث رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العدل في آية سورة المائدة، قال: "وهذا دليل واضح على كمال دين الإسلام، وحسن ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق"[٥].

---

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٨٦).

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٤٤).

(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٤٤).

(٤) القائل جؤبة بن النضر. انظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (ص٤٨٧). مؤلفه: أحمد قبش، مطبعة دار العروبة بدمشق (١٣٩٩هـ).

(٥) أضواء البيان، الشنقيطي (١/ ٣٢٨).

وأشار إلى أن العدول عن هدي القرآن من أعظم أسباب ضياع واضمحلال القيم والأخلاق، والانحطاط إلى درجة البهائم، والمحافظة على الشرف والمروءة والأخلاق[١].

وذكر أن هذا القرآن العظيم يجب علينا جميعاً أن نتبعه، ونتأدب بآدابه، ونتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق، ونحل حلاله، ونحرم حرامه، ونعتقد عقائده، وننزجر بوعيده، ونبسط لوعده، ونتأسى بأمثاله، إلى غير ذلك من العمل به[٢].

ويلفت رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظر القارئ عند تفسير الآيات التي تحث على الأخلاق، فيقول:"..فانظر ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق"[٣].

ويشير إلى أن تشريع الحكيم الخبير جَلَّوَعَلَا مشتمل على جميع الحِكَم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، وقد جاء القرآن بذلك بأقوم الطرق وأعدلها. وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الحض على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولذلك لما سئلت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عن خلقه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قالت: «كان خلقه القرآن»[٤]؛ لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق[٥].

ويذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المنافقين المتشابهين في الأخلاق والأهداف أخلاقهم واحدة وغرضهم واحد، فبعضهم من بعض، وليسوا من المؤمنين، وليس المؤمنون منهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾[التوبة: ٦٧]، ثم بين

(١) أضواء البيان، الشنقيطي (٣/ ٢٢).
(٢) العذب النمير، الشنقيطي (٢/ ٧٠).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٥).
(٤) مسند أحمد (٤٢/ ١٨٣).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٣٧، ٤٧، ٤٩)، وانظر: المصالح المرسلة، الشنقيطي(ص: ٢٩).

صفاتهم التي يجتمعون فيها وهي ضد صفات المؤمنين، وهي قوله: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾، والمؤمنون ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[التوبة: ٧١](١).

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٨]، بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا تعليم عظيم من الله لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمكارم الأخلاق، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء؛ لأن الرد الجميل خير من الإعطاء القبيح.. وأشار إلى أن الآية الكريمة تشير إلى أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعرض عن الإعطاء إلا عند عدم ما يعطى منه، وأن الرزق المنتظر إذا يسره الله فإنه يعطيهم منه، ولا يعرض عنهم. وهذا هو غاية الجود وكرم الأخلاق (٢).

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن في سبيل محافظته على الأنساب ومكارم الأخلاق، وتطهير الفرش من التقذير؛ مَعَ الزنا، وأوجب في الزنا الجلد الرادع(٣).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله جَلَّ وَعَلَا أرسل هذا النبي الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكمال الإنصاف، ومكارم الأخلاق(٤)، وأنّ هذا الشرع الكريم شرع سماوي، يراعي حقوق

(١) العذب النمير (٥/ ٦٢١).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٨٦).

(٣) العذب النمير (٢/ ١٨١). وقد شاع في المجتمع الغربي المعاصر ما يسمى بـ (الزواج بالتجربة)، وهو اتفاق بين الرجل والمرأة دون إبرام عقد زواج، ومن غير تقدير بمدة، ليختبر كل طرف الآخر، حتى إذا تحقق الانسجام والتوافق بينهما أقدما على عقد الزواج في نهاية الأمر، مما يجعله علاقة غير شرعية في الواقع وإن أقره القانون، وهذا أسوأ أنواع العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، فهو في الواقع علاقة زنا محض. انظر: قضايا الفقه والفكر المعاصر. أ.د. وهبة الزحيلي (ص: ١٠١).

(٤) العذب النمير (٢/ ٥٠٥).

الضعيف، ويحافظ على مكارم الأخلاق[١].

ولمّا أنّ الإسلام قد جاء بصيانة الأعراض، والمحافظة عليها مما يخدشها أو يلحق بها السوء، فقد ألمح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن العرض إذا ضاع من الإنسان فلا شيء يخلفه؛ لأنه إذا ضاع عرضه، وعرفت الفضيحة أمام الناس لم يمكن أن يداوي ذلك، ولو رجع إلى مكارم الأخلاق، فتلك الفضيحة بقيت فيه[٢]، لكن فضيحة الدنيا وإن كانت من أعظم المصائب، ففضيحة الآخرة أعظم وأطمّ؛ لأن المفتضح في الآخرة إنما يفضح بذنوب تؤديه إلى العذاب والنكال يوم القيامة –والعياذ بالله–[٣].

وفي إشارة منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أثر تطبيق الشريعة الإسلامية، وإقامة الحدود على استتباب منظومة القيم، والأخلاق، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "..البلاد التي تحكم بما أنزل الله، وتقطع يد السارق، وترجم الزاني المحصن، وتجلد الزاني تراها دائماً لأجل ذلك التشريع السماوي تقل فيها الجرائم الأخلاقية... فتشريع رب العالمين هو التشريع الصحيح الذي يصون الأنفس، ويصون الأموال، ويصون الأعراض، ويصون العقول، ويصون الأنساب، إلى غير ذلك من المقومات الإنسانية"[٤]. وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن فشوّ الرذيلة والزنى، من شأنهما ضياع الخلق والمروءة، ومكارم الأخلاق[٥]. ويذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن البلاد التي لا تحكم بالشرع في قلق

(١) العذب النمير (٢/ ٥٠٧).

(٢) يقول ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحرابة في الفروج أفحش منها في الأموال، وأن الناس كلهم ليرضون أن تذهب أموالهم وتحرب من بين أيديهم ولا يحرب المرء من زوجته وبنته، ولو كان فوق ما قال الله عقوبة لكانت لمن يسلب الفروج". أحكام القرآن، ابن العربي (٢/ ٩٥).

(٣) العذب النمير (٢/ ٥١٦).

(٤) العذب النمير، (٣/ ١٨٣).

(٥) العذب النمير، (٣/ ٣٢٧).

وعدم طمأنينة، إما بأخذ أموالها وإما بضياع أخلاقها وحقوقها وجميع قيمها الإنسانية إلى غير ذلك من المفاسد الظاهرة[١][٢].

ولأن المرأة تمثل نصف المجتمع، ولقناعة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدورها وأثرها في بناء الأسرة والمجتمع، فإنه لا يُعارض عملها ما دامت تعمل في ستر وحشمة، بعيداً عن مخالطة الأجانب، ولم تُهدر الفضيلة، أو ترتكب رذيلة، متمسكة بمكارم الأخلاق. وقد أضح غاية الإيضاح هذه المسألة فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وربما تضطر بعض النساء إلى مزاولة الأعمال كالتي لا زوج لها ولا ولي لها يقوم بشؤونها، فنحن لا نقول: إنها تبقى عالة لا تعمل، بل تذهب وتعمل في بعض مرافق الحياة لتسد خلتها وماء وجهها عن تكفف الناس، ولكنها تعمل في عفاف وستر وصيانة وكرم، وعدم مخالطة للأجانب، وعدم إهدار للفضيلة وارتكاب للرذيلة، فرب امرأة عملت عملا من أعمال الحياة الدنيا سدت به خلتها، وقومت به شأنها، وهي في غاية العفاف والتستر، والأخذ بمكارم الأخلاق"[٣].

وقد أوصى المسلمات في محاضرته التي ألقاها أثناء رحلته إلى أفريقيا فقال: "اعلمن أن

---

(١) منهج التشريع الإسلامي وحكمته (ص: ٧٤).

(٢) يرى بعض عقلاء الغرب أهمية العقوبة في الحدّ من الجريمة، فهذا (غوستاف لوبون) يرى أن تخفيف العقوبات وعجز القضاة في فرنسا أدى إلى زيادة الجرائم.. وحين أعرب أحد أعضاء مجلس بلدية باريس عن استيائه من كثرة الاعتداءات الليلية في باريس أجاب عمدتها (الموسيو ليبين) أنها ناشئة عن ضعف القضاة، وعن العفو المستمر عن المجرمين.. ويرى (غوستاف) أن الوصول إلى فرض ما يلزم من العقوبات يتطلب شفاء الجمهور من مرض الإنسانية والقضاة من الخوف، ونقل ما قاله رئيس المجلس البلدي عند دفن قتلة أحد الأوباش، حيث قال: "إن الذي يهمنا على الخصوص هو أن لا نجعل للمبادئ المزعوم أنها إنسانية سبيلاً إلينا، فهي لا تؤدي إلى غير إضعاف النجدة والمروءة فينا، وهي أكثر ضرراً وفساداً من الأوباش أنفسهم". وعلّق (غوستاف) بقوله: "أشاطر هذا الرأي مشاطرة مطلقة، فدعاة المذهب الإنساني أشد خطراً من اللصوص..". **انظر: روح السياسة، غوستاف (ص: ٢١٩-٢٢٠).**

(٣) العذب النمير (٣/ ٣٣١).

الله -تبارك وتعالى- أوجب عليكن مكارم الأخلاق اللائقة بشرفكن من الصيانة والستر والعفاف، وإرضاء الفضيلة". ثمّ فصّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة عمل المرأة إن هي اضطرت للعمل خارج بيتها، وبين الأحكام في كل ذلك(١).

ولخطورة معارضة تشريع الخالق جَلَّوَعَلَا على البناء القيمي والأخلاقي، ولمّا أن المحافظة على الأسرة المسلمة وتماسكها أكبر قيمة، فقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن البلاد التي تمنع تعدد الزوجات تجدها تمنع أمراً حلالاً فيه صالح الرجل وصالح المرأة وصالح المجتمع بكثرة الأولاد، وهم مع ذلك فيهم كثير من النساء هم لا أزواج لهن، لا حرفة لهن إلا الزنى، وكل واحد له صدائق وخليلات يزاني بهن -والعياذ بالله - فتنتشر الرذيلة، وتضيع الأخلاق، وتضيع المروءة(٢)، فالنساء أكثر من الرجال، وكذلك النساء مستعدات كلهن للزواج؛ لأن كل امرأة بلغت مبلغ الزواج فهي مستعدة للزواج، وما كل الرجال مستعداً للزواج؛ لأنه قد يعوقه الفقر عن القيام باللازم ونحو ذلك. فلو قصر الواحد على الواحدة لبقي عدد ضخم خال من أزواج، وكانت حرفته الزنى فضاعت أخلاقه، وضاعت مروءته، وضاع شرفه، وفشت الرذيلة، والانحطاط الخلقي، وضياع القيم الإنسانية، كما هو واضح (٣).

---

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٦٠).

(٢) وقد شهد كثير من مفكري الغرب على شمولية الإسلام، ومنهم الأستاذ (ج. ولينز) في محاضرة له عن الإسلام فيقول: "..ولمّا كان الإسلام ديناً عملياً، فقد أقبلت عليه وارتضيته، وفي الحقّ لقد قام هذا الدين على أساس حاجة النلس الحقيقية إليه، ولم تكتنفه مبالغة أو خيال". وعند حديثه عن الزواج في الإسلام والتعدد وحفظ جناب المرأة وصيانتها فيقول: "لقد صان نظام الإسلام النساء ممن نبذهنّ، فصرن يتجولن في شوارع لندن وباريس وفينّا، ولا ريب أن نظام التعدد المحكم، خير ألف مرة من ارتباط المرأة برجال لا يحصيهم العدد، وشتّان بين زوج وخليل". **انظر: المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم (ص: ٢٩٩).**

(٣) العذب النمير (٣/ ٣٢٨)، أضواء البيان (٣/ ٢٢).

وفي إشارة منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى دور الرجل في بناء قيم الأسرة، وتقويم خُلق المرأة، بيّن أن الله جَلَّ وَعَلَا جعل الرجل هو المسؤول عن تقويم أخلاقها، والقيام بشؤونها، وذكر أن الرجل مترقب النقص والبذل دائماً، وهي -أي المرأة- مترقبة الزيادة دائما، وجعل الله النساء يُنفق عليهن، ويُكفين المؤنة، ليس لإهانة لهن، ولا لهضم حقوقهن، ولكنما هو إكرام لهن بحسب طبيعتهن وخلقتهن التي جبلهن عليها خالق السماوات والأرض؛ لأن المرأة تتعرض لأعين الخونة، وكلها متعة وتلذذ أبت أم كرهت؛ لأن عين الإنسان إذا نظرت إلى جمالها التذّت منها واستغلت جمالها كرها، فاقتضت حكمة الشرع أن تصان، وتجعل كالدرة المصونة، وتكفى مؤن الدهر ولوازمه ونوائبه؛ لئلا تضطر إلى الابتذال وما لا يليق بشرفها. فهذه تعاليم الإسلام، وصيانته للمرأة وإكرامها وبذلها لحقوقها الكاملة، والمرأة تساعد في بناء المجتمع. وتربية الأسرة داخل بيتها مساعدة أعظم مما يعمله الرجل خارجاً، لكن تلك المساعدة في عفاف وستر وكرم[1].

ويحذّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تصوير ما حرّمه الله جَلَّ وَعَلَا على قيم وأخلاق الناس، فيقول:"...فصار التصوير في الأحوال الراهنة له أيضا أثره البالغ في ضياع الأخلاق، وانتشار الرذيلة، والقضاء على مكارم الأخلاق .. والتصوير هو سبب أول شرك وقع في الدنيا، وله أثره الفعال الآن في فساد الأخلاق، وضياع شباب المجتمع كما هو معروف؛ لأن من أعظم أسباب الفساد وتغيير فطر شباب المسلمين، فإذا رأى صورة المرأة على هيئتها متجردة من كل شيء، فلا شك أن الشباب الذي ليس عقله مزموماً بإيمان كامل، وورع ومروءة تامة أن ذلك يحرك غريزته ويهيج طبيعته"[2].

ولا يغيب عن العلامة الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان أهمية القيم والأخلاق في

(١) العذب النمير (٣/ ٣٢٤).
(٢) العذب النمير (٣/ ٤٤٧).

مسائل المال والاقتصاد، فيقول: "محافظة دين الإسلام على جلب المصالح معروفة، ألا ترون أن أطول آية في المصحف الشريف هي آية الدَّين. فانظروا كيف علَّم الله خلقه فيها كتابة الوثائق وإشهاد البينات؛ لئلا يضيع كبير ولا صغير من أموالهم، وفتح لهم الأبواب، ورسم لهم الخطط الحكيمة لاستجلاب ما ينفعهم من جميع النواحي، وأمرهم بمكارم الأخلاق وحسن المعاملات، وبين لهم أصول الاقتصاد"(١).

وحين تطرق لبيان القيم والمُثل العليا للتشريعَ السماوي ذكر أنها لا نظير لها، فهي مشتملة على العدل والإنصاف والإحسان ومكارم الأخلاق. والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة(٢).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من المصالح التي جاء بها الإسلام؛ مصلحة الجري على مكارم الأخلاق واتباع أحسن المناهج في العادات والمعاملات، فقد اقتضى التشريع الإسلامي الحث عليها والأمر بها، ومن عمل بالتشريع الإسلامي كان أجرى الناس على مكارم الأخلاق واتباع أحسن المناهج، ومما يوضح ذلك أن الله قال في نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤]، ولما سئلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن خلقه الذي وصفه الله بالعظيم قالت: «كان خلقه القرآن»(٣)، فدل مجموع الآية وحديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق يكون على خلق عظيم، والآيات الدالة على الأمر بأكرم الأخلاق وأحسنها كثيرة جدًّا.. ومن فروع هذا الأصل الذي هو الجَرْي على مكارم الأخلاق: تحريمُ النجاسات حثًّا على مكارم الأخلاق؛ لأن ملابسة الأقذار والنجاسات منافية لمكارم الأخلاق، ومن فروعه: وجوب الإنفاق على

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٩١).
(٢) المثل العليا في الإسلام، الشنقيطي (ص: ١٣٦).
(٣) سبق تخريجه.

الأقارب الفقراء كالآباء والأبناء، ومن فروع هذا الأصل: إعفاء اللحية التي هي من أكبر الفوارق الظاهرة بين نوع الذكر ونوع الأنثى، فالفرار بحلقها من العلامة الواضحة الدالة على شرف الرجولة وكمالها إلى خنوثة الأنوثة ليس من مكارم الأخلاق؛ ولذا كان أكرم الخلق أخلاقًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ معفيًا لحيته الكريمة الكثَّة. ومن فروع هذا الأصل: قص الشارب، وحلق العانة، ونتف الإبط، ونحو ذلك[١].

وقد بَيَّن تعالى في كتابه كثيراً من الآثار الحميدة الناشئة عن العمل بما أنزل الله على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أنه ضرَب لذلك الأمثال في الكتب السابقة، فبين أن مثل العاملين بالقرآن في التوراة أن صفتهم الكريمة التي وُصِفوا بها فيها أنهم أشداء على الكفار بالله رحماء بينهم، ركوعهم وسجودهم كثير في صلاتهم وابتغاؤهم فضل ربهم ورضوانه، وأن آثار السجود ظاهرة علاماتها في وجوههم، وأن مثلهم في الإنجيل في كثرتهم بعد القِلَّة وقوتهم بعد الضعف وشدة مؤازرة بعضهم لبعض كمثل الزرع يَنْبت قليلًا ضعيفًا ثم يقويه النابت من شطئه فيستغلظ ويستوي على سوقه حتى يكون كثيراً قويّاً متماسكاً[٢].

وتطرق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى بيان المُثل العليا في أخلاق العاملين بالقرآن، فذكر أن الوحي قد دلّ على أن العامل بالقرآن تكون أخلاقه مثالًا أعلى، قال تعالى في نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم: ٤]. ولما سُئِلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن خُلُقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ذكر الله أنه عظيم قالت: «كان خلقه القرآن»[٣]، فدل ذلك على أن العامل بالقرآن يكون خُلُقه مثلًا أعلى. وقد بَيَّن تعالى في كتابه كثيرًا

(١) منهج التشريع الإسلامي وحكمته، الشنقيطي (ص: ٧٥).
(٢) المثل العليا في الإسلام، الشنقيطي (ص: ١٣٨).
(٣) سبق تخريجه.

من الآثار الحميدة الناشئة عن العمل بما أنزل الله على نبيه حتى أنه ضرَب لذلك الأمثال في الكتب السابقة، فبين أن مثل العاملين بالقرآن في التوراة أن صفتهم الكريمة التي وُصِفوا بها فيها أنهم أشداء على الكفار بالله رحماء بينهم... وهذه الصفات التي هي مُثلُ العامِلين بهذا القرآن في التوراة والإنجيل مستلزمة لتهذيب الروح وطاعة خالق هذا الكون جَلَّ وَعَلَا، ولسياسة المجتمع الخارجية والداخلية [(١)].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المصالح البشرية التي بها نظام الدنيا راجعة إلى ثلاثة أنواع. ومنها: التحلي بمكارم الأخلاق والجري على محاسن العادات، المعروف عند أهل الأصول بالتحسينات والتتميمات، ومن فروعه خصال الفطْرة كإعفاء اللحية[(٢)] وقص الشارب.. إلخ. ومن فروعه أيضًا: تحريم المستقذرات ووجوب الإنفاق على الأقارب الفقراء. وكل هذه المصالح لا يمكن شيءٌ أشد محافظة عليها بالطرق الحكيمة السليمة من دين

(١) المثل العليا في الإسلام، الشنقيطي (ص: ١٣٨-١٤٠).

(٢) استنبط الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله تعالى:﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤]، لزوم إعفاء اللحية، وعدم حلقها.. فهارون كان موفراً شعر لحيته؛ لأنه لو كان حالقاً لما أراد أخوه الأخذ بلحيته، فتبين لك من ذلك أن إعفاء اللحية من السمت الذي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والعجب من الذين مضخت ضمائرهم، واضمحل ذوقهم، حتى صاروا يفرون من صفات الذكورية، وشرف الرجولة، إلى خنوثة الأنوثة، ويمثلون بوجوههم بحلق أذقانهم، ويتشبهون بالنساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسية بين الذكر، والأنثى وهو اللحية. وقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كث اللحية، وهو أجمل الخلق وأحسنهم صورة. والرجال الذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ليس فيهم حالق. نرجو الله أن يرينا وإخواننا المؤمنين الحق حقا، ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه. أما الأحاديث النبوية الدالة على إعفاء اللحية، فلسنا بحاجة إلى ذكرها لشهرتها بين الناس، وكثرة الرسائل المؤلفة في ذلك. وقصدنا هنا أن نبين دليل ذلك من القرآن. انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٩٢).

الإسلام[1].

ويشير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الإسلام كما أدب الأغنياء في طريقة الإنفاق فقد أدب الفقراء في طريقة الأخذ، وذلك في قوله تعالى:﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة: ٢٧٣][2]. وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الكمال يكون بأمرين:

أحدهما: التخلي عن الرذائل، والتنزه عما لا يليق، وهذا معنى التسبيح.

والثاني: التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال، وهذا معنى الحمد، فتم الثناء بكل كمال[3].

(١) الإسلام دين كامل (١/ ٢٥). مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٣٥).
(٢) أضواء البيان (٨/ ٤٩).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٢٢).

المطلب الرابع

مفهوم القيم والأخلاق عند الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

يؤكد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وجوب الالتزام بقيم وأخلاق الإسلام، وأكّد على أن من هدي القرآن للتي هي أقوم؛ هديه إلى أن التقدم في شتى العلوم والصناعات لا ينافي التمسك بالدين، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ ما خيّله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام من أن التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام؛ باطل لا أساس له. والقرآن الكريم يدعو إلى التقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين، ولكن ذلك التقدم في حدود الدين، والتحلي بآدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية[1].

ويُحذّرُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الحضارة المادية المعاصرة، البعيدة عن هدي الوحي ونظام الشريعة، وذلك لما لها من أثر سيء على القيم والأخلاق. ويؤكد رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وجوب التفريق بين حضارة الغرب؛ بين ضارها ونافعها، فنتفع بنافعها وهو منافعها الدنيوية، وقوتها المادية، ونجتنب سمومها الفتاكة القاتلة، وهي ما تدعو إليه من سوء الأخلاق وضياع كل قيمة، والتمرد على خالق السماوات والأرض جَلَّ وَعَلَا ففيها ماء زلال وسم قاتل. فعلينا أن نجتنب السم، والانحطاط الخلقي، وضياع الأخلاق والقيم الروحية الإنسانية، ونأخذ الماء الزلال كما كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل[2].

إذن، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يناصب العداء لكلّ ما جاء من الحضارات الأخرى، ولكنه

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٧).

(٢) العذب النمير (٤/ ٥٧٧). وسيأتي بيان ذلك في المطلب السابع –إن شاء الله– عند الحديث عن: الحضارة الغربية، والقيم، والأخلاق.

يلفت النظر إلى أن الواجب على المسلمين أن يفهموا أن ما أنتجته الحضارة الغربية من خدمة جسم الإنسان أن فيه أشياء نافعة عظيمة يجب أخذها، وأن فيها أضراراً عظيمة وسموماً قاتلة، وهي ما أحدثته من الإفلاس الخلقي والتمرد على نظام السماء، والكفر الصريح، والانحطاط الخلقي في جميع ميادين الأخلاق والقيم الإنسانية الروحية، فهم مفلسون في هذه الناحية، أغنياء في هذه الناحية، فكان على المسلم أن ينتفع بتعلم ما أحدثته من القوة في سائر الميادين، وفي ذلك يأمر القرآن، ويحذر مما جنته من التمرد على نظام السماء[١].

ويقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المرأة -**بصفتها المربية والحاضنة، ومصنع الرجال**- إذا زاولت بعض الأعمال في صيانة وستر وعفاف فلا مانع، وإذا أرادت أن تزاول بعض الأعمال في تكشف وأمور لا تليق بالفضيلة، فهذا أمر لا ينبغي؛ لأنه أقرب إلى الانحطاط الخلقي وضياع القيم العليا والمُثُل العظيمة للإنسانية[٢].

ويؤكد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخدمات التي تقوم بها المرأة للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر وصيانة، وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة والقيم الإنسانية، لا تقل عن خدمة الرجل بالاكتساب [٣].

ومما سبقت الإشارة إليه نلحظ أن القيم والأخلاق في مفهوم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي مجموعة المُثُل العليا والغايات والمعتقدات، والتشريعات، الضابطة لسلوك الفرد والمجتمع، ومصدرها هو الوحي المنزل من عند الله جَلَّ وَعَلَا، وهذا المفهوم هو ما عناه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأكد عليه أثناء حديثه عنها في مؤلفاته ومحاضراته ودروسه. ولذلك كان كثيراً

(١) العذب النمير (٤/ ٥٧٧).
(٢) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ١٣٣).
(٣) العذب النمير (٢/ ٥٤٧).

ما يحذّر وينبه إلى أن الواجب على المسلم أن يكون مُحْتَرِماً ومُعَظِّماً لما جاء من الله، غير مستهزئ بالدين[1]؛ لأنه المصدر الأعلى للقيم والأخلاق التي بها ترتقي الأمم والشعوب.

(١) انظر: العذب النمير (٣/ ٣١٣).

المطلب الخامس

مصادر القيم والأخلاق، عند الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

أولاً: القرآن الكريم:

بيّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى:﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جَلَّوَعَلَا يهدي للتي هي أقوم؛ أي الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب. فهذه الآية الكريمة أجمل الله جَلَّوَعَلَا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. فمن ذلك: توحيد الله جَلَّوَعَلَا في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ جعله الطلاق بيد الرجل. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ تفضيله الذكر على الأنثى في الميراث. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ قطع يد السارق. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ رجم الزاني المحصن ذكرا كان أو أنثى، وجلد الزاني البكر مائة جلدة ذكراً كان أو أنثى. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ هديه إلى أن التقدم لا ينافي التمسك بالدين. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ بيانه أنه كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد بن عبد الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح، مخرج عن الملة الإسلامية. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام. **ومن هدي القرآن للتي هي أقوم**؛ هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها. ولما كان تتبع جميع ما تدل عليه هذه

الآية الكريمة من هدي القرآن للتي هي أقوم يقتضي تتبع جميع القرآن وجميع السنة؛ لأن العمل بالسنة من هدي القرآن للتي هي أقوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. وكان تتبع جميع ذلك غير ممكن في هذا الكتاب المبارك، فاقتصرنا على هذه الجمل التي ذكرنا من هدي القرآن للتي هي أقوم تنبيها بها على غيرها(١).

ويصف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ القرآن الكريم، فيقول: «.. وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلا الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين، إذا قرأه الإنسان وتدبر معانيه، ففي كل حرف عشر حسنات في القراءة، وإذا تدبر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق...فكله خيرات وبركات؛ لأنه نور ينير الطريق التي تميز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين»(٢).

ويشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن القرآن الكريم مصدر مكارم الأخلاق وينبوعها، وهذه الأخلاق يدركها المسلم بتلاوته وتدبره لآيات الكتاب، ولذلك نبّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثناء رحلته إلى أفريقيا للدعوة إلى الله عند تفسير الآيات (٢١ - ٢٤) من سورة البقرة، على فضل القرآن العظيم؛ لأنَّ فيه جميع خير الدُّنيا والآخرة، وأوصى بتدارسه وتعلمه، حتى نعتقد عقائده، ونحل حلاله، ونحرّم حرامه، ونتأدب بآدابه، وننزجر بزواجره، ونتربى بما فيه من

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧ - ٥٤).
(٢) العذب النمير (١/ ٧).

مكارم الأخلاق، وأن نتعظ بما فيه من العبر، والمواعظ، والأمثال، وقصص الأمم الماضية[1].

وعلى كل حال فالهدى كل الهدى في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن يكون عليه من الصفات الكريمة، من عدم الغش وعدم الخيانة، ومن السخاء والتضحية والمعاونة والشجاعة والصبر والشكر ... إلى غير ذلك من أوصاف النفوس الحميدة، والنهي عن الأوصاف الخبيثة؛ كالعجب والرياء والحسد والكبر[2]، وما جرى مجرى ذلك، فيأمره كيف يعامل زوجه وأولاده أكمل معاملة، ومن أوضح ذلك أنه يحذره أولاً من ضرهم؛ لأن أولاده وزوجته قد يضيعون دينه، فإن الأولاد قد يحملون الرجل على بعض المخالفات، والمرأة قد يحمله خاطرها على بعض المخالفات، فيأمرهم بالحذر أولاً من أن يوقعوهم فيما لا ينبغي، ثم إن الله يعلم أنه لا بد أن يقع منهم شيء يسوء الرجل، فبعد ذلك يأمره بالصفح والعفو عنهم، ويحذره أولا منهم، ثم يأمره بعد الوقوع بالمعاملة الحسنة معهم، فإن وجدتم ما لا يليق فقابلوهم بالصفح والعفو والرحمة، يأمر أولاً بالحذر خوفاً منهم، وثانياً بمعاملتهم بالإحسان إذا وقع منهم بعض الشيء. ويأمرنا بما نعامل به الأعداء، وما نعامل به الإخوان، فالمسلم رحيم بالمسلم، شديد على عدو المسلم، فيبين

(١) العذب النمير (٢/ ٧٠)، و رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ١٤).

(٢) **يقول الفيلسوف الأمريكي [ويليام جيمس ديورانت**.. ت/١٩٨١م]: "والقرآن يشمل قواعد للآداب، وصحة الجسم، والزواج والطلاق، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان، والتجارة، والسياسة، والربا، والدَّين، والعقود، والوصايا، وشؤون الصناعة والمال، والجريمة، والعقاب، والحرب والسلم..". **انظر: قصة الحضارة (١٣/ ٥٩)**.

أن صفات المسلم أن يكون لينا هينا على أخيه المسلم، وأن يكون غليظا فظا على أعدائه[١].

ونزول القرآن على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكبر فضل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾[فاطر: آية ٣٢]. أي: الفضل الكبير من الله عليهم حيث أنزل لهم كتابه يتلى، محفوظاً، يبين لهم ما يقربهم إلى ربهم، وما يبعدهم من النار، وما يهذب نفوسهم ويربي أرواحهم، ويرفع أخلاقهم، ويبين لهم مكارم الأخلاق، إلى غير ذلك[٢].

وحين يدعو القرآن الكريم إلى إقامة الحدود، فذلك لأنها من أسباب حفظ المجتمع وتدعو إلى مكارم الأخلاق، والتنزه عما لا يليق[٣].

وبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى (تفصيل هذا الكتاب)، فقال: "جعلناه مفصلاً موضحاً بيناً، فيه العقائد بتفصيل وإيضاح، والحلال والحرام والأمثال والمواعظ، وما يدخل الجنة، وما يدخل النار، وما يرضي الله، وما يسخط الله، وما تصلح به أحوال الإنسان في دنياه وآخرته، وما تفسد به، فقد فصل الله فيه كل شيء، وبين فيه أصول كل شيء، فأوضح فيه العقائد، ومكارم الأخلاق، والخروج من الشبهات، ورفع فيه الهمم، وبين أصول الحلال والحرام، وأصول المواعظ وجميع الأشياء.."[٤].

وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن هذا القرآن العظيم جاء للبشرية بخير الدنيا والآخرة. أما في

(١) العذب النمير (٢/ ٥٤٣).
(٢) العذب النمير (٣/ ٤٣٩).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٥).
(٤) العذب النمير (٣/ ٣١٧).

دار الدنيا فجاء فيه تنظيم علاقاتها، فأمر فيه الفرد بأن يكون لبنة صالحة لبناء المجتمع، بأن يكون سخياً باذلاً لما لديه، وأن يكون شجاعاً مضحياً، وأن يكون مخلصاً لأمته لا يغشها، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق(١).

قال الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تتمة الأضواء: "والمتأمل للقرآن في هديه يجد مبدأ الأخلاق في كل تشريع فيه حتى العبادات. ففي الصلاة خشوع وخضوع وسكينة ووقار، فأتوها وعليكم السكينة والوقار، وفي الزكاة مروءة وكرم، وفي الصيام: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، وفي الحج: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧]، وفي الاجتماعيات: خوطب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأعلى درجات الأخلاق، حتى ولو لم يكن داخلا تحت الخطاب؛ لأنه ليس خارجا عن نطاق الطلب: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[الإسراء: ٢٤]، مع أن والديه لم يكن أحدهما موجوداً عند نزولها، إلى غير ذلك من التعاليم العامة والخاصة التي اشتمل عليها القرآن"(٢).

ويصف الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ القرآن بأنه كله بركات وخيرات؛ لأن الله قال إنه ﴿مُبَارَكٌ﴾. والمبارك: كثير البركات؛ لأن فيه خير الدنيا والآخرة، يعتقد الإنسان عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بآدابه، ويعتبر بأمثاله وقصصه، فيكون على أكمل حال في الدنيا والآخرة. فهو فيه البركات والخيرات لمن وفقه الله جَلَّ وَعَلَا للعمل

(١) العذب النمير (٢/ ١٧٤).
(٢) أضواء البيان، تتمة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/ ٢٤٩).

به، وهو أعظم نعمة أنزلها الله على خلقه، ولذا علمهم أن يحمدوه على هذه النعمة والبركات في هذا القرآن العظيم، وبين أن إيراثه علامة الاصطفاء، وبين أن ذلك فضل كبير من الله، وأن ما تدعو إليه الكتب السماوية من التوحيد وطاعة الله ومكارم الأخلاق كذلك جاء القرآن آمراً به[١]. ومن نظر في القرآن وجده جامعا بين الأمرين: الأمر بالقوة والتقدم، مع المحافظة على الآداب الروحية[٢].

ثانياً: السنة النبوية:

ذكر الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أجمل البعثة كلها في مكارم الأخلاق في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣]، كما عني أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بقضية أخلاقه بعد نزول هذه الآية، فسألوا عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن ذلك فقالت: «كان خلقه القرآن»[٤]، وعني بها العلماء بالتأليف، كالشمائل للترمذي[٥].

ولما أتمّ الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسير أضواء البيان، وأتى على تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم: ٤]، قال: "هذه بمثابة الرد على ادعاء المشركين أولاً عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورميه بالجنون؛ لأن أخلاق المجانين مذمومة بل لا أخلاق لهم، وهنا أقصى مراتب العلو في الخلق. مثلاً: (ذو خلق عظيم) لبيان قوة التمكن والاستعلاء، وأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق كل خلق عظيم متمكن منه مستعل عليه[٦].

---

(١) العذب النمير (١/ ٥٠٤).
(٢) العذب النمير (٢/ ١٨٥).
(٣) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٢٣).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أضواء البيان (٨/ ٢٤٨).
(٦) أضواء البيان، تتمة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨/ ٢٤٧).

وقد أجمل الخُلق العظيم هنا وهو من أعم ما امتدح الله به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتابه، وقد أرشدت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا إلى ما بين هذا الإجمال حينما سئلت عن خلقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي امتدح به فقالت: «كان خُلُقُهُ القرآن»[(١)]، تعني -والله تعالى أعلم- أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتمر بأمره وينتهي بنواهيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر: ٧]، وكما في قوله تعالى:﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، وكما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[(٢)]، فكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممتثلاً لتعاليم القرآن في سيرته كلها، وقد أمرنا بالتأسي به صلوات الله وسلامه عليه، فكان من أهم ما يجب على الأمة معرفة تفصيل هذا الإجمال؛ ليتم التأسي المطلوب[(٣)].

ويذكر الشيخ عطيه سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن قضية الأخلاق عامة، وأخلاقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة، قد أخذت محل الصدارة من مباحث الباحثين، وتقرير المرشدين، فهي بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم، وعامل الحفاظ على بقائها، كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[(٤)].

أما أقوال المفسرين في الخلق العظيم المعني هنا فهي على قولين، لا تعارض بينهما، منها: أنه الدين، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم[(٥)]. **والآخر**: قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كان خُلُقُهُ القرآن»[(٦)]، والقرآن والدين مرتبطان، ولكن لم يزل الإجمال

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) السنة لابن أبي عاصم (١/ ١٢)، وضعفه الألباني، في ظلال الجنة، تخريج السنة (١/ ١٢).

(٣) أضواء البيان، تتمة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨/ ٢٤٧).

(٤) البيت نسبه أحمد قبش في مجمع الحكم والأمثال (ص٢٤٠)، لأحمد شوقي ولم أجده في ديوانه.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تفسير ابن كثير (٨/ ٢٠٦).

(٦) سبق تخريجه.

موجودا. وإذا رجعنا إلى بعض الآيات في القرآن نجد بعض البيان لما كان وقد أكد هذا السياق بعوامل المؤكدات باندراجه في جواب القسم الأول في أول السورة، وجاء بعلى الدالة على الاستعلاء والتمكن بدلاً من ذو عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عظيم الخلق مثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[التوبة: ١٢٨]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل: ١٢٥]، ومثل ذلك من الآيات التي فيها التوجيه أو الوصف بما هو أعظم الأخلاق، وإذا كان خلقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو القرآن، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم[1].

وقد عني صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأخلاق، حتى كان يوصي بها المبعوثين في كل مكان، كما أوصى معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بقوله: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[2]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة: إذا لم تستحي فاصنع ما تشاء»[3]، أي: إن الحياء وهو من أخص الأخلاق سياج من الرذائل، وهذا مما يؤكد أن الخلق الحسن يحمل على الفضائل، ويمنع من الرذائل، كما قيل في ذلك:

(١) أضواء البيان، تتمة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨/ ٢٤٧).
(٢) مسند أحمد (٣٥/ ٢٨٤).
(٣) صحيح البخاري (٤/ ١٧٧).

إن الكريم إذا تمكن من أذى ... جاءته أخلاق الكرام فأقلعا

وترى اللئيم إذا تمكن مـــن أذى ... يطغى فلا يبقي لصلح موضعا[1]

وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ومن أهم قضايا الأخلاق؛ بيانه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، مع أن بعثته بالتوحيد، والعبادات، والمعاملات، وغير ذلك مما يجعل الأخلاق هي البعثة. وبيان ذلك في قضية منطقية قطعية حملية، مقدمتها حديث صحيح، وهو: «البرّ حسن الخلق»[3]، والكبرى آية كريمة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الدين كله بأقسامه الثلاثة: الإسلام من صلاة وزكاة.. إلخ، والإيمان بالله وملائكته..إلخ، ومن إحسان في وفاء وصدق وصبر، وتقوى الله تعالى، إذ هي مراقبة الله سراً وعلناً. وقد ظهرت نتيجة عظم هذه الأخلاق في الرحمة العامة الشاملة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]. وكذلك للأمة يوم

(١) لم أهتد لقائله.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٣٢٣).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠).

القيامة، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا»[1][2].

ثالثاً: الإجماع:

لمّا أنّ المراقبة قيمة من قيم الإسلام التي جاء بها الوحي، فقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ العلماء أجمعوا على أنه لم ينزل الله واعظاً من السماء إلى الأرض، ولا زاجراً أكبر من واعظ المراقبة المعبر عنه بالإحسان[3].

وذكر الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تتمة أضواء البيان أن علماء الاجتماع متفقون على أن أسس الأخلاق أربعة، هي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة. ويقابلها رذائل أربعة، هي: الجهل، والشره، والجبن، والجور. ويتفرع عن كل فضيلة فروعها: الحكمة: الذكاء وسهولة الفهم، وسعة العلم. وعن العفة: القناعة، والورع، والحياء، والسخاء، والصبر، والحرية. وعن الشجاعة: النجدة، وعظم الهمة. فمكارم الأخلاق رحمة للعالمين في الدنيا، ومنزلة عليا للمؤمنين في الآخرة. أما العدالة – وهي أم الفضائل الأخلاقية – فيتفرع عنها: الصداقة، والألفة، وصلة الرحم، وترك الحقد، ومكافأة الشر بالخير، واستعمال اللطف. فهذه أصول الأخلاق وفروعها، فلم تبق خصلة منها إلا وهي مكتملة فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد برأه الله من كل رذيلة، فتحقق أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خلق عظيم، فعلاً وعقلاً، فمكارم الأخلاق رحمة للعالمين في الدنيا، ومنزلة عليا للمؤمنين في الآخرة[4].

(١) سنن الترمذي (٣/ ٤٣٨).
(٢) أضواء البيان، تتمة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨/ ٢٥٠).
(٣) العذب النمير (٤/ ٢٦٦).
(٤) تتمة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأضواء البيان (٨/ ٢٤٨ – ٢٥١)، بتصرف.

رابعاً: العُـــــــرف:

العرف معتبر شرعاً، وهذه القاعدة قررها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أكثر من موضع، وذكر لذلك أمثلة، ومنها ما يتعلق بالقيم والأخلاق، فذكر أن حلق المرأة شعر رأسها نقص في جمالها، وتشويه لها، فهو مثلة وبه تعلم أن العرف الذي صار جارياً في كثير من البلاد، بقطع المرأة شعر رأسها إلى قرب أصوله سنة أفرنجية مخالفة لما كان عليه نساء المسلمين ونساء العرب قبل الإسلام، فهو من جملة الانحرافات التي عمت البلوى بها في الدين والخلق، والسمت وغير ذلك(١).

والعرب تطلق لفظة العرف والمعروف والعارفة على كل خصلة جميلة تستحسنها العقول وتطمئن إليها النفوس، وهذا معنى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. أي: بكل جميل حسن تطمئن إليه النفوس وتستحسنه العقول؛ كالإعراض عن الجاهل، والعفو عن المسيء(٢).

وتشريع الحكيم الخبير جَلَّ وَعَلَا مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات(٣).

والمصالح التي عليها مدار الشرائع ثلاثة، ومنها: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروف عند أهل الأصول بالتحسينيات، والتتميمات(٤). ومن فروعه خصال الفطْرةِ كإعفاء اللحية وقص الشارب إلخ. ومن فروعه أيضًا: تحريم المستقذرات ووجوب

---

(١) أضواء البيان (٥/١٩٠).

(٢) العذب النمير (٤/ ٤٣٩).

(٣) أضواء البيان (٣/٣٧).

(٤) أضواء البيان (٣/٤٧). وقد سبقت الإشارة إلى أن من فروع ذلك؛ خصال الفطْرةِ كإعفاء اللحية وقص الشارب، و تحريم المستقذرات ووجوب الإنفاق على الأقارب الفقراء.

الإنفاق على الأقارب الفقراء. وكل هذه المصالح لا يمكن شيءٌ أشد محافظة عليها بالطرق الحكيمة السليمة من دين الإسلام[١]. ومن هنا فالقيم والأخلاق منبعها الأولى، ومصدرها الأساس هو الوحي المنزل من عن الله جَلَّ وَعَلَا وبالتالي فهي على صلة وثيقة بالدين، ولا يمكن بحال أن تكون منفصلة عنه.

خامساً: العـــــــقل:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العقل ينهى صاحبه عما لا يليق[٢]، ومن رزقه الله العقل فاز[٣] بالمطلوب الأكبر الذي يطلبه كل إنسان؛ لأن العقل يعقل صاحبه عن كل ما لا ينبغي، ويحجزه عن كل ما يشين[٤]، ويميز به الحسن والقبيح، والنافع والضار، والحق والباطل[٥]. ولا يمنع العقل أن يكون الإنسان محافظًا على دينه في جميع السمت، وجميع الحركات والسكنات[٦]. ومطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر[٧].

وكون العقل من مصادر القيم والأخلاق، فقد أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنّ العقلاء لا يرون بأساً في الأخذ بما جاءت به الحضارة المادية الغربية من الأمور النافعة التي لا تخالف الشرع والفطرة أمر مطلوب، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا مثال لما جاءت به الحضارة الغربية، فإن ما أحدثوه من القوة المادية وأنواع التنظيمات في جميع ميادين الحياة هو ماء زلال فيحتاج له جدا لا بد منه في تطور هذه الحياة الراهنة حسب ما تطورت إليه من الأوضاع، وفيها سم

(١) الإسلام دين كامل (١/ ٢٦).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٤).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٤٠).
(٤) العذب النمير (٣/ ٨٣).
(٥) العذب النمير (٣/ ٤٨٩).
(٦) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٥٥).
(٧) أضواء البيان (٢/ ٢٢٣، ٦/٣٧٣)، العذب النمير (٤/ ٢٩٣، ٥/ ٣٣١).

قاتل فتاك لا شك فيه، وهو ما جنته من الكفر والانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعاداة خالق السماوات والأرض. فالموقف الطبيعي للمسلمين في الأوضاع الراهنة أن يتأملوا فإذا أخذوها كلها بنافعها وضارها أهلكهم ضارها ولم ينتفعوا بالأنفع، وإذا تركوها كلها –تركوا النافع منها والضار– بقوا ولم يلحقوا، وبقوا مستضعفين، وإذا أخذوا ضارها دون نافعها فهم قوم مجانين، هم حمقى لا عقول لهم، وإن أخذوا النافع وتركوا الضار فهذا هو الأمر الطبيعي لكل عاقل(١).

ولأنّ العقل اللبيب مصدر للأخلاق والقيم النبيلة، فقد أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الكفار قد خيلوا لضعاف العقول من المسلمين أن التقدم والتمسك بالدين متباينان تباين مقابلة، بحيث يستحيل اجتماعهما، فكان من نتائج ذلك انحلالهم من الدين رغبة في التقدم، فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. والتحقيق أن النسبة بين التقدم والتمسك بالدين بالنظر إلى العقل وحده، وقطع النظر عن نصوص الكتاب والسنة إنما هي تباين المخالفة، وضابط المتباينين تباين المخالفة أن تكون حقيقة كل منهما في حد ذاتها تباين حقيقة الآخر، ولكنهما يمكن اجتماعهما عقلا في ذات أخرى؛ كالبياض والبرودة، والكلام والقعود، والسواد والحلاوة. فحقيقة البياض في حد ذاتها تباين حقيقة البرودة، ولكن البياض والبرودة يمكن اجتماعها في ذات واحدة كالثلج، وكذلك الكلام والقعود فإن حقيقة الكلام تباين حقيقة القعود، مع إمكان أن يكون الشخص الواحد قاعداً متكلماً في وقت واحد. وهكذا فالنسبة بين التمسك بالدين والتقدم بالنظر إلى حكم العقل من هذا القبيل، فكما أن الجرم الأبيض يجوز عقلاً أن يكون بارداً كالثلج، والإنسان القاعد يجوز عقلاً أن يكون متكلماً، فكذلك المتمسك بالدين يجوز عقلاً أن يكون متقدماً، إذ لا مانع في حكم العقل من كون المحافظ على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، مشتغلاً في جميع الميادين التقدمية كما

(١) العذب النمير (٥/ ١٥٥).

لا يخفى، وكما عرفه التاريخ للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ومن تبعهم بإحسان[١].

وقد أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن تشبه الذكور بالإناث مستقبح شرعاً، وأنّ ذلك مما لا ينكره العقلاء. وذكر أن الإفرنج الذين يقولون: إن المرأة كالرجل في جميع الميادين يجعلون صبغ الحمرة على فم الأنثى ولا يجعلونه على فم الرجل، وما هذا الفرق إلا لفوارق طبيعة جبل عليها عامة العقلاء حتى الإفرنج[٢].

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٩).
(٢) العذب النمير (٤/ ٣٩٧).

المطلب السادس

صلة القيم والأخلاق بالدين

تتصل القيم والأخلاق بالدين اتصالاً وثيقاً، فالدين هو أكبر دافع إلى التزام المسلم بالقيم النبيلة، والتحلي بالأخلاق الحسنة الحميدة، ونبذ الأخلاق السيئة. وأوضح مثال على ذلك ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع الاستعانة بالصلاة، وأن الله جَلَّ وَعَلَا أشار لها في آيات من كتابه، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها النهي عما لا يليق، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأنها تجلب الرزق وذلك في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، ولذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمرٌ بادر إلى الصلاة. **وإيضاح ذلك**: أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه، ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه، فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه(١).

ويطرح رَحِمَهُ ٱللَّهُ سؤالاً وهو: "**ما وجه الاستعانة بالصلاة على أمور الدنيا والآخرة**"؟. ثم يجيب فيقول: " الصلاة هي أكبر معين على ذلك لأن العبد إذا وقف بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه تذكّرَ ما عند الله من الثواب، وما لديه من العقاب، فهان في عينه كل شيء، وهانت عليه مصائب الدنيا، واستحقر لذاتها رغبة فيما عند الله، ورهبة مما عند الله"(٢).

---

(١) أضواء البيان (١/ ٣٥).

(٢) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٤٢).

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن العدول عن هدي القرآن من أعظم أسباب ضياع الأخلاق، والانحطاط إلى درجة البهائم، والمحافظة على الشرف والمروءة. كذلك ما أوضحه في موضوع التدريج في تشريع الأحكام الشاقة، ومثّل على ذلك بشرب الخمر فإن تركه شاق على من اعتاده، فلما أراد الله أن يحرم الخمر حرمها تدريجاً، فذكر أولا بعض معائبها كقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ثم لما استأنست نفوسهم بأن في الخمر إثمها أكبر مما فيها من النفع، حرّمها عليهم في أوقات الصلاة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ الآية [النساء: ٤٣]، فكانوا بعد نزولها، لا يشربونها إلا في وقت يزول فيه السكر قبل وقت الصلاة، وذلك بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح؛ لأن ما بين العشاء والصبح يصحو فيه السكران عادةً، وكذلك ما بين الصبح والظهر، وهذا تدريج من عيبها إلى تحريمها في بعض الأوقات، فلما استأنست نفوسهم بتحريمها حرمها عليهم تحريماً عاماً جازماً بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة: ٩١]. إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩١][1]. وكذلك الصوم، فإنه لما كان الإمساك عن شهوة الفرج

(١) وهذا ما جعل المؤرخ البريطاني (توينبي)، يبدي إعجابه بقدرة الإسلام الفذة على الفعل والتغيير من خلال تخليص أمة بأسرها من ظاهرة تعاطي الخمر، وهو ما لم يستطع قانون أو دين أو نظام أن يفعله كما فعله الإسلام). انظر: مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، د. عماد الدين خليل (ص: ١٥). وقد حاولت الولايات المتحد الأمريكية وضع قانون يحدّ من شربها، لما سببته من جرائم كثيرة في المجتمع الأمريكي، ولكنها فشلت في ذلك. **ينظر**: التعديل الثامن عشر، للدستور الأمريكي. حيث نص على حظر إنتاج أو بيع أو نقل المشروبات الكحولية المسكرة داخل الولايات المتحدة وجميع المناطق الخاضعة لسلطانها، أو تصديرها منها، أو استيرادها إليها لغرض تعاطيها للشرب.

والبطن شاقاً على النفوس، وأراد تعالى تشريعه شرعه تدريجاً، فخيّر أولاً بين صوم اليوم وإطعام المسكين، فلما استأنست النفوس به في الجملة، أوجبه أيضاً إيجاباً عاماً جازماً بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥][(١)].

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ أن الفاحشة في اصطلاح الشرع: الخصلة المتناهية في القبح، فكل خصلة تناهت وبلغت غايتها في القبح تسميها العرب فاحشة، فنهى الله خلقه عن أن يقربوا من كل خصلة سوء قبيحة يحرمها الشرع ويحذر الله منها، ثم عمم هذا تعميما عظيما فقال:﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾. فالآية الكريمة عامة، والخطاب بها عام، فيجب على كل مكلف أن يتباعد من كل معصية خسيسة، سواء كان ذلك ظاهراً بمرأى الناس، كالذي يزني والناس ينظرون، أو يقتل والناس ينظرون، أو يرتكب محرماً ظاهراً علناً يراه الناس، وكالذي يفعل الفواحش سراً من غير اطلاع الناس، سواء الذي يزني من غير أن يراه الناس، والذي يسرق خفية من غير أن يراه الناس، وهذا لا يفعله إلا من هو في غاية الجهل؛ لأنه إذا خاف أن يطلع الناس عليه، وترقب للفاحشة أن تكون باطنة لا يراها الناس، أليس هو يعلم أن خالقه يراه، وأن الحفظة الملائكة الكرام حاضرون معه، يسجلون عليه ما فعل؟. فعلى المسلم إذا خلا بالأمر، وسول له الشيطان أن يفعل تلك الفاحشة؛ لأن الناس لا يرونه، وأنه لا يطلع عليه أحد، كالذي يخلو بامرأة في محل مقفول، يأمن عيون الناس فيه، فيخول له الشيطان الريبة معها، عليه أن ينظر أن الله رقيب عليه، وأن الملائكة الكرام معه ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧﴾ [الأعراف: ٧]، وعلى الشخص أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ﴿وَإِنَّ

(١) أضواء البيان (٥/ ٢٦٤). وانظر: منهج التشريع الإسلامي وحكمته (ص: ٦٤).

عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

فالذي يستحيي من البشر الضعاف الذين لا يقدرون أن يضروه، ولا يستحيي من خالق السماوات والأرض، فهو مجنون جاهل[١].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، جاءت ناهية عن التعدي في جميع هذه الجواهر الست؛ لأن قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾، هذا تعد على الأنساب؛ لأن الزنا سواء كان ظاهراً أو باطناً تعد على أنساب الناس وتقذير لفرش الناس؛ لأنه إذا كثر الزنا لم يدر هذا من أبوه، ولم تدر أم هذا من أبوه، فضاعت الصبيان، ولم يعرف لهذا أب، فاختلطت الأنساب، وتقذرت الفرش، وضاعت أخلاق المجتمع. وأن النهي عن الفاحشة هو ذب عن الأنساب. وهذا معنى قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾[٢].

وقد أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن القرآن جاء بجلب المصالح بأقوم الطرق وأعدلها، ففتح الأبواب لجلب المصالح في جميع الميادين.. ومنها: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروف عند أهل الأصول بالتحسينيات[٣]، والتتميمات. وساق الآيات الدالة على ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات[٤].

---

(١) العذب النمير (٢/ ٤٨٢).

(٢) العذب النمير (٣/ ١٧٧).

(٣) **التحسينيات**: معناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات. الموافقات للشاطبي (٢/٢٢).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٤٩).

المطلب السابع

الحضارة الغربية، ومفهوم القيم والأخلاق

في بيانه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لخطر الحضارة الغربية -الضارّ منها- على قيم المسلمين وأخلاقهم، يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ".. فالحضارة الغربية فيها ماء عذب زلال، وفيها سمّ فاتك قتّال". ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ ما أنتجته من القوة المادية، والقوة التنظيمية في جميع ميادين الحياة غير مرفوض. أمّا ما فيها من التمرد على نظام السماء، والطغيان والعصيان لخالق هذا الكون جَلَّ وَعَلَا، والإفلاس الكلي في الآداب الروحية السماوية، فهو مرفوض[1].

سبب إفلاس الحضارة الغربية:

يوضّح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب إفلاس الحضارة الغربية من جهة الناحية الروحية، وهو أنهم أهملوا الأرواح ولم يُرَبُّوهَا على نظام تعليم سماوي شرعه خالق الكون، فصاروا في غاية من انحطاط الأخلاق، والتمرد على نظام السماء، ولأجل أن تلك الأرواح غير مرباة ولا مهذبة على ضوء الوحي. فتراهم الآن يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر والمجلس بعد المجلس ليتخلصوا من القوة التي فعلوا ويدمروها، ولو كان واحد منهم واثقًا بأنه لو دمّر ما عنده لدمر الآخر ما عنده لبادروا كلًّا ليكتفوا شرها، وما ذلك إلَّا أنَّها تدبرها أرواح خبيثة ليست مرباة على ضوء وحي سماوي، وهذا يبين أن إهمال الناحية الروحية يهدد العالم كله بخطر دامي، فأنياب الأسد -مثلًا- وأظفاره قوة حيوانية هائلة، ولكن النَّفس التي تديرها نفس بهيمية طبيعتها الافتراس والابتزاز والغصب والقتل فلا خير فيها للبشرية[2].

(١) العذب النمير (٢/ ١٨٧، ٥٤٧).
(٢) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٤٦).

نماذج من الحضارة الغربية:

ومن النماذج التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتنبيه على الضار من الحضارة الغربية؛ الموضة الجديدة والأزياء المزرية، فإنها وإن سمّوها حضارة وتقدماً ورُقِيّاً وحُرّية، فهي في الحقيقة إهدار للفضيلة وإماتة للشرف والصيانة والعفاف والكرامة. وحذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسلمين أن يغتروا بتلك الشعارات الزائفة التي تحمل في طياتها كل سوء مضاد للإنسانية بمعناها الصحيح، ومضاد لمكارم الأخلاق والشرف والفضيلة، ومضاد أيضا للتعاليم السماوية المتضمنة الآداب الكريمة ومكارم الأخلاق والسير على أحسن المناهج والعادات. وذكر أن العرب كانوا يغارون على نسائهم ولا يرضون بابتذالهن، وكانوا يرون أن عفاف النساء وصيانتهن وعدم تدنسهن بالريبة من أكبر الأسباب في نجابة الأولاد ونبلهم وعلو شأنهم وشجاعتهم، ومن ذلك قول جرير، يمدح بني قيس عيلان بن مضر:

فلا تأمنن الحي قيسا فإنهم ... بنو محصنات لم تدنس جحورها[1][2]

موقف المسلمين من الحضارة الغربية:

وفي بيان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ موقف المسلمين الطبيعي من الحضارة الغربية[3]، وعلاقتها بالقيم والأخلاق، وما يجب أن يميز فيه المسلم النافع من الضار، والحسن من القبيح، والحق من الباطل؛ يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الاستقراء التام القطعي دل على أن الحضارة الغربية تشتمل على نافع وضار، أما النافع منها فهو من الناحية المادية، وتقدمها في جميع

(١) ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب (٢/ ٨٧٩).

(٢) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٧٠).

(٣) ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حقيقة موقف المسلمين اليوم من الحضارة الغربية في عدة مناسبات من مؤلفاته ودروسه ومحاضراته. ينظر: العذب النمير (٢/ ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ٥٤٧) و (٥/ ١٥٤، ١٥٥، ٤٣٤، ٥٣٥)، و رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٤٦، ٥٤، ٦٠، ٦٣، ٧٥، ٨٢)، و فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٦٩).

الميادين المادية واضح، وما تضمنته من المنافع للإنسان أعظم مما كان يدخل تحت التصور، فقد خدمت الإنسان خدمات هائلة من حيث إنه جسد حيواني، وأما الضار منها فهو إهمالها بالكلية للناحية التي هي رأس كل خير، ولا خير البتة في الدنيا بدونها، وهي التربية الروحية للإنسان وتهذيب أخلاقه، وذلك لا يكون إلا بنور الوحي السماوي الذي يوضح للإنسان طريق السعادة، ويرسم له الخطط الحكيمة في كل ميادين الحياة الدنيا والآخرة، ويجعله على صلة بربه في كل أوقاته[1].

ثم يلفت نظر المسلمين إلى وجوب الانتباه، فياخذوا من الحضارة الغربية ما استطاعوا من قوتها المادية، ويتجنبوا كل التجنب، ويتباعدوا كل البعد عن سمها الفتاك القتال مما جنته من التمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون، والانحطاط الخلقي، وضياع الأخلاق والقيم الروحية الإنسانية. والذي يؤسف كل الأسف أن أغلب – إلا من شاء الله – من يحركون الدفات ربما أخذوا منها ضارها من الانحطاط الخلقي والزهد في الإسلام، وقطع الصلة بالله، وعدم صلة السماء بالأرض، في الوقت الذي هم فيه مفلسون كل الإفلاس من مائها الزلال، ومنافعها الدنيوية، فعكسوا القضية والعياذ بالله. فعلى المسلم أن يفرق بين ما يضر وما ينفع، ويفرق بين ضار الحضارة الغربية ونافعها، ويستفيد من نافعها من القوة المادية والتنظيمية، ويحذر كل الحذر من ضارها من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعصية خالق هذا الكون؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا إذا فقد صلته بخالق السماء الذي فتح عينيه، وجعل له فيها النور، وأبدعه من غرائب صنعه وعجائبه ما يبهر العقول، من خسر صلته بالله خسر كل شيء، ولم يبق له في الدنيا شيء، فعلى المسلمين أن يحافظوا على تراثهم الروحي، وآدابهم السماوية من طاعة خالق هذا الكون، في الوقت الذي هم فيه ينتفعون بالمادة والقوة. ونحن نبين

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٠٥).

لإخواننا مرارا أن دين الإسلام يأمر بالمحافظة على التعاليم السماوية والآداب الروحية، ويأمر بالتقدم الدنيوي في جميع الميادين، حتى ولو كان ذلك التقدم الدنيوي العقول الذي أنتجته عقول كفرة فجرة، وكذلك كان سيد البشر، مربي هذا الخلق، ومبين الطريق له نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان كذلك يفعل[1].

فالحضارة الغربية غنية بأنواع المنافع من الناحية الأولى، مفلسة إفلاساً كلياً من الناحية الثانية. ومعلوم أن طغيان المادة على الروح يهدد العالم أجمع بخطر داهم، وهلاك مستأصل، كما هو مشاهد الآن، وحل مشكلته لا يمكن ألبتة إلا بالاستضاءة بنور الوحي السماوي الذي هو تشريع خالق السماوات والأرض ؛ لأن من أطغته المادة حتى تمرد على خالقه ورازقه لا يفلح أبدا. والتقسيم الصحيح يحصر أوصاف المحل الذي هو الموقف من الحضارة الغربية في أربعة أقسام لا خامس لها، حصراً عقليا لا شك فيه[2]:

الأول: ترك الحضارة المذكورة نافعها وضارها.

الثاني: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثالث: أخذ ضارها وترك نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

---

(١) العذب النمير (٢/ ١٨٧، ٥٤٧و ٣/٤٣٩ و ٤/ ٥٧٧)

(٢) قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " اعلم أن الحضارة الغربية قد دل الاستقراء التام القطعي الصحيح على أن منها ما هو نافع غاية النفع لا غنى عنه للبشر في ميادين الحياة في حالاتها الراهنة وتطوراتها المتتابعة، وذلك ما خدمت به الإنسان من حيث إنه جسد، فقد خدمت الإنسان من ناحية عنصره الجسدي خدمات هائلة ما كانت تدخل في تصور البشر، وتقدمها المادي –في جميع النواحي والميادين– والتنظيمي أظهر من أن يحتاج إلى التنويه عنه، ومنها ما هو ضار غاية الضرر وهو عام بجميع اتجاهاتها الروحية، وهي غنية من جهة الناحية المادية مفلسة من الناحية الروحية، وطغيان المادة على الروح يهدد البشر بخطر داهم". **انظر: رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا** (ص: ٨٢).

فنرجع بالسبر الصحيح إلى هذه الأقسام الأربعة، فنجد ثلاثة منها باطلة بلا شك، وواحداً صحيحا بلا شك.

أما الثلاثة الباطلة: فالأول منها تركها كلها، ووجه بطلانه واضح؛ لأن عدم الاشتغال بالتقدم المادي يؤدي إلى الضعف الدائم، والتواكل والتكاسل، ويخالف الأمر السماوي في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]

القسم الثاني من الأقسام الباطلة أخذها: لأن ما فيها من الانحطاط الخلقي وضياع الروحية والمثل العليا للإنسانية أوضح من أن أبينه، ويكفي في ذلك ما فيها من التمرد على نظام السماء، وعدم طاعة خالق هذا الكون جَلَّ وَعَلَا.

والقسم الثالث من الأقسام الباطلة: هو أخذ الضار وترك النافع، ولا شك أن هذا لا يفعله من له أقل تمييز، فتعينت صحة القسم الرابع بالتقسيم والسبر الصحيح، وهو أخذ النافع وترك الضار.

وهكذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل، فقد انتفع بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، مع أن ذلك خطة عسكرية كانت للفرس، أخبره بها سلمان فأخذ بها، ولم يمنعه من ذلك أن أصلها للكفار، وقد هم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يمنع وطء النساء المراضع خوفا على أولادهن؛ لأن العرب كانوا يظنون أن الغيلة – وهي وطء المرضع – تضعف ولدها وتضره، فأخبرته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فارس والروم بأنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم، فأخذ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم تلك الخطة الطبية، ولم يمنعه من ذلك أن أصلها من الكفار. وقد انتفع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدلالة ابن الأريقط الدؤلي له في سفر الهجرة على الطريق، مع أنه كافر.

فاتضح من هذا الدليل أن الموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من الحضارة الغربية هو أن يجتهدوا في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية، ويحذروا مما جنته من التمرد على

خالق الكون جَلَّ وَعَلَا فتصلح لهم الدنيا والآخرة، والمؤسف أن أغلبهم يعكسون القضية، فيأخذون منها الانحطاط الخلقي، والانسلاخ من الدين، والتباعد من طاعة خالق الكون، ولا يحصلون على نتيجة مما فيها من النفع المادي، فخسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل. والدين لا ينافي التقدم المادي، وقد عرف في تاريخ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أنهم كانوا يسعون في التقدم في جميع الميادين مع المحافظة على طاعة خالق السموات والأرض جَلَّ وَعَلَا[1][2].

ومن المؤسف أن أكثر المثقفين في الأقطار الإسلامية في جميع أنحاء الدنيا يعكسون القضية، فيأخذون من حضارة الغرب كل ما فيها من إفلاس روحي، وانحطاط خلقي، وإلحاد كفري، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الكون، في الوقت الذي لم يحصلوا فيه على شيء من إنتاجاتها المادية والتنظيمية، فخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين. فدين الإسلام دين التقدم في جميع ميادين الحياة، ودين تهذيب، الروح التقدمية وتصفيتها من الأمراض المخلة بمعنى إنسانيتها على ضوء تعليم خالق الكون جَلَّ وَعَلَا، ومن أراد بعض الأمثلة الرائعة على جمع الإسلام بين التقدم في الميادين والمحافظة على الآداب الروحية السماوية فليقرأ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾[النساء: ١٠٢].فإنك تراه ينظم

(١) أضواء البيان، الشنقيطي (٥/ ٥٠٥)، و رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٨٣).

(٢) يفخر (مراد هوفمان) باعتناقه الإسلام، ويذكر أنه دين يدعو للفضيلة والأخلاق الحميدة، ومن واقع معرفته السابقة بمجتمعات الغرب، أن الغربي يرى التحلي بالفضيلة والالتزام الخلقي، يراه خطراً يقربه مما كان سائداً في العصر الفيكتوري من التزمت الخلقي المصطنع. ثم يوجه سؤاله للمواطن العربي فيقول: "لتقل إذن أن الإسلام في تمسكه بالفضيلة عتيق، ولنا أن نحتزّ بذلك فنؤكد أن الإسلام فخور بهذا". انظر: الإسلام كبديل. د. هوفمان (ص: ٢١٥).

الخطة العسكرية أحسن تنظيم وأدقه في الوقت الذي يحافظ فيه على ذلك الأدب الروحي السماوي في وقت التحام الكفاح المسلح والرؤوس تنزل عن الأعناق، ألا وهو الصلاة جماعة، في ذلك الوقت الضنك. واقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فتراه يأمر بذكر الله وتقوية الصلة به جَلَّوَعَلَا عند التقاء الصفين في ميدان القتال، ومن ذلك ما يعتقده الكثيرون من أن الإيمان ليس بسلاح يُقاوم كل سلاح مهما بلغ من التطور[١].

خطر الفلسفات الوضعية على القيم والأخلاق:

يحذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خطر الفلسفات الوضعية على القيم والأخلاق، وما يزينه إبليس من أنه لابد أن تكون النساء كالرجال في جميع الميادين[٢]، وذكر أن الحق فيه مع القرآن

---

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٨٥).

(٢) يقول (ساموبل سمايلس)، وهو **أحد أراكين النهضة المدنية الإنجليزية**:"إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في (الفابريكا) – **المعامل ودور الصناعات**– فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية، فقوض أركان العائلة وفرق الروابط الاجتماعية...لأن وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية كتربيتها أولادها". ويرجع بعض المفكرين الغربيين السبب الحقيقي في جميع مفاسد أوربا وفي انحلالها بهذه السرعة إلى إهمال النساء للشؤون العائلية المنزلية، ومزاولتهن الوظائف والأعمال اللائقة بالرجال في المصانع والمعامل والمكاتب جنبًا إلى جنب. ويقولون: "إن النساء اللاتي يشتغلن خارج بيوتهنّ، يقوّضن دعائم عائلاتهن. بل إن القانون المدني الفرنسي في الفصل (٢٧١)، يقرر: [أن المرأة المتزوجة لا يجوز لها أن تهب، ولا تنقل ملكيتها، ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض أو بغيره بدون اشتراك زوجها في العقد، وموافقته عليه موافقة كتابية].وعلى الرغم مما أُدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد، فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازماً لوضع المرأة الفرنسية المتزوجة من الناحية القانونية في الوقت الحاضر، في حين ذكر لنا التاريخ الإسلامي نماذج كثيرة لنساء مارسن مهنة التجارة والبيع والشراء، ولم يمنعهن الإسلام من ذلك أبداً، ولم يلزمهن بمقاسمة أموالهنّ مع أزواجهن جبراً دون رضاً منهنّ. انظر: **دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي (٦٣٩/٨)، و موسوعة محاسن الإسلام، أحمد أيوب وآخرون** (١١/ ١٠٦)، و سماحة الإسلام، أ.د. عمر قريشي (ص: ٣٧١).

كما لا يخفى، وأن هذه الفلسفات إنما أضاعت أخلاق الناس، وابتذلت النساء وضيعتهن من حيث لا يشعرن... فيأتي لأوليائه ويهمس في آذانهم وأذن المرأة ويقول: الرجل يخرج ويختلط بالدنيا وتبقين أنت محبوسة...أنت إنسان ينبغي أن تخرجي كما يخرج الرجل، وتزاولي ما يزاوله الرجل، فإذا خرجا معاً اضطرا لأن يؤجرا إنساناً يجلس في البيت ليحافظ على الأولاد وشؤون البيت الداخلية، فيصير ذلك الأجير المسكين هو الضحية، وهو الدجاجة المحبوسة في البيت لتتمكن المرأة من الخروج، ويكون جمالها وقفا على الخونة؛ لأنها إذا خرجت كانت كل عين فاجرة تنظر إليها وتتمتع بجمالها كما شاءت باسم فلسفة شيطانية فاضية جوفاء باسم التقدم، باسم الحضارة، باسم التمدن، وكل ذلك ضلال وإضلال، وضياع للأخلاق والمروءة والشرف تحت شعارات براقة زائفة كاذبة، يضيع الشيطان تحتها كل فضيلة وكل شرف وكل مروءة، وهذا مشاهد في الأقطار التي أطلقت لنسائها الحرية، وصرن يخرجن عاريات، يزاولن ما يزاوله الرجال من الأعمال، فتراهن ذهب من جميعهن الحياء والشرف النسوي، وصارت أولاد الزنى تؤخذ من الشوارع تعد بالآلاف والملايين. ومن نظر في إحصائيات أولاد الزنى في العالم المتمدن يعلم أن نتيجة فلسفات الشيطان هي الزنى والانحطاط الخلقي، وضياع الشرف وذهاب المروءة والكرم. ومع هذا يسمونه التقدم والحضارة والتمدن، والذوق السليم. والتشريع السماوي الذي طعنوا فيه ونبذوه وراء ظهورهم وتقوّلوا عليه كما تقوّل الكفار أنه لا يساير ركب الحضارة، وليس بصالح لكل زمان؛ هو الذي يأمرهم بالعفاف والكرم والمحافظة على الأخلاق والشرف مع العمل الحثيث في الدنيا[1].

(١) العذب النمير (٣/ ٣٢٩).

المطلب الثامن

القيم والأخلاق في الإسلام، والمذاهب المعاصرة[1]

يقرر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإسلام هو رابطتنا الحقة التي تجعلنا كالجسد الواحد، ولا ينافي ذلك أن لكل منا بعض الروابط الخاصة في حدود الدين الحنيف، فإذابة معنى الأسرة إذابة كلية أقرب إلى **الشيوعية** منه إلى الإسلام، أما رابطة الإسلام فهي التي يُنادى بها، ولا يجوز أن يُنادى بغيرها محاولة للقضاء على الروابط السماوية التي هي الرابطة حقًّا، وكل تضامن يخالفها فهو باطل، والله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[الحجرات: ١٣] أي: لئلا يتعصب كل شخص[2].

وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن بيّن لنا أن جميع الروابط تتلاشى أمام هذه الرابطة السماوية ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] إذ لا رابطة نسبية أعظم من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وقد رأيت تلاشيها أمام رابطة الإيمان، فالدين

---

(١) ذكر الشيخ الأستاذ الدكتور/ عبدالله بن محمد الأمين الشنقيطي، أن والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان قارئاً لكتب المذاهب المعاصرة، ليرد عليها، وسجّل شريطاً يردّ فيه على لينين وماركس والملحدين والعلمانيين. شاهد اللقاء على اليوتيوب تحت عنوان: سيرة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –سلسلة من أعلام الإسلام– الشيخ عبدالله بن محمد الشنقيطي.

(٢) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٤٩). وقد أجرت منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (OECD) دراسة عن النظام الإسلامي وكيف يتميز عن الرأسمالية والشيوعية، وجاء في التقرير: (إن التعاليم الإسلامية تختلف عن الرأسمالية لمعارضتها تراكم الثروات الفاحش، وتختلف عن الإشتراكية؛ لأنها تحافظ على حقوق التملك لوسائل الإنتاج، ففي مجتمع حقيقي يتبع تعاليم الإسلام يجب ألا تتعارض مصالح طبقات المجتمع، بل يجب أن تتعايش بالتواصل والتراحم عبر المشاركة المسؤولية الواعية، كما يجب مراعاة حقوق الفرد بطريقة عادلة تتوازن مع مصلحة المجتمع بأكمله). **انظر**: أزمة نظام، د. عبد الحي زلوم (ص: ٢٥١).

الإسلامي مع ذلك لا ينكر أصل الروابط، ولا يريد إذابة الأسرة النسبية وأواصر القرابات، فقد خصص بالميراث القرباء مراعاة لتلك الرابطة، وأوجب صلات الأرحام وشدد في قطعها مراعاة لتلك الرابطة، ولا ننكر أن الله جَلَّوَعَلَا قد نفع بعض رسله الكرام بعصبيات نسبية لا تَمُتُّ إلى الدين بصلة، وجعل لذلك آثارًا حسنة على الإسلام وأهله، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦] يعني آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب وذلك بعصبة نسبية لا تمت إلى الدين بصلة، وقد بين الله لنبيه أن ذلك منَّة منه عليه، ومن آثار تلك القرابة النسبية قول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فقد عرف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذه القرابة النسبية لبني المطلب بن عبد مناف، فإنهم ناصروا الهاشميين مناصرة عصبية لا دينية كما هو معلوم؛ ولذلك لما قسم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خمس غنيمة خيبر جعل نصيب ذي القربى من الخمس لبني هاشم وبني المطلب، ومنع منه إخوتهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل.. وقد نفع الله بالرابطة النسبية نبيه شعيبًا ونبيه صالحًا. ولما كان لوط ليس له في قومه عصبة ظهر فيه أثر ذلك حتى قال ذلك الكلام المحزن: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ [هود: ٨٠].

والخلاصة: أن رابطة الإسلام هي أعظم جميع الروابط؛ لأنّ الروابط ما عداها إنَّما هي حول أمور دنيويّة، كرابطة النسب، ورابطة الصداقات، وروابط التجارات، وغير ذلك من الروابط الأرضية، أمَّا رابطة الإسلام وحدها فهي في الله الذي خلق السموات والأرض، وما كان في خالق السموات والأرض فلا شكّ أنه أعظمُ مما سواه. ورابطة الإسلام – لشدّة قوتها– ربطت بين السماء والأرض، وربطت بين الخالق والمخلوق، ومن أجلها كان الله ولي المؤمنين، وولاية الله للمؤمنين إنّما هي بقوّة رابطة دين الإسلام وهذه الرابطة

جعلت المؤمنين المتقين أيضًا أولياء الله، فكون المؤمنين المتقين أولياء الله، وكون الله وليّ المؤمنين، كلّ هذا من رابطة دين الإسلام؛ ولأجل هذه الرابطة كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليّ المؤمنين، وهذه الولاية بين المسلمين وسيّد الخلق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي بيّناها الآن في القرآن إنما هي بقوة رابطة الإسلام، وهذه الرابطة جعلت المؤمنين في أقطار الدنيا بعضهم أولياء بعض، ولقوة هذه الرابطة ربطت بين بني آدم في الأرض وبين الملائكة الكرام من فوق سبع سموات، كما نصّ الله على ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، فوصف حملة العرش فوق سبع سماوات بأنهم يؤمنون بالله، ثم بين من نتائج ذلك ما نصّ عليه في قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا﴾ [غافر: ٧]، فوصف بني آدم بالإيمان أيضًا، فعلم من الآية أن الرابطة بين الملائكة وبين الآدميين هي الإيمان، كان من نتائج هذه الرابطة أن دعوا -الملائكة- للآدميّين هذا الدعاء العظيم الذي ذكره الله في القرآن العظيم في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ إلى آخر الآيات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[فصلت: ٣٠، ٣١] فقول الملائكة للآدميين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ تلك الولاية فيه برابطة دين الإسلام. فإذا تبين من هذه الآيات القرآنية أن رابطة الإسلام لشدّة قوتها ربطت بين الخلق والخالق، وبين الأمّة والرسول العظيم، وبين الآدميين والملائكة؛ فإن ذلك يدل على أنّها تربط بيننا معاشر المسلمين؛ لأنّنا أولاد رجل واحد وامرأة واحدة، كما يبيّن لنا ربّنا في القرآن العظيم. فهذه الرابطة التي ربطت بين الملائكة والآدميين مع اختلافهم في العنصر، واختلافهم في المكان، واختلافهم في الاتجاهات والميول، لا شكّ أنّها تربط أقوى الربط بين المسلمين

الذين هم جنس واحد من رجل واحد وامرأة واحدة، فعلينا ألا نضيع هذا الربط السماويّ العظيم الذي جعله الله بيننا بسبب تشريع ربِّ العالمين، فيجب علينا أن نتعاون ونتعارف ونتساعد على توجيه المسلمين، ورفع مستوى دين الإسلام، لتكون كلمة الله هي العليا.

وممّا يدعونا إليه دين الإسلام: أن نترك الخلافات والنزاعات، ونكون يدًا واحدة على الخير؛ لأنّ الاختلاف والمنازعات يؤدي للفشل وضياع القوة، وقد بيّن القرآن العظيم في سورة الحشر أن الاختلاف والنزاعات سببها ضعف العقل[1] .

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم؛ هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك بساقك، كما جاء في الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[2] . ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيها على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه. وقد دلّت الآيات على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية، وأن النداء برابطة أخرى غير الإسلام كالعصبية المعروفة **بالقومية** لا يجوز، ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين، وأنه لا خلاف بين العلماء في منع النداء برابطة غير الإسلام، كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٩٢-١٠٣).
(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩).

بالقومية يقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية، فإن النداء بها حينئذ معناه الحقيقي أنه نداء إلى التخلي عن دين الإسلام، ورفض الرابطة السماوية رفضا باتا، على الله أن يعتاض من ذلك روابط عصبية قومية، مدارها على أن هذا من العرب، وهذا منهم أيضا مثلاً، فالعروبة لا يمكن أن تكون خلفا من الإسلام، واستبدالها به صفقة خاسرة، وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده كما لا يخفى[(١)].

ولمـّا أنّ الملحدين يقولون:"إن الرجم قتل وحشي لا يناسب الحكمة التشريعية، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان"، لقصور إدراكهم عن فهم حكم الله البالغة في تشريعه. فقد صان الإسلام الأخلاق، وأحاطها بسياج الشريعة، وذلك بسنّ العقوبات السماوية معقولة المعنى[(٢)]. فالزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض، وتقذير الحرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله، ومن كان كذلك فهو نجس قذر لا يصلح للمصاحبة، فعاقبه خالقه الحكيم الخبير بالقتل ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع، ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قتلته أفظع قتلة؛ لأن جريمته أفظع جريمة، والجزاء من جنس العمل. وقد دل الشرع المطهر على أن إدخال الفرج في الفرج المأذون فيه شرعاً

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٢).

(٢) نادى الموسيو (بيري) رئيس لجنة الإصلاح القضائي بضرورة إيقاع عقوبة الإعدام على القتلة، ويقول: "يكون الحق بجانبي إذا قلت إن عدد الجرائم يزيد كلما ألغينا عقوبة الإعدام عمليّاً، فالقتلة بعد أن يعلموا أنهم لا يعاقبون بالإعدام لا يبالون باقتراف الجرائم". ويرى (ماكسويل) في كتابه (الجرم والمجتمع) أن الدواء الوحيد لاستفحال الجرائم، هو تهويل الجناة بأشد العقوبات، فالمجنون أيضاً يتأثر من وعيد القصاص. **انظر: روح السياسة، غوستاف (ص: ٢١٦، ٢٢٠).**

يوجب الغسل، والمنع من دخول المسجد على كل واحد منهما حتى يغتسل بالماء، فدل ذلك أن ذلك الفعل يتطلب طهارة في الأصل، وطهارته المعنوية إن كان حراماً قتل صاحبه المحصن؛ لأنه إن رجم كفر ذلك عنه ذنب الزنى، ويبقى عليه حق الآدمي؛ كالزوج إن زنى بمتزوجة، وحق الأولياء في إلحاق العار بهم.

وشدة قبح الزنى أمر مركوز في الطبائع، وغلظ جَلَّوَعَلَا عقوبة المحصن بالرجم تغليظا أشد من تغليظ عقوبة البكر بمائة جلدة؛ لأن المحصن قد ذاق عسيلة النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن، فلما كان الداعي إلى الزنى أعظم، كان الرادع عنه أعظم وهو الرجم. وأما جلد الزاني البكر ذكراً كان أو أنثى مائة جلدة فهذا منصوص بقوله تعالى: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ ﴾ [النور: ٢]؛ لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزنى، وتطهره من ذنب الزنى. وتشريع الحكيم الخبير جَلَّوَعَلَا مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فظيع الجناية بعظيم العقاب جزاء وفاقا[1]. وقد سبقت الإشارة إلى أن القرآن لا ينافي التقدم الذي لا يتعارض مع دين الإسلام، فهو يدعو إلى التقدم في جميع الميادين، متى كان ذلك في حدود الدين، والتحلي بآدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية.

وفي رده على دعاة السفور، ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنهم يعارضون الآيات التي تدعو إلى غضّ البصر بفلسفاتهم الشيطانية التي يكمن من ورائها ضياع الشرف والعفاف، ويتحصل بسببها تدنيس الأعراض وتقذير الفرش وعدم سلامة الأنساب وعدم صفائها من أقذار الاختلاط. **وإيضاحه**: أن من يدعو إلى اجتماع الطالبات في عنفوان شبابهن ونضارة حسنهن، حال كونهن في أزياء إفرنجية مغرية مثيرة للغريزة الطبيعية لانكشاف الرؤوس

(١) أضواء البيان (٣/ ٦٣).

والوجوه والأعناق وغير ذلك من أبدانهن، مع كونهن في غاية التصنع والتجمل، مع الشباب الذين تشتعل فيهم نار الغريزة الطبيعية والشهوة بمقتضى شبابهم وميلهم الطبيعي الجبلي إلى التمتع بالنساء، والحال أنه لا وازع من دين ولا مروءة يزع الذكور عن الإناث ولا الإناث عن الذكور حسب التقاليد المتبعة، والجميع مجتمعون في محل واحد ينظر كل فريق منهم إلى ما يدعو إلى الفتنة من جمال الآخر. فكأنه يقول لهم: إني مهدت لكم وسهلت لكم كل طريق إلى ارتكاب ما لا ينبغي، وإشباع الغرائز بطريق غير مشروعة، مدنسة للأعراض والفرش والأنساب. وكأن الشيطان يقول لأولئكم: قولوا للمؤمنين لا يغضوا أبصارهم ولا يحفظوا فروجهم وقولوا للمؤمنات كذلك.

وهذا وإن لم يصرحوا به فهو معنى ما فعلوا من الأسباب المفضية له كما لا يخفى على كل منصف. ثم يوجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ نصيحة إلى الآباء، فيقول: أيها الأب الكريم المؤمن العربي الشهم، بأي مسوغ من عقل أو دين أو مروءة أو إنسانية تترك فلذة كبدك التي هي ابنتك مائدة سبيلاً تتمتع بجمالها كل عين فاجرة غدراً وخيانة ومكراً وظلماً لذلك الجمال الذي يستغل مجاناً في إرضاء الشيطان وتقليد كفرة الإفرنج تقليداً أعمى مع إضاعة الشرف والفضيلة والعفاف!؟. والفاجر قد يتمتع بالنظر إلى جمال المرأة وربما بلغت به لذة النظر إلى حد بعيد. ألا ترون قول بعضهم في محبة النظر الحرام:

قلت اسمحوا لي أن أفوز بنظرة ... ودعوا القيامة بعد ذاك تقوم[1]

مع أن فلذة كبدك التي هي ابنتك لو ربيتها تربية إسلامية في حنان وصيانة ومحافظة على الشرف والفضيلة لكانت هي جوهرة الدنيا وأنفس شيء موجود فيها، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة". ولا تكون صالحة إلا بالتربية الدينية.

(١) البيت في خريدة القصر (٢/ ٩٣٥) منسوب إلى ابن أضحى.

ولا يصح لعاقل أن يشك في أن اختلاط الجنسين في غاية الشباب ونضارته وحسنه أنه أكبر وسيلة وأنجح طريق إلى انتشار الفاحشة وفشو الرذيلة بين الجنسين. ولا شك أنهما بحكم كونه زميلها وهي زميلته في الدراسة أنهما يخلوان كما يخلو الزميل بزميله في منتزهات ومواضع السباحة في الماء ومواضع مراجعة الدروس، وخلوه بها طريق إلى ارتكاب ما لا ينبغي لا ينكرها إلا مكابر، والسبيل الموصلة إلى ذلك سبيل سيئة كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الإسراء: ٣٢]. فصرح بأنه فاحشة وأن سبيله سيئة. وتأملوا لم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ ولم يقل: (ولا تزنوا)؛ لأن النهي عن القرب منه يستلزم التباعد من جميع الوسائل التي توصل إليه، ولأن من قرب من الشيء كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه. فما أجمل تعاليم القرآن وآدابه السماوية، وما أحسن ما تدعو إليه من النزاهة والفضيلة والتباعد عن الرذائل[1].

(١) فتوى في تحريم التعليم المختلط، ضمن «محاضرات الشنقيطي» (ص: ١٥٨).

المطلب التاسع

القيم والأخلاق المحمودة

لمّا كانت الحكمة التي خُلق لأجلها الخلق هي عبادة الله جَلَّوَعَلَا وحده، ونبذ الشرك والأنداد والأضداد، فقد أولى الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة الاعتقاد عناية كبرى في مؤلفاته، ودروسه، ومحاضراته.

ولمّا أن العقيدة الصحيحة الصافية هي أعظم قيمة يملكها الإنسان في هذا الوجود، وهي التي بذل لأجلها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصحابه الغالي والنفيس، وهي الأساس الأول للقيم والأخلاق، فسأقوم في هذا المطلب بالتطرق إلى هذه القيمة ثم أتبعها بذكر جملة من القيم والأخلاق التي دعا لها الإسلام من خلال ما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه ومؤلفاته.

العبودية:

مقام العبودية لله تعالى أشرف المقامات وأعظمها، ولو كان هناك مقام أشرف من هذا المقام لما وصف به نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مطلع سورة الإسراء في فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:١]. قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتعبير بلفظ العبد في هذا المقام العظيم يدل دلالة واضحة على أن مقام العبودية هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها. إذ لو كان هناك وصف أعظم منه لعبر به في هذا المقام العظيم، الذي اخترق العبد فيه السبع الطباق، ورأى من آيات ربه الكبرى"(١).

وأشرف الصفات: العبودية له جَلَّ وَعَلَا ولذا إذا أراد الله أن يرفع من شأن نبيه ويعظم الموقف الذي هو فيه عبر عنه بلفظ العبد؛ لأنها أعظم صفة وأكرمها كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١] إلى غير ذلك من الآيات(٢).

وكل شيء يغفره الله جَلَّ وَعَلَا -إن شاء- إلا الإشراك به ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا معنى قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] في شيء من ذلك، لا شريك يصلى له غيره، ولا شريك ينحر ويتقرب إليه بالنحر غيره، ولا شريك يميت ويحيي غيره، ولا شريك يقام على الأعمال لرضاه مخلصا له في الحياة غيره، ولا شريك يوصى بالأعمال الصالحة بعد الممات يراد بها رضا شريك غيره، بل هو وحده الذي له الإخلاص في جميع ذلك كله، ثم قال: ﴿وَبِذَٰلِكَ ﴾ الذي ذكرت لكم من إخلاص العبادة لله طول أيام الحياة، وما يوصى به بعد الممات، وما يموت عليه الإنسان من الأعمال، إخلاص

(١) أضواء البيان (٣/ ٨).
(٢) العذب النمير (٥/ ٥٥).

التوحيد والقرب لله في ذلك وحده ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ هكذا أمرني ربي، وأنا عبد مأمور، وقد أمرني بالإخلاص له في جميع عباداتي. فعلينا أن نعلم أن هذا الذي أمر به سيدنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تحقيق العبودية لله، وإخلاص حقوق الله لله، وتحقيق معنى (لا إله إلا الله) علينا أن نتبع فيه نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وفي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] إشارة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذي هو ﴿إِيَّاكَ﴾ وقد تقرر في الأصول في مبحث دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة. وفي المعاني في مبحث القصر: أن تقديم المعمول من صيغ الحصر. وأشار إلى الإثبات منها بقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾. وقد بين معناها المشار إليه هنا مفصلاً في آيات أخر كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فصرح بالإثبات منها بقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، وصرح بالنفي منها في آخر الآية الكريمة بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات(٢).

الاستعانة:

والعون لا يُطلب إلا من الله جَلَّ وَعَلَا ، وهذا مقتضى قول الحق: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة. وإتيانه بقوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ بعد قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فيه إشارة إلى

(١) العذب النمير (٢/ ٦٢٩).
(٢) أضواء البيان (١/ ٧).

أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر. وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا واضحا في آيات أخر كقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] إلى غير ذلك من الآيات[١].

وقوله تعالى: (﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]. الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة لا إشكال فيها، وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة، فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها النهي عما لا يليق، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأنها تجلب الرزق وذلك في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: ١٣٢]، ولذا كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة. وإيضاح ذلك: أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه، ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه، فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه[٢].

التوحيد:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الله جَلَّ وَعَلَا أثنى على أهل التوحيد والتوكل من عباده[٣]. وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنّ من هدي القرآن توحيد الله جَلَّ وَعَلَا، فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيده جَلَّ وَعَلَا في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته. وقد دل استقراء القرآن على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) أضواء البيان (١/ ٧).
(٢) أضواء البيان (١/ ٣٥).
(٣) أضواء البيان (٢/ ١٠٤).

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء.. ولا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله [١]. وهذا النوع من التوحيد لم ينفع الكفار؛ لأنهم لم يوحدوه جَلَّوَعَلَا في عبادته[٢].

الثاني: توحيده جَلَّوَعَلَا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى «لا إله إلا الله» وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جَلَّوَعَلَا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم[٣]. وهذا النوع هو الذي وقعت فيه جميع المعارك بين الرسل والأمم، وهو الذي أرسلت الرسل لتحقيقه[٤].

النوع الثالث: توحيده جَلَّوَعَلَا في أسمائه وصفاته. وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

- **الأول**: تنزيه الله جَلَّوَعَلَا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم.
- **والثاني**: الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الوجه اللائق بكماله وجلاله مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف[٥].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧).
(٢) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١١٢). و الإسلام دين كامل (١/ ٨).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٨).
(٤) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١١٢). و الإسلام دين كامل (١/ ٨).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٨).

ومعلوم أنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد بين تعالى نفي المماثلة عنه بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١] ، وبين إثبات الصفات على الحقيقة بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى: ١١]. فأول الآية يقضي بعدم التمثيل، وآخرها يقضي بعدم التعطيل؛ فيتضح من الآية أن الواجب إثبات الصفات حقيقة من غير تمثيل، ونفي المماثلة من غير تعطيل، وبين عجز الخلق عن الإحاطة به جَلَّ وَعَلَا فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [طه: ١١٠][(١)].

وجميع الرسل جاءوا بإخلاص التوحيد لله، الذي تضمنته كلمة لا إله إلا الله، وقد جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾[النحل: ٣٦][(٢)]. وفي قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٣ - ٥] ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة «الجاثية» ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده جَلَّ وَعَلَا:

- **الأول**: خلقه السماوات والأرض.
- **الثاني**: خلقه الناس.
- **الثالث**: خلقه الدواب.

(١) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١١٢). و الإسلام دين كامل (١/ ٨).
(٢) أضواء البيان (٧/ ١٢١).

- **الرابع**: اختلاف الليل والنهار.
- **الخامس**: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.
- **السادس**: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين إنما ينتفع بها المؤمنون الموقنون الذين يعقلون عن الله حججه وآياته، فكأنهم هم المختصون بها دون غيرهم. ولذا قال: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة جاءت موضحة في آيات كثيرة جدا كما هو معلوم[1].

واعلم أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله. فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده، لأنه من خصائص الربوبية، فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومرضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جَلَّ وَعَلَا[2].

وأساس التوحيد الأكبر، وأساسه الأعظم، هو تنزيه خالق السماوات والأرض جَلَّ وَعَلَا عن مشابهة خلقه؛ لأن الخلق صنعة من صنائعه، والصنعة لا تشبه صانعها. فعلينا أولا أن نطهر قلوبنا من أقذار التشبيه، وأنجاس التشبيه، وأدران التشبيه، ونجزم جزما باتا قاطعا أن الوصف إذا أسند إلى الله، ووصف به الله في كتاب أو سنة صحيحة فإن

(١) أضواء البيان (٧/ ١٧٩).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٤٠٤).

ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقضي على جميع الوساوس، ويقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، وتجزم قلوبنا بأن الخلق صنعة والخالق صانع، ولا مناسبة بين الصنعة وصانعها، لا في الذات، ولا في الصفات، ولا في الأفعال.

وهذا الأساس الأكبر للعقيدة التي هي عقيدة السلف في آيات الصفات وأحاديثها الذي هو التنزيه الكامل، وتقديس صفات خالق السماوات والأرض وتعظيمها وإكبارها وإجلالها عن أن تشبه شيئا من صفات المخلوقين أو ذواتهم أو أفعالهم، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا. هذا الأساس الأعظم في ضوء قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: آية ١١][(١)].

الإخلاص:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الإخلاص لله وقوة الإيمان به، هو السبب لقدرة الضعيف على القوي وغلبته له[(٢)]. وإنما كان الإخفاء أفضل من الإظهار؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء[(٣)].

والإخلاص، إفراد المعبود بالقصد، في كل ما أمر بالتقرب به إليه، وقد بين جَلَّ وَعَلَا أنه ما أمر بعبادة، إلا عبادة يخلص له العابد فيها. أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك، جاء به من تلقاء نفسه، لا بأمر ربه[(٤)].

والقرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) العذب النمير (٣/ ٣٤٨).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٥٢).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٥٩).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٣٥٢).

الثاني: أن يكون خالصاً لله تعالى.

الثالث: أن يكون مبنياً على أساس العقيدة(١).

وقد أوضح الله جَلَّوَعَلَا في كتابه العزيز أنه إن علم في قلوب عباده الإخلاص كما ينبغي كان من نتائج ذلك الإخلاص أن يقهروا ويغلبوا من هو أقوى منهم. ولذا لما علم جَلَّوَعَلَا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص كما ينبغي، ونوه بإخلاصهم في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، بين أن من نتائج ذلك الإخلاص أنه تعالى يجعلهم قادرين على ما لم يقدروا عليه، قال تعالى:﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ [الفتح: ٢١] ، فصرح بأنهم غير قادرين عليها، وأنه أحاط بها فأقدرهم عليها، وجعلها غنيمة لهم لما علم من إخلاصهم. ولذلك لما ضرب الكفار ذلك الحصار العسكري العظيم على المسلمين وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ ﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١] كان علاج ذلك الضعف والحصار العسكري الإخلاص لله تعالى وقوة الإيمان به، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ ﴾ [الأحزاب: ٢٢]. فكان من نتائج ذلك الإخلاص ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

(١) أضواء البيان (٢/ ٤٤٠)، العذب النمير (٣/ ٢٥٢)، مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١١٨)، الإسلام دين كامل (١/ ١٣)، رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٩٨).

قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧]. وهذا الذي نصرهم الله به ما كانوا يظنونه وهو الملائكة والريح(١).

المراقبة:

كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيراً ما يقرن دروسه بالوعظ والتذكير بالاستعداد للآخرة واستحضار المراقبة لله جَلَّ وَعَلَا(٢). وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العلماء أطبقوا على أن أعظم المواعظ، وأعظم الزواجر، هو واعظ المراقبة والعلم(٣)، وهو أن يعلم هذا الإنسان المسكين أن خالق السماوات والأرض مطلع عليه، يعلم ما يسر وما يعلن، حتى ما يخطر في قلبه فهو يعلمه (٤). وقد بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن إحسان العمل لا يكون إلا بالواعظ الأكبر والزاجر الأعظم وهو مراقبة الله، وعلم العبد أنه كأنه ينظر إلى الله جَلَّ وَعَلَا وأنه إن كان لم ير الله فالله جَلَّ وَعَلَا يراه. فمن علم أنه بين يدي ملك السماوات والأرض الجبار العظيم الأعظم، وأن الله يراه؛ أحسن عمله؛ لأن الإنسان - ولله المثل الأعلى- إذا كان أمام ملك جبار من ملوك الدنيا شديد البطش على من لم يمتثل أمره، وأمره بعمل، وهو حاضر ينظر إليه، لابد أن يجد ويحسن ذلك العمل على أكمل الوجوه.

وأشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ على المؤمن أن يستشعر أنه بين يدي خالق السماوات والأرض، وأن الله يراه، وأنه ليس بغائب عنه. فإذا لاحظ هذا ملاحظة صحيحة أحسن العمل، ولذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجيباً لجبريل في قوله: (أخبرني عن الإحسان). قال

(١) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٣٠).
(٢) العذب النمير (١/ ٢٢).
(٣) العذب النمير (١/ ٣٩٢)، مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١١٥)، الإسلام دين كامل (١/ ١١).
(٤) العذب النمير (٢/ ١٩١).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١)؛ لأن من لاحظ هذه الموعظة وهذه المراقبة أحسن عمله(٢).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن للعلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة: ٥٨] أقوال. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن لا يعدل في تفسيرها عن تفسير النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قوله لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٣). يعني: الذين كانوا أشد مراقبة لله في أعمالهم سيزيدهم الله إيمانا؛ لأن الإنسان كلما ازداد تقواه لله جَلَّ وَعَلَا زاده الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] معناه: وسنزيد المحسنين منكم، أي: الذين هم أشد مراقبة لله سنزيدهم من الخير والإيمان. وقال بعض العلماء: سنزيد في جزاء أعمال المحسنين؛ لأن العمل الذي يراقب صاحبه الله قد يكون ثوابه أكثر ممن هو أقل منه مراقبة(٤).

فعلى المرء إذا هم بشيء أن يراقب خالق السموات والأرض، ويعلم أنه حاضر يرى. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾[الأعراف: ٧] ليحاسب(٥).

والواجب على كل مكلف أن يتباعد من كل معصية خسيسة، سواء كان ذلك ظاهراً بمرأى الناس، كالذي يزني والناس ينظرون، أو يقتل والناس ينظرون، أو يرتكب محرماً ظاهراً علناً يراه الناس، وكالذي يفعل الفواحش سراً من غير اطلاع الناس، سواء الذي يزني من غير أن يراه الناس، والذي يسرق خفية من غير أن يراه الناس، وهذا لا يفعله إلا من هو في غاية الجهل؛ لأنه إذا خاف أن يطلع الناس عليه، وترقب للفاحشة أن تكون باطنة لا يراها الناس،

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١١٥).
(٢) العذب النمير (٣/ ٤٠٩).
(٣) سبق تخريجه .
(٤) العذب النمير (١/ ١١٤).
(٥) العذب النمير (٢/ ٢٥٥).

أليس هو يعلم أن خالقه يراه؟ وأن الحفظة الملائكة الكرام حاضرون معه، يسجلون عليه ما فعل؟! فعلى المسلم إذا خلا بالأمر، وسول له الشيطان أن يفعل تلك الفاحشة؛ لأن الناس لا يرونه، وأنه لا يطلع عليه أحد، كالذي يخلو بامرأة في محل مقفول، يأمن عيون الناس فيه، فيخول له الشيطان الريبة معها، عليه أن ينظر أن الله رقيب عليه، وأن الملائكة الكرام معه، وعلى الشخص أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فالذي يستحيي من البشر الضعاف الذين لا يقدرون أن يضروه، ولا يستحيي من خالق السماوات والأرض، فهو مجنون جاهل(١). ومن راقب الله، ولاحظ أن الله مطلع عليه – إن كان عاقلاً– استحيا من الله، ولم يرتكب ما يسخط الله، ولا يفضحه هو ويخزيه يوم القيامة(٢).

الإحسان:

وهو الذي خُلِق الخلْقُ لَأجل الاختبار فيه، فبين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن طريق الإحسان هيَ هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم المذكور، فقال: "هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تَكُنْ تراه فإنه يراك"(٣). ولهذا لا تَقْلب ورقةً من المصحف الكريم إلا وجدت فيها هذا الواعظ الأعظم(٤).

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلى – أي يختبر بإحسان العمل – فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا ليعلمه لأصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أخبرني عن الإحسان» أي وهو الذي خلق

---

(١) العذب النمير (٢/ ٤٨٣).
(٢) العذب النمير (٣/ ٦٦).
(٣) سبق تخريجه .
(٤) الإسلام دين كامل (١/ ١٢). العذب النمير (٣/٦٦، ٥/١٩٩). مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١١٧).

الخلق لأجل الاختبار فيه، فبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

التوكل:

وقد عرفه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: "التوكل على الله: الثقة به، وإسناد الأمور وتفويضها إليه مع تعاطي الأسباب؛ لأن الله أمر بها. ولابد مع تعاطيها من الثقة بأنه لا يقع إلا ما أراد الله تعالى"(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩] أمر تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوكل عليه جَلَّ وَعَلَا.

ولا شك أنه ممتثل ذلك، فهو سيد المتوكلين عليه صلوات الله وسلامه، والتوكل على الله تعالى، هو شأن إخوانه من المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه كما بين تعالى ذلك في آيات أخر. ومن أوضح الأدلة على عظم توكل نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الله قوله يوم حنين، وهو على بغلة في ذلك الموقف العظيم:

أنا النبي لا كذب .. .. أنا ابن عبد المطلب(٣)(٤)

وقد أمر تعالى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوكل عليه جَلَّ وَعَلَا. ولا شك أنه ممتثل ذلك، فهو سيد المتوكلين عليه صلوات الله وسلامه، والتوكل على الله تعالى، هو شأن إخوانه من المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه(٥). وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر

---

(١) أضواء البيان (٢/ ١٧١).
(٢) العذب النمير (٤/٤٧٩)، معارج الصعود إلى تفسير سورة هود. د. عبدالله قادري (ص: ٣٠٧).
(٣) صحيح البخاري (٤/ ٣٠) .
(٤) أضواء البيان (٢/ ١٥٠).
(٥) أضواء البيان (٢/ ١٤٩).

مأمور به شرعا وأنه لا ينافي التوكل على الله جَلَّ وَعَلَا[1]، وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعا لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف[2].

ومما يوضح أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله قوله تعالى عن يعقوب:﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف: ٦٧] ، أمرهم في هذا الكلام بتعاطي السبب، وتسبب في ذلك بالأمر به ؛ لأنه يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين لأنهم أحد عشر رجلا أبناء رجل واحد، وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام، فدخولهم من باب واحد مظنة لأن تصيبهم العين فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطيا للسبب في السلامة من إصابة العين؛ كما قال غير واحد من علماء السلف، ومع هذا التسبب فقد قال الله عنه:﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: ٦٧]، فانظر كيف جمع بين التسبب في قوله: لا تدخلوا من باب واحد، وبين التوكل على الله في قوله: عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون، وهذا أمر معلوم لا يخفى إلا على من طمس الله بصيرته، والله جل وعلا قادر على أن يسقط لها الرطب من غير هز الجذع، ولكنه أمرها بالتسبب في إسقاطه بهز الجذع، وقد قال بعضهم في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمـــــريم .. .. وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه .. .. جنته ولكن كل شيء له سبب[3][4].

---

(١) ذكره الشيخ عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ [مريم: ٢٥].الأضواء (٣/٣٩٨).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٣٩٨).

(٣) البيتان بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة (ص ٢٦٩)، وربيع الأبرار (٣/ ٤٦٢).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٩٨- ٣٩٩).

والتوكل على الله سبب للحفظ، والوقاية من السوء[١]. والشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله، وأن سلطانه إنما هو على أتباعه الذين يتولونه، والذين هم به مشركون[٢].

ومن الأسس التي تقوم عليه القيم والأخلاق: **الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة.** ويقابلها رذائل أربعة، هي: الجهل، والشره، والجبن، والجور. **ويتفرع عن كل أساس فروعه. فيتفرع عن الحكمة:** الذكاء وسهولة الفهم، وسعة العلم. **وعن العفة:** القناعة، والورع، والحياء، والسخاء، والصبر، والحرية. **وعن الشجاعة:** النجدة، وعظم الهمة. **أما العدالة:** فيتفرع عنها: الصداقة، والألفة، وصلة الرحم، وترك الحقد، ومكافأة الشر بالخير، واستعمال اللطف[٣]. وسنتناولها بالتفصيل إن شاء الله.

الحكمـــــة:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ أظهر معاني الحكمة لغة، أنها العلم النافع الصحيح؛ لأن العلم الصحيح النافع يمنع الأقوال والأفعال أن يعتريها الخلل والنقص فكل نقص أو خلل منشأه في الحقيقة من الجهل الذي هو عدم العلم بما يقصد.

والحكمة في الاصطلاح: هي وضع الأمور في مواضعها وإيقاعها في مواقعها. وهي في الاصطلاح الخاص بأهل الأصول: المصلحة التي من أجلها صار الوصف علة للحكم. فالحكم -مثلًا- تحريم شرب الخمر، وعلة هذا الحكم هي الإسكار، والحكمة هي حفظ العقل. فمصلحة حفظ العقل هي التي من أجلها صار الإسكار علة لتحريم شرب الخمر وهي حكمة التشريع.

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٨٨).
(٢) أضواء البيان (٢/ ٤٤٤).
(٣) تتمة الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأضواء البيان (٨/ ٢٤٨ - ٢٥١)، بتصرف.

والحكم -مثلًا أيضًا- القطع، وعلة هذا الحكم هي السرقة، والحكمة هي حفظ المال. فمصلحة حفظ المال من السرقة هي التي من أجلها صارت السرقة علة لقطع يد السارق. وهكذا.

وبعض أهل الأصول يقول: الحكمة عبارة عن دفع مفسدة أو تقليلها، أو جلب مصلحة أو تكميلها. فإذا علمت ذلك فاعلم أن الحِكَم التي يدور حولها التشريع السماوي ثلاث:

- **الأولى**: درأ المفسدة وهو المعبر عنه في الأصول بالضروريات.
- **الثانية**: جلب المصلحة وهو المعبر عنه عند الأصوليين بالحاجيات.
- **الثالثة**: الجري على مكارم الأخلاق واتباع أحسن المناهج في العادات والمعاملات وهي المعبر عنه في الأصول بالتحسينات والتتميمات[1].

ولا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، وبقدر ما يكون في العلم من النقص يكون في الحكمة؛ لأنك ترى الحاذق القلب البصير يعمل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، وغاية الإتقان، وأنه وضعه في موضعه، وأوقعه في موقعه، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك أن فيه هلاكه أو ضرراً عظيماً عليه فيندم ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلت لكان كذا. والله وحده جَلَّوَعَلَا لا يجري عليه لو فعلت كذا لكان أصوب؛ لأنه عالم بخفايا الأمور، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يجري عليه شيء من ذلك، فلا يفعل فعلا إلا وهو في غاية الإحكام، ولا عملاً ولا تكليفاً ولا جزاءً إلا هو في غاية الحكمة، والوضع في الموضع، والإيقاع في الموقع، ولذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾، وهذان الوصفان من أسمائه جَلَّوَعَلَا من أعظم ما يستدعي الإنسان إلى أن يطيع ربه ولا يعصيه،

(١) منهج التشريع الإسلامي وحكمته (ص: ٦٥).

وأن يذكره ولا ينساه، فلأن كونه عليما تعرف به أن علمه المحيط بكل شيء يقتضي أنه لا يدعوك إلا لما لك فيه الخير والعواقب الحسنة الجميلة؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وما تنكشف عنه الغيوب[١].

قال الشيخ محمد عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمته لشيخه محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وهكذا كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حكيماً في تعليمه، حكيماً في دعوته، حكيماً في بحثه وإقناعه. وقد ظهر ذلك كل الوضوح في مؤلفاته"[٢].

ويتفرع عن الحكمة:

١- **الذكاء وسهولة الفهم**: ومما ورد في ذلك عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره ابنه الدكتور/عبد الله، عن بعض القصص التي تدلّ على سرعة بديهة والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال:"قال لي الشيخ مرة إنه مسافر. وكانت له ثياب تغسل، ورآه أحد الجلوس وهو يقلب ثيابه، ومن بينها سروال، فظنّ هذا الشخص أنّ الشيخ يريد لبس لباسه أمام الناس، فقال له: "ولسراويل بهذا الجمع، فقال له الشيخ: "أبشر لن ألبس ثيابي بحضرة الناس، ولن نصرف مفاعيل؛ لأنّ نصّ الألفية:

ولسروايل بهذا الجمع .. .. شبه اقتضى عموم المنع[٣]

فكان المكلم للشيخ ذكياً، وفهم الشيخ قصده بسرعة"[٤].

وقد حبا الله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكاءً مفرطاً، وحافظة نادرة، وهمة عالية، فسخر ذلك كله في تحصيل العلم وجمعه بمختلف فنونه وصنوفه، من عقيدة، وتفسير، وحديث،

(١) العذب النمير (٤/ ٥٤٢)، و (٥/ ١٩٨).
(٢) أضواء البيان (٩/ ٤٩٧).
(٣) البيت في ألفية ابن مالك (ص: ٨٠).
(٤) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف (١/ ٤٧).

وأصول، وعربية. وكان كلامه في العلم يشد كل من سمعه، حتى يخيل للسامع أن الشيخ أفنى عمره في ذلك الفن ولا يحسن غيره. وهذه ليست من المبالغة في شيء، ومن قرأ كتابه: "الرحلة"، أو سمع شيئاً من محاضراته ومناظراته، سواء في المدينة النبوية، أو ما سجل له إبان زيارته لعشر دول إفريقية على رأس وفد من الجامعة عرف حقيقة ذلك، كما أن دروسه المسجلة في التفسير أكبر شاهد على ذلك. ولقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال: «لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة» اهـ، وقال: «كل آية قال فيها الأقدمون شيئا فهو عندي». ولما قال له أحد الأشخاص: «إن سليمان الجمل – صاحب حاشية الجمل على الجلالين – لم يقل هذا». قال: «أحلف لك بالله أني أعلم بكتاب الله من سليمان الجمل بكذا؛ لأني أخذت المصحف من أوله إلى آخره، ولم تبق آية إلا تتبعت أقوال العلماء فيها، وعرفت ما قالوا».

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحفظ من أشعار العرب وشواهد العربية الآلاف المؤلفة من الأبيات، كما كان يحفظ أكثر أحاديث الصحيحين، وألفية ابن مالك، ومراقي السعود، وألفية العراقي، وغير ذلك من المنظومات في السيرة النبوية، والغزوات، والأنساب، والمتشابه من ألفاظ القرآن، وشيئا من المتون في الفقه نثراً ورجزاً. ومن سمع شيئا من دروس التفسير لم يستكثر ذلك عليه[1].

وقد أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن المعاصي والكفر سبب طمس القلوب، وذلك يقع في المؤمن، الإنسان المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا كان عاقلاً ذكياً وأناب إلى الله وتاب إليه زال ذلك السواد، وصار قلبه صقيلا؛ لأن القلب كالزجاجة، ونور الإيمان الذي يبصر به الحق والباطل في داخله كأنه النور وسط الزجاجة، والزجاجة إذا تلطخت بالأوساخ انكسف النور داخلها، وإذا كانت صقيلة

(١) المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» طليعة أضواء البيان (ص: ٢٢).

نظيفة شع النور. فإذا أذنب العبد ذنباً صارت وساخة سوداء على قلبه، فإذا بادر إلى الإنابة والتوبة غسلها، فبقي القلب صقيلاً نظيفاً، فشع نور الإيمان فيه، كالنور في الزجاجة الصقيلة، فإذا كان المسكين مغفلاً جاهلا، وزاد في الذنوب لم يزل يزيد في الذنوب، والسواد يزداد حتى يعلو جميع القلب، فيسود جميعه، فيبقى النور لا أثر له، وعلامة هذا من طمس البصائر أن ترى من وقع به هذا الاسوداد القلبي، والران المستولي على قلبه تراه يرتكب فظائع الذنوب وهو يضحك في فرح ولهو؛ لأن البصيرة والنور الذي يرى به شدة ضرر هذا انطمس، فلا يرى ضرراً، وتراه تفوته الصلوات والرغائب العظام في الدين وهو فرح مسرور لا يرى هذا الحق حقاً، ولا هذا الباطل باطلا؛ لأن البصيرة التي يرى بها الحق حقا والباطل باطلا، والنافع نافعا والضار ضارا، إذا اسودت القلوب انطمس نورها، فلا يبصر بها شيئا، فكما أن الكفار بادروا إلى تكذيب الأنبياء، وكانوا قبل ذلك قد يكونون على فطرة، وقد يكونون معذورين اسودت قلوبهم فطبع الله عليها، وختم عليها، وقلبها عن الحق – والعياذ بالله[1].

٢- **سعة العلم**: وأعظم العلم: توحيد الله جَلَّوَعَلَا في عبادته، وهو تحقيق معنى «لا إله إلا الله» وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جَلَّوَعَلَا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم[2]. وليس التفقه في الدين إلا علم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[3].

(١) العذب النمير (٢/١٢٨).
(٢) أضواء البيان (٣/ ١٨).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٣٦).

العفـــــة:

تطرق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان مسألة نكاح العفيف للمرأة الزانية، وذكر أن الأظهر في هذه المسألة أن المسلم لا ينبغي له أن يتزوج إلا عفيفة صينة، ويؤيده حديث: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[(١)(٢)].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ العرب يغارون على نسائهم ولا يرضون بابتذالهن، وكانوا يرون أن عفاف النساء وصيانتهن وعدم تدنسهن بالريبة من أكبر الأسباب في نجابة الأولاد ونبلهم وعلو شأنهم وشجاعتهم، ومن ذلك قول جرير يمدح بني قيس عيلان بن مضر:

فلا تأمنن الحي قيساً فإنهم .. .. بنو محصنات لم تدنس جحورها[(٣)]

ولما كان صخر أخو الخنساء يشاطرها ماله كل سنة، ولامتهُ امرأته ونهته عن إعطائه إياها خيرَ ماله لأن زوجها متلاف[(٤)]، قال لها صخر:

وكيف لا أمنحها خيارها .. .. وهي حصان قد كفتني عارها[(٥)]

وأمثال هذا كثير، ومرادنا التمثيل ليعلم به أن من طبيعة العرب الغيرة على الحريم وعدم الدياثة، وضمائرهم حية وطبائعهم أبية لا ترضى تدنس نسائهم بما لا ينبغي، وقد أوضح

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ٧).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٤٢٧).

(٣) ديوان جرير، بشرح محمد بن حبيب (٢/ ٨٧٩).

(٤) متلاف: يقال: ورجل متلاف، أي كثير الإتلاف لماله". انظر: الصحاح (٤/ ١٣٣٣).

(٥) البيت في الشعر والشعراء (ص/٢٢٠) بهذا اللفظ:

والله لا أمنحها شرارها .. .. ولو هلكت مزقت خمارها .. .. وجعلت من شعر صدارها

وفي الإصابة (٤/ ٢٨٩):

والله لا أمنحها شرارهـــا ... وهي التي أرخص عنى عارها
ولو هلكت خرقت خمارها ... واتخذت من شعر صدارهـا

تلك السجية التي جبلوا عليها من قال:

وإياك واسم العامرية إنني .. .. أغار عليها من فـــــم المتكلم

وأحسد كاسات تقبلن ثغرهـــا .. .. إذا وضعتها موضع اللثم في الفم[1]

وصيانة العرض، وحفظه عن الابتذال، من العادات التي حرص عليها العرب في الجاهلية والإسلام. وقد أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ذلك إشارة لطيفة حين ذكر أن من أساليب اللغة العربية خطابهم إنساناً والمراد بالخطاب غيره، وذكر من الأمثلة السائرة في ذلك قول الراجز، وهو سهل بن مالك الفزاري: "إياك أعني واسمعي يا جاره". وسبب هذا المثل: أنه زار حارثة بن لأم الطائي فوجده غائباً، فأنزلته أخته وأكرمته، وكانت جميلة، فأعجبه جمالها، فقال مخاطباً لأخرى غيرها ليسمعها هي:

يا أخت خير البدو والحضاره .. .. كيف تـــــرين في فتى فزاره

أصبح يهوى حرة معطـــــاره .. .. إياك أعني واسمعي يا جاره

ففهمت المرأة مراده، وأجابته بقولها:

إني أقول يا فتى فـزاره ... لا أبتغي الـــزوج والدعاره

ولا فراق أهل هذي الحـــاره ... فارحل إلى أهلك باستحاره[2][3]

ولقد أحاط الإسلام العفة بسياج متين، فلم يوجب على النساء رفع الصوت ببعض العبادات في محضر الرجال، ومن ذلك رفع الصوت بالتلبية في الحجّ أو العمرة. قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما النساء فلا ينبغي لهن رفع الصوت بالتلبية -كما عليه جماهير أهل العلم-.

وبعد أن ساق أقوال العلماء في ذلك قال: أما المرأة الشابة الرخيمة الصوت، فلا شك أن

---

(١) فتوى في تحريم التعليم المختلط - ضمن «محاضرات الشنقيطي» ط عالم الفوائد (ص: ١٧٠).

(٢) الفاخر (ص ١٥٨)، جمهرة الأمثال (١/ ٢٩).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٨٣، ٦/ ٣٤٠، ٧/ ١٦٦)، والعذب النمير (٢/ ١٧٢، و ٢/ ٤٤٠).

صوتها من مفاتن النساء ولا يجوز لها رفعه بحال، ومن المعلوم أن الصوت الرخيم من محاسن النساء ومفاتنها، ولأجل ذلك يكثر ذكره في التشبيب بالنساء، كقول غيلان ذي الرمة:

لها بشر مثل الحرير ومنطق ... رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر

وعينان قال الله كونا فكانتا ... فعولان بالألباب ما تفعل الخمر(١)

وكقول قعنب ابن أم صاحب:

وفي الخدود لو أن الدار جامعة ... بيض أوانس في أصواتها غنن(٢)

فتراه جعل الصوت الرخيم من محاسن النساء، كالبشرة الناعمة، والعينين الحسنتين، وهذا أمر معروف لا يمكن الخلاف فيه، وقد قال جَلَّ وَعَلَا مخاطباً لنساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهن خير أسوة لنساء المسلمين: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ لأن تليين الصوت وترخيمه يدل على الاهتمام بالريبة كإبداء غيره من محاسن المرأة للرجال كما قال الشاعر:

يحسبن من الكلام زوانيا ... ويصدهن عن الخنا الإسلام(٣)(٤)

وقد سبقت الإشارة إلى أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُعارض عمل المرأة ما دامت تعمل في ستر وحشمة، بعيداً عن مخالطة الأجانب، ولم تُهدر الفضيلة، أو ترتكب رذيلة، متمسكة بمكارم الأخلاق(٥). وقد أوصى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رحلته إلى أفريقيا المسلمات العاملات

---

(١) ديوان ذي الرمة (ص ١٠٤).

(٢) مختارات شعراء العرب لابن الشجري (١/ ٧).

(٣) البيت منسوب لبشار بن برد، في البيان والتبيين (١/ ٢٣١)، و لعبد الله بن الحسن، في الشكوى والعتاب (ص ١٥١)، و ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (ص ٤٠٨)، وربيع الأبرار (٤١٧/٣)، ولعروة بن اذينة القرشي، في الحماسة البصرية (٢/ ١١١)، ولجرير في الدر الفريد (٥/ ٢٤٢).

(٤) أضواء البيان (١٠/٥).

(٥) العذب النمير (٣/ ٣٣١).

بمكارم الأخلاق، والستر والعفاف، وأن عليهنّ أن يعلمن قيمتهن ومكانتهن التي أعطاهن الله، وأن الوحي السماوي صانهن عن الابتذال، وأنه جعلهن يقمن بخدمات لا يقوم بها غيرهن في المجتمع، فهي أعظم من خدمات الرجال، إلا أنها في صيانة وعفاف وكرم وستر(١). وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنّ المرأة تساعد في بناء المجتمع. وتربية الأسرة داخل بيتها مساعدة أعظم مما يعمله الرجل خارجاً، لكن تلك المساعدة في عفاف وستر وكرم، وعدم مخالطة للأجانب، وعدم إهدار للفضيلة وارتكاب للرذيلة، فرب امرأة عملت عملا من أعمال الحياة الدنيا سدت به خلتها، وقومت به شأنها، وهي في غاية العفاف والتستر، والأخذ بمكارم الأخلاق(٢).

ولا يخفى أن العرب كانوا يغارون على نسائهم ولا يرضون بابتذالهن، وكانوا يرون أن عفاف النساء وصيانتهن وعدم تدنسهن بالريبة من أكبر الأسباب في نجابة الأولاد ونبلهم وعلو شأنهم وشجاعتهم(٣).

ويتفرع عن العفة:

١ – **القناعة والزهد**: لعلّ أقرب تطبيق لقيمة القناعة والزهد ما أُثر عن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، فقد روى الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن شيخه محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من أزهر الناس في الدنيا، وكان عفيفاً عما في أيدي الناس، وكريماً بما في يده. ولم تكن الدنيا تساوي عنده شيئاً، فلم يكن يهتم لها. ومنذ وجوده في المملكة وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاءً ولا مرتباً ولا ترفيعاً لمرتبه ولا حصولا على مكافأة أو علاوة. ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه وما حصل عليه لم

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٦٠)، والعذب النمير (٣/ ٣٣١).
(٢) العذب النمير (٣/ ٣٢٤ و ٤/ ٣٩٩).
(٣) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٧٠).

يكن ليستبقيه بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين. ومات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، وكان مستغنياً بعفته وقناعته، بل إن حقه الخاص ليتركه تعففاً عنه كما فعل في مؤلفاته وهي فريدة فينوعها. لم يقبل التكسب بها وتركها لطلبة العلم[١].

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره الشيخ عطية محمد سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سمع الشيخ الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: "لقد جئتُ معي من البلادِ[٢] بكنز عظيم يكفيني مدى الحياة وأخشى عليه الضياع". فقلت له: "وما هو"؟. قال: "القناعة". وكان شعاره في ذلك قول الشاعر:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس .. .. فعلام تكثر حسرتي ووساوسي[٣]

وما رواه عنه ابنه الدكتور/ عبدالله، فيقول: "كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يريد الدنيا، ولا يهتم بها، ويحرص على الاقتصاد"، وكان يقول: "الذي يفرحنا أن الدنيا لو كانت ميتة لأباح الله منها سدّ الخلة". ويقول: "لم أقترض قط لأحد، ولم أبع، ولم أشتر، وترك لي والدي ثروة فكنت أعيش منها، وكان عندي كنز عظيم أرجو الله أن لا يضيع مني؛ هو القناعة"[٤]. وأنه كان في المدينة، وكان لا يوجد عنده أي مال، وقد وعده أحد جيرانه أن يقترض له مالاً. ولما أراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يأتيه وجده يشتغل، وعليه ملابس متبذلة، فرجع عنه وكأنه وجد في نفسه قليلاً أنه في عازة. قال: "ولم أشعر حتى خررت ساجداً في الطريق في الغبار، ورفعت رأسي وعندي فرح ونشوة لا يعلمها إلا الله إكراماً لما أعطاني من العلم، فكيف أريد دنيا وربي أكرمني بالعلم، وبفهم كتاب الله، فذهبت إلى البيت

(١) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٤).
(٢) يقصد بلاد شنقيط.
(٣) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٥).
(٤) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٨).

وكأن الدنيا كملت لي لاستشعاري نعمة الله عليّ بما أعطاني من فهم القرآن، وقد سد الله لي تلك الحاجة من غير أن أسأل أحداً ونذهب لأحد إكراماً منه وفضلاً"[١].

وما ذكره تلميذه الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان متقللاً من الدنيا[٢].

وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُحَذِّر ابنه من جمع الفلوس ها والحرص عليها بحجة التصدق، وبناء المدارس، والأرْبطة، لأنها كالماء الملح، والله عزَّ وجلَّ لم يوجب على العبد جمع المال من أجل التصدق به، مع أن الواقع في الغالب أن العبد إذا جمع المال لا يعطيه للناس".

وقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "وأنا أَقْدَرُ الناس على أن أكون أغنى الناس، وتركت الدنيا لأني أعلم أنه إذا تلطخ بها العبد لا ينجو منها، إلا من عصمه الله".

وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يُبقي عنده من المال إلا ما يكفيه في الشهر، ويوزع ما زاد على ذلك على فقراء الطلبة، والعجزة، والأرامل من قرابته، وكان يقول: "والله لو عندي قوت يومي ما أخذت راتبًا من الجامعة، ولكنني مضطر، لا أعرف أشتغل بيدي، وأنا شايب ضعيف".

ولم يكن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبيع كتبه التي ألفها، وكان يقول: "عِلْم نتعب عليه ويباع وأنا حي؟ لا يمكن هذا، ولكن أنا أدفع العلم، وواحد يدفع الفلوس، ويوزع للناس مجانًا. وأنا أعلم أنه سيصل إلى من لا يستحقه، ولكن سيصل أيضًا إلى من لا يستطيع الحصول عليه بالفلوس".

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أبعد الناس عناية بالمظهر، وربما خرج بنعلين متغايرين أحدهما أحمر والآخر أخضر. ويروي الشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كنا طلابًا في المعهد

(١) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٨).
(٢) حلية طالب العلم (ص: ١٤٧)

العلمي في الرياض، وكنا جالسين في الفصل، فإذا بشيخ يدخل علينا إذا رأيته قلت: هذا بدوي من الأعراب، ليس عنده بضاعة من علم! ! رث الثياب، ليس عليه آثار الهيبة، لا يهتم بمظهره، فسقط من أعيننا، فتذكرت الشيخ عبد الرحمن السعدي، وقلت في نفسي: أترك الشيخ عبد الرحمن السعدي وأجلس أمام هذا البدوي؟ ! فلما ابتدأ الشنقيطي درسه انهالت علينا الدرر من الفوائد العلمية من بحر علمه الزاخر، فعلمنا أننا أمام جهبذ من العلماء، وفحل من فحولها، فاستفدنا من علمه، وسمته، وخُلقه، وزهده، وورعه" ا. هـ.

ومات الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولم يخلف شيئًا من حطام الدنيا، فرحمه الله رحمة واسعة[١].

٢- **الـــورع**: قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا شك أن المراد بهذا الحديث[٢] ونحوه الحث على الورع وترك الشبهات، فلو التبست مثلاً ميتة بمذكاة، أو امرأة محرم بأجنبية، وأفتاك بعض المفتين بحلية إحداهما لاحتمال أن تكون هي المذكاة في الأول، والأجنبية في الثاني، فإنك إذا استفتيت قلبك علمت أنه يحتمل أن تكون هي الميتة أو الأخت، وأن ترك الحرام والاستبراء للدين والعرض لا يتحقق إلا بتجنب الجميع؛ لأن ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه فتركه واجب، فهذا يحيك في النفس ولا تنشرح له، لاحتمال الوقوع في الحرام فيه كما ترى، وكل ذلك مستند لنصوص الشرع لا للإلهام[٣].

وكان السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يتورعون عن قولهم: هذا حلال وهذا حرام خوفاً من

---

(١) المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» (ص: ٣٠). وانظر: انظر: الدرّ الثمين، في ترجمة فقيه الأمة العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع وإعداد: عصام بن عبدالمنعم المري (ص: ٥١).

(٢) قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس». صحيح مسلم (٤/١٩٨٠).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٢٦).

هذه الآيات[١] [٢].

وفي مسألة النظر إلى النساء، ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الغالب على أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الورع وعدم النظر إلى النساء[٣].

٣- **الحيـــاء**: قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العبد الذي يستعين بنعم الله على معاصي الله أنه بلغ من اللؤم والوقاحة شيئاً لا يقادر قدره، فمن أعظم الناس لؤما، وأشدهم وقاحة، وأقلهم حياء هو من يستعمل نعم خالق السماوات والأرض التي أنعمها عليه يستعملها ويستخدمها في معصيته وفيما يسخطه. فهذا الإنسان ليس في وجهه ماء يستحي به، فهو من أقل الناس حياء وألأمهم وأخسهم، وكيف يجمل بعبد مسكين ضعيف أن ينعم عليه خالق السماوات والأرض نعمه الكثيرة بفضله ورحمته ثم يستعين بنعم خالقه على معصية خالقه وما يسخط خالقه، فهذا أقبح اللؤم وأخسه، وصاحبه أقل الناس حياء وأشدهم وقاحة"[٤].

ونبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ التشريع لا يكون إلا للأعلى الذي لا يمكن أن يكون فوقه آمر ولا ناه ولا متصرف، فهو للسلطة العليا، أما المخلوق الجاهل المسكين فليس له أن يحلل ويحرم، والعجب كل العجب من قوم كان عندهم كتاب الله ورثوا الإسلام عن آبائهم، وعندهم هذا القرآن العظيم، والنور المبين، وسنة خير الخلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يبين الله ورسوله كل شيء، ومع ذلك يعرضون عن هذا زاعمين أنه لا يحسن القيام بشؤون الدنيا بعد تطوراتها الراهنة، يطلبون الصواب في زبالات أذهان كفرة خنازير، لا يعلمون شيئا، هذا من طمس

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ ﴾ [النحل: ١١٦].

(٢) أضواء البيان (٢/ ٤٦٢).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٢٥٥).

(٤) العذب النمير (٣/ ٤٤٠).

البصائر، فالقرآن العظيم نور عظيم، وترى الواحد الذي هو مسؤول عنهم يعلن في غير حياء من الله ولا حياء من الناس بوجه لا ماء فيه، بكل وقاحة أنه يحكم في نفسه وفي الناس الذين هم رعيته الذين هو مسؤول عنهم يحكم في أديانهم، وفي أنفسهم، وفي عقولهم، وفي أنسابهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم، قانوناً أرضيا وضعه الكفرة، فهذا من طمس البصائر. واعلموا أن كل من يتعالم أمام الخالق جَلَّ وَعَلَا بلا حياء في وجهه أنه يعرض عما أنزل الله على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدعيا أنه لا يقدر أن يقوم بتنظيم علاقات الدنيا يطلب النور والهدى في زبالات أذهان خنازير كفرة فجرة جهلة في غاية الجهل، أنه هو وفرعون وهامان وقارون في الكفر سواء، لأنه لا يعرض عن الله، وعن تشريع الله، ويفضل عليه تشريع الشيطان، ونظام إبليس الذي شرعه على ألسنة أوليائه إلا من لا نصيب له في الإيمان بوجه من الوجوه، كما رأيتم الآيات الكثيرة الدالة على ذلك، وتعجيب الله نبيه من ادعاء مثله الإيمان. فعلى المسلمين جميعا أن يعلموا ويعتقدوا أنه لا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله، فمن سوى الله لا تحليل له ولا تحريم؛ لأنه عبد مسكين ضعيف مربوب، عليه أن يعمل بما يأمر به ربه، فيتبع ما يشرعه ربه[1].

ويؤكد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الله جَلَّ وَعَلَا حين بدأ بالأمر بغض البصر قبل الأمر بحفظ الفرج؛ لأن النظر بالبصر بريد الزنا، فقد يمتع الرجل عينه بالنظر إلى امرأة جميلة، فيستولي حبها على قلبه فيدغدغهما ذلك إلى الفاحشة، ولا سيما في هذا الزمان الذي نزعت فيه خشية الله من القلوب وانتشر فيه الفساد والإباحية، فلا تكاد ترى من يغض بصره حياء من الله وخوفاً منه إلا من شاء الله من القليل النادر[2].

٤ – **السخـــــاء**: قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن يكون عليه من الصفات الكريمة؛ من السخاء

(١) العذب النمير (٣/ ٤٤٠).
(٢) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٥٨).

والتضحية والمعاونة والشجاعة والصبر والشكر... إلى غير ذلك من أوصاف النفوس الحميدة، والنهي عن الأوصاف الخبيثة، كالعجب والرياء والحسد والكبر، وما جرى مجرى ذلك، فيأمره كيف يعامل زوجه وأولاده أكمل معاملة، ومن أوضح ذلك أنه يحذره أولا من ضرهم؛ لأن أولاده وزوجته قد يضيعون دينه، والله يقول:﴿ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ [المنافقون: آية ٩]، فإن الأولاد قد يحملون الرجل على بعض المخالفات، والمرأة قد يحمله خاطرها على بعض المخالفات، والله يقول:﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن: ١٤] فيأمرهم بالحذر أولاً من أن يوقعوهم فيما لا ينبغي، ثم إن الله يعلم أنه لا بد أن يقع منهم شيء يسوء الرجل، فبعد ذلك يأمره بالصفح والعفو عنهم، ويحذره أولاً منهم، ثم يأمره بعد الوقوع بالمعاملة الحسنة معهم: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤﴾ أي: وإن وجدتم ما لا يليق فقابلوهم بالصفح والعفو والرحمة، يأمر أولاً بالحذر خوفاً منهم، وثانياً بمعاملتهم بالإحسان إذا وقع منهم بعض الشيء[١].

وقد أمر الله المؤمنين إذا أساء إليهم بعض إخوانهم المسلمين أن يعفوا عن إساءتهم ويصفحوا. وقد دل القرآن على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثاً على ذلك، ودلّ أيضاً على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به. والعفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثاً عليه، والعفو والصفح على المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل[٢]. ويأمرنا الله

(١) العذب النمير (٢/ ٥٤٣).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٤٨٧).

جَلَّوَعَلَا بما نعامل به الأعداء، وما نعامل به الإخوان، فيقول جَلَّوَعَلَا:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الفتح: آية ٢٩]، فالمسلم رحيم بالمسلم، شديد على عدو المسلم، ومن صفات المسلم أن يكون ليناً هيناً على أخيه المسلم، وأن يكون غليظاً فظاً على أعدائه(١).

٥ – **الصـــــبر**: والصبر خصلة عظيمة يندرج فيها جميع خصال الإسلام. ومن سادات الصابرين: الصائمون؛ لأنهم صبروا لله عن شهوات بطونهم وفروجهم طاعة لربهم.

وقد ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن خصلة الصبر لا يعطاها إلا صاحب حظ عظيم وبخت كبير، والنصيب الأوفر، بفضل الله عليه، وتيسير ذلك له. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥]، وبين في موضع آخر أن جزاء الصبر لا حساب له، وهو قوله:﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠](٢). وبين أن العفو والصبر، خير وأحسن من المعاقبة بالمثل(٣). وأشار إلى أن الصبر خصلة من خصال الخير عظيمة، صرح الله في سورة فصلت أنه لا يعطيها لكل الناس، وإنما يعطيها لصاحب الحظ الأكبر، وهذه الخصلة التي هي الصبر لا يعلم جزاءها إلا الله(٤)، وذكر أن الصبر يتناول الصبر على طاعة الله وإن كنت كالقابض على الجمر، والصبر عن معصية الله وإن اشتعلت نار الشهوات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عند الصدمة الأولى، والصبر على الموت تحت ظلال السيوف(٥).

---

(١) العذب النمير (٢/ ٥٤٣).
(٢) أضواء البيان (١/ ٢١٩، ٢/٤٦٨).
(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٥٧).
(٤) العذب النمير (١/ ٤٦).
(٥) العذب النمير (١/ ٤٧).

ولما بين سحرة فرعون لفرعون أنهم ما فعلوا شيئا يستوجبون عليه تعذيبا سألوا الله سؤالين عظيمين: **أحدهما**: أن يعطيهم الصبر ويعينهم عليه. **والثاني**: أنه يثبتهم على إيمانهم وإسلامهم حتى يموتوا ويلقوه مسلمين؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [الأعراف: ١٢٦]، ومعناه: اصبب علينا صبراً من عندك. ونكّر الصبر هنا للإشعار بالتعظيم؛ أي: صبراً عظيما جميلاً، عظيما نواجه به تعذيب هذا الجبار(١).

والمؤمن عندما تأتيه البأساء والضراء يضرع إلى رب العالمين صابراً محتسباً فيثيبه الله، ويعظم له الأجور، وإذا كان وقت السراء وأنعم الله عليه كان شاكراً نعم الله، مراعيا بذلك حقوق الله جَلَّوَعَلَا ويكون ذلك خيراً له. وهذا أيضاً خير له(٢).

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المؤمنين سيبتلون في أموالهم وأنفسهم، وسيسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم إن صبروا على ذلك البلاء والأذى واتقوا الله، فإن صبرهم وتقاهم من عزم الأمور، أي: من الأمور التي ينبغي العزم والتصميم عليها لوجوبها.

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من جملة هذا البلاء؛ الخوف والجوع، وأن البلاء في الأنفس والأموال هو النقص فيها، وأوضح القرآن نتيجة الصبر المشار بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. ويدخل في الإيمان بالله جَلَّوَعَلَا الصبر عند الصدمة الأولى. وقد بين القرآن الكريم أن خصلة الصبر لا يعطاها إلا صاحب حظ عظيم وبخت كبير، وبين في موضع آخر أن جزاء الصبر لا حساب له(٣). والصبر سبب للفرج كما هو معروف(٤).

---

(١) العذب النمير (١/ ٩٤).
(٢) العذب النمير (١/ ٢٥٦).
(٣) أضواء البيان (١/ ٢١٨).
(٤) العذب النمير (٤/ ١٢٩).

ولتحقيق هذا الخلق العظيم، فقد ألقى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ محاضرة في الجامعة الإسلامية حثّ فيها طلبة العلم على الصبر وعلى التحمل، وعلى الأخلاق الحميدة، وأن يخلصوا الدعوة لله عز وجلّ في تعليمهم للمسلمين، وأنهم سيُؤْذَوْن في سبيل الله؛ لأنهم ورثة الأنبياء، والأنبياء أوذوا في دعوتهم(١).

وقد نبّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣]. إلى سؤال معروف، وهو أن يقال: إن قول أيوب المذكور في «الأنبياء» في قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ وفي «ص» :﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١]، يدل على أنه ضجر من المرض فشكا منه، مع أن قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤]، يدل على كمال صبره.

والجواب: أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه، لا شكوى ولا جزع(٢). والمؤمن عندما تأتيه البأساء والضراء يضرع إلى رب العالمين صابراً محتسباً فيثيبه الله، ويعظم له الأجور، وإذا كان وقت السراء وأنعم الله عليه كان شاكراً نعم الله، مراعياً بذلك حقوق الله، ويكون ذلك خيراً له. وهذا أيضا خيرٌ له، كما في الحديث(٣).

---

(١) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف (١/ ٤٦).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٣٨).

(٣) العذب النمير (١/ ٢٥٦). والحديث قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرا له» صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥).

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى جزى أولئك المؤمنين المستضعفين في الدنيا بالفوز بالجنة في الآخرة بسبب صبرهم في دار الدنيا، على أذى الكفار الذين اتخذوهم سخريا، وعلى غير ذلك من امتثال أمر الله، واجتناب نهيه(١).

٦- **الحريـــــة**: قرر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الركن الأكبر الذي هو توحيد الله بأنواعه، المستلزم إفراده بالعبادة وحده، هو منتهى التحرر من الرق والعبودية للمخلوقين(٢). ومن جملتهم النفس والهوى والشيطان(٣).

وذكر أن الشارع يتشوف تشوفاً شديداً للحرية والإخراج من الرق، فأكثر أسباب ذلك، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ وظهار ويمين وغير ذلك، وأوجب سراية العتق، وأمر بالكتابة، ورغب في الإعتاق ترغيبا شديدا، ولو فرضنا -ولله المثل الأعلى-

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٣٦١).

(٢) الحرية في الفكر الوضعي الغربي تعني أن ينعتق الإنسان من القيود التي كانت تفرضها عليه الكنيسة، ويتنازل المجتمع عن بعض حقوقه الطبيعية لسلطة مدنية تتولى تنظيم حياتهم، وهكذا تصبح الطاعة للقوانين التي اتفق عليها في العقد الاجتماعي مصدر حرية للفرد. أما الحرية في الإسلام فلا تعني حرية الإيمان وضده، وإنما المقصود هي تلك الحرية التي فيها خير الإنسان في الدنيا الذي يوصله بالآخرة لينال السعادة في عالم الغيب والشهادة، وهي مع ذلك تراعي المسلّمات العالمية التي لا تتعارض مع الشريعة السماوية، فهي حرية منفتحة وشاملة لما يحقق المصالح الدنيوية والأخروية. ولا خلاف أن التصور الغربي للحرية يتضمن قدراً مما يتوافق مع الإسلام، ولكن هناك مفارقة جوهرية بين التصور الوضعي الغربي، والتصور الإسلامي لمفهوم الحرية، فالحرية في الإسلام مصدرها الوحي، بعكس الحرية في المذاهب الوضعية الغربية التي نشأت في منأى عن الدين، وهذا الفرق جوهري، وهو ما ميّز الحرية في الإسلام وسما بها عن الحرية في الفلسفات الوضعية الأخرى، ولذلك حين تجردت المدرسة الوضعية من الأسس الدينية، بات مفهوم الحرية يتمحور حول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان على أساس الحقوق التي يستحقها الإنسان بوصفه إنساناً فقط. **انظر: موسوعة السياسة، الكيالي (٤/١٢٩)، والحريات العامة، العيلي (ص: ١٨)، وفضاءات الحرية، العميري (ص: ٤٧).**

(٣) منهج التشريع الإسلامي وحكمته (ص: ٥٨).

أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرق، وتشنع في ذلك على دين الإسلام قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان، ودبر عليها ثورة شديدة يريد بها إسقاط حكمها، وعدم نفوذ كلمتها، والحيلولة بينها وبين ما تريده من تنفيذ أنظمتها، التي يظهر لها أن بهما صلاح المجتمع، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة، ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه، فهو أشد سلبا لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل، والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذي شرعه ليسير عليه خلقه، فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة، والرخاء والعدالة، والمساواة في الحقوق الشرعية، وتنتظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسماها، فعاقبه الله هذه المعاقبة بمنعه التصرف، ووضع درجته وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك. فإن قيل: إذا كان الرقيق مسلما فما وجه ملكه بالرق؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال؟. **فالجواب**: أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء: أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها، فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع، وهو الحكيم الخبير، فإذا استقر هذا الحق وثبت، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقاً بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه، كما هو معلوم عند العقلاء، نعم، يحسن بالمالك ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه، وفتح له الأبواب الكثيرة، فسبحان الحكيم الخبير[1].

الشجاعـــة:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الهدى كل الهدى في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٠).

يكون عليه من الصفات الكريمة. ومن ذلك التضحية والمعاونة والشجاعة والصبر والشكر ... إلى غير ذلك من أوصاف النفوس الحميدة[١].

ويتفرع عن الشجاعة:

١ – **النجدة**[٢]، **والاستجارة**: وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]. ومعنى هذه الآية الكريمة: أن بعض المشركين إذا أراد أن يسمع ما يقوله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليفهم معنى ما ينزل عليه ويعرف الأوامر التي يأمر بها، والنواهي التي ينهى عنها، والأشياء التي يدعو إليها، ليستيقن في قرارة نفسه أهو حق فيتبعه أو يعلم أنه ليس بحق فيصد عنه، وطلب أن يجار، أن يؤمن، وألا يصل إليه أذى حتى يسمع القرآن، ويفهم ما أنزل على النبي؛ ليكون على بصيرة من أمره في الأخذ والترك، فإنه يجب أن يعطى ذلك الأمان حتى يسمع ويتلى عليه القرآن، ويفهم بما فيه من الزواجر والمواعظ، ثم بعد ذلك إن أسلم فبها ونعمت، وإن أصر على كفره وجب أن يرد إلى مأمنه وهو محل داره التي يأمن فيها[٣].

٢ – **الهمـــــة**: كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمتع بهمة عالية في طلب العلم، فلم يكن يُفَوِّت مسألة مما درس دون استيعاب وتمحيص، وإن كلَّفه ذلك جهودًا مضنية وأوقاتًا طويلة، وإليك

---

(١) العذب النمير (٥/ ٤٤٦).

(٢) في المجتمع الغربي لا يتحرك الإنسان لإسعاد غيره طالما لا توجد له مصلحة ما، ولذلك يحذّر (بنثام) من أن "نتوقع من الآخرين أن يقوموا بعمل غيري لا مصلحة لهم فيه، ويقول: لا تحلم قط بأن الناس سيحركون خنصر أصابعهم لخدمتك إلا إذا كانت منفعتهم بتصرفهم هذا واضحة أمامهم، إنهم لم يفعلوا ذلك قط ولن يقدموا على فعله في مقبل أيامهم طالما كانت طبيعتهم البشرية مصوغة من مادتها الراهنة، ولكنهم يقبلون على خدمتك مختارين متى كان في ذلك تحقيق لخدمة أنفسهم، وما أكثر الفرص التي يمكنهم فيها أن يخدموا أنفسهم من خلال خدمتهم لك". **انظر: مذاهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، د. توفيق الطويل (ص: ١٠٠)**.

(٣) العذب النمير (٥/ ٢٧٩).

هذه الواقعة. يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "جئت للشيخ في قراءتي عليه، فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت، ولم يرو لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس، وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهرًا، فأخذت الكتب والمراجع، فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي، فعاودت حتى المغرب، فلم أنته أيضًا، فأوقد لي خادمي أعوادًا من الحطب أقرأ على ضوئها، كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسي وزال عني لبسي، ووجدت هذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم" .

هكذا كان يصنع رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما يعرض له إشكال، بالإضافة إلى ما كان يكابده من سهر في تتبُّع كلام الشُّرَّاح للكتاب الذي يشتغل بدراسته طلبًا لاستيفاء كل ما قيل في المسألة أو الباب[1].

وقد فصل الله جَلَّوَعَلَا في القرآن الكريم كل شيء، وبين فيه أصول كل شيء، فأوضح فيه العقائد، ومكارم الأخلاق، والخروج من الشبهات، ورفع فيه الهمم، وبين أصول الحلال والحرام، وأصول المواعظ وجميع الأشياء[2].

العـــــــدالة:

تطرق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع العدل إلى مسألة تعدد الزوجات، وأشار إلى موضوع العدل في ذلك، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فنبين حكمة تعدد الزوجات، وأن الذين أنكروا ذلك وعابوه على دين الإسلام كفرة ملاحدة طمس الله بصائرهم بظلام الكفر -والعياذ بالله- فالله

(١) انظر: أضواء البيان (٩/ ٤٨٦)، و المدخل إلى مشروع «آثار الشيخ الشنقيطي» طليعة أضواء البيان (ص: ٢٢). وانظر: مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٣٧). وترجمة الشيخ في مقدمة العذب النمير .

(٢) العذب النمير (٣/ ٣١٧، ٣٣٦).

جَلَّ وَعَلَا أباح للرجل أن يجمع أربع زوجات بشرط أن يقدر على العدل بينهن، وقد بين القرآن أن العدل بينهن قسمان: عدل ممكن، وعدل غير ممكن. أما العدل الممكن بين الزوجات: فهو تسويتهن في الحقوق، وإنصاف بعضهن من بعض في اللوازم اللازمة، فهذا ممكن يقدر كل أحد عليه، وهذا الذي نهى الله عن الميل فيه. وعدل بينهن ليس تحت طاقة البشر ولا يقدر عليه، وهو المساواة بينهن في المحبة الطبيعية والميل النفساني[1]. فالله جَلَّ وَعَلَا أباح للرجل أربع زوجات بشرط قدرته على العدل بينهن في الحقوق الشرعية، وإن كان الميل الطبيعي والمحبة النفسانية ليس بيده، إلا أن المساواة بالحقوق الشرعية هي في مقدوره، فإن كانت هذه أحب إليه طبيعة، وهو أميل إليها بالمحبة، فإنه يمكنه أن يسوي بينها وبين الأخرى، وينصف بينهما في الحقوق الشرعية كمال الإنصاف كما لا يخفى. فإذا كان الإنسان لا يقدر على العدل بينهن يلزمه الاقتصار على واحدة؛ لأن غير العدل جور والجور لا يؤذن فيه في الشرع الكريم، أو ما ملكت يمينه من الإماء، وقد نص الله على هذا بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النساء: ٣]. أي: لا تجوروا في الحقوق. وكونه جَلَّ وَعَلَا أباح للرجل جمع أربعة وحرم عليه الخامسة فما فوقها، وجعل ذلك بشرط العدل، هذا تشريع الحكيم الخبير، تشريع خالق السماوات والأرض، الذي هو أعلم بالمصالح، وأعلم من خلقه؛ لأن الأربع وسط بين القلة والكثرة، فهي دون الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الجميع، وهي فوق القلة التي هي مظنة تعطل بعض حقوق الرجل[2].

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾ [الأنعام: آية ١٥٢]: هذه الآية عظيمة جدا، وهي من الآداب الاجتماعية

(١) وسيأتي الحديث عنه –إن شاء الله– عند الحديث عن قيمة المودة والمحبة.
(٢) العذب النمير (٤/٤٠٥).

العامة، البالغة في العظمة، وهي تشمل أشياء كثيرة، إذا كنت تشهد بحق فلا تشهد عند القاضي إلا بعدل، واخش شهادة الزور لأجل قريب، أو رشوة أو غير ذلك، وإذا كنت قاضيا فلا تقل إلا الحق، واحذر أن تميل لقرابة أو لغرض أو رشوة، وإذا كلمت أخاك المسلم فلا تقل إلا عدلا، ولا تقل له شيئا يؤذيه، ولا تكذب عليه، وإذا حدثت عن قصة ماضية فلا تقل إلا عدلا ولا تكذب، وإذا حدثت عن الله فلا تقل في صفاته إلا اللائق الكريم، وإذا قلت في كل قول فلا تقل إلا أمراً كريماً عدلا. ومن حفظ لسانه وكان لسانه معتدلا لا يقول إلا ما يرضي الله فإن هذا من أحكم الآداب الاجتماعية التي يطفأ بها الشرر العظيم المتفشي في المجتمع؛ لأن أكثر الأضرار الاجتماعية هي جنايات اللسان، وعدم اعتداله في قوله، فيقول على هذا ما لم يفعل، ويلمز هذا بما يؤذيه، ويشهد على هذا بالزور، ويحكم على هذا بالباطل، فإذا كان يزن قوله بميزان الشرع ولا يقول إلا عدلا، كان هذا من أعظم الآداب الاجتماعية، وأكثر المنافع للمجتمع وأعظمها تفاديا لكثرة الأضرار الناشئة عن عدم العدل في القول؛ ولذا قال **جَلَّ وَعَلَا**: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ يعني: لا تحملك قرابة أحد على أن لا تعدل في القول فتشهد له بباطل لقرابته، أو تشهد على خصمه بما يؤذيه، أو تشهد على الشاهد لخصمه إن جرحه، أو نحو ذلك، فلا تحملنك القرابة أن تقول إلا عدلا، ولا يصدر منك كلام إلا على الحق والعدل المطابق لما يرضي الله، ولا يحملك أيضا أن هذا فقير وهذا غني، فتشهد على الغني رحمة بالفقير، أو تكتم الشهادة على الفقير رحمة به للغني لا تفعل هذا، فقل الحق على بابه كائنا من كان على القريب وعلى الفقير وعلى الغني[1].

ويتفرع عن العدالة:

١- **الصداقة:** ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العرب كثيراً ما تطلق اسم الأخ على

(١) العذب النمير (٢/ ٥١٨).

الصديق والصاحب، ومن إطلاقه على الصاحب، قول القلاخ بن حزن[١]:

أخا الحرب لباسا إليها جلالها .. .. وليس بولاج الخوالف أعقلا[٢]

فقوله: «أخا الحرب» يعني صاحبها. ومنه قول الراعي، وقيل لأبي ذؤيب:

عشية سعدى لو تراءت لراهب .. .. بدومة تجـــــر دونه وحجيج

قلى دينه واهتاج للشوق إنهـــا .. .. على النأي إخوان العزاء هيوج[٣]

فقوله: «إخوان العزاء» يعني أصحاب الصبر[٤].

والعرب تقول: صديق ملاطف. إذا كان يلاطفك بالبر والإحسان والإكرام. وسئل بعض علماء العربية عن: (صديقك الملاطف) ما معنى كونه ملاطفاً لك؟

أجاب: بأن الصديق الملاطف ينطبق عليه قول الراجز:

إن أخاك الحق من يسعى معك .. .. ومـــــن يضر نفسه لينفعك

ومـــن إذا ريب الزمان صدعك .. .. شتت فيك شمله ليجمعك[٥]

ويطلق المولى على الصديق، وعلى كل من بينك وبينه ولاية كائنة ما كانت[٦].

٢- **الألفـــــة:** نبّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنّ الخلاف في المسائل البسيطة لا ينبغي أن يكون سببًا للتفكك، وعدم المساعدة، والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يختلفون في بعض

---

(١) القلاخ بن حزن المنقري، شاعر إسلامي مجيد مقل. انظر: شرح ديوان الحماسة، للتبريزي (١/ ٤٢٧)، والمؤتلف والمختلف، للدارقطني (٤/ ١٨٦٤).

(٢) خزانة الأدب (٨/ ١٥٧).

(٣) ديوان الراعي النميري (ص ٢٤)

(٤) أضواء البيان (٤/٣٤١-٣٤٣).

(٥) الرجز في المستطرف للأبشيهي (١/ ١٣٦)، وينسب لعبد الملك بن مروان، ونسبه ابن خميس في الشوارد (٢/ ٧٦) إلى القرشي، وفي جمهرة الأمثال للعسكري (١/ ٥٨) بلا نسبة.

(٦) العذب النمير (٢/ ٥٩، ٥/ ٥٦٠).

المسائل، ولا يؤثر هذا على الاتحاد والجماعة، والأئمة الأربعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأحمد يختلفون في بعض المسائل، وذلك لا يؤثر على الألفة والاتحاد؛ لأن اختلاف وجهات النظر في الفروع لا يؤثر، ولا يتخذه سببًا للافتراق إلّا الجهلة، أما أهل العلم فهذا لا يؤثر عندهم، ولا يفكّك الأخوة الإسلامية السامية[1].

٣- **صلة الرحم**: قال بعض أهل هذا القول: المراد بذوي الأرحام العصبة خاصة، قالوا: ومنه قول العرب: وصلتك رحم، يعنون قرابة الأب دون قرابة الأم، ومنه قول قتيلة بن الحارث، أو بنت النضر بنت الحارث:

ظلت سيوف بني أبيه .. .. تنوشه لله أرحام هناك تشقق[2]

فأطلقت الأرحام على قرابة بني أبيه، والأظهر على القول بعدم التوريث، أن المراد بذوي الأرحام القرباء، الذين بينت حقوقهم بالنص مطلقا[3].

وضابطهم: أنهم الأقارب الذين لا فرض لهم ولا تعصيب، وهم أحد عشر حيزا: أولاد البنات، وأولاد الأخوات، وبنات الإخوة، وأولاد الإخوة من الأم، والعمات من جميع الجهات، والعم من الأم، والأخوال، والخالات، وبنات الأعمام، والجد أبو الأم، وكل جدة أدلت بأب بين أُمّين، أو بأب أعلى من الجد.

فهؤلاء، ومن أدلى لهم يسمون ذوي الأرحام[4].

وفي قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[الأعراف: ١٥٧]. قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المعروف): هو كل ما عرفه الشرع وكان منه. ومن المعروف: صلة الأرحام، ومكارم

---

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ١٠٥).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢)، وبلاغات النساء، طيفور (ص ١٦٩).
(٣) أضواء البيان (٢/١٠٦).
(٤) أضواء البيان (٢/١٠٨).

الأخلاق، وغير ذلك مما جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وقد بيّن القرآن أن جميع الروابط تتلاشى أمام الرابطة السماوية ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢]. إذ لا رابطة نسبية أعظم من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر، وقد رأيت تلاشيها أمام رابطة الإيمان، فالدين الإسلامي مع ذلك لا ينكر أصل الروابط، ولا يريد إذابة الأسرة النسبية وأواصر القرابات، فقد خصص بالميراث القرباء مراعاة لتلك الرابطة، وأوجب صلات الأرحام وشدد في قطعها مراعاة لتلك الرابطة، ولا ننكر أن الله جَلَّ وَعَلَا قد نفع بعض رسله الكرام بعصبيات نسبية لا تَمُتُّ إلى الدين بصلة، وجعل لذلك آثارًا حسنة على الإسلام وأهله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦] يعني آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب وذلك بعصبة نسبية لا تمت إلى الدين بصلة، وقد بين الله لنبيه أن ذلك منَّة منه عليه، ومن آثار تلك القرابة النسبية قول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهـــم .. .. حتى أوسد في التراب دفينا[2]

فقد عرف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه القرابة النسبية لبني المطلب بن عبد مناف، فإنهم ناصروا الهاشميين مناصرة عصبية لا دينية كما هو معلوم؛ ولذلك لما قسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمس غنيمة خيبر جعل نصيب ذي القربى من الخمس لبني هاشم وبني المطلب.. وقد نفع الله بالرابطة النسبية نبيه شعيبًا ونبيه صالحًا، ولما كان لوط ليس له في قومه عصبة ظهر فيه أثر ذلك حتى قال ذلك الكلام المحزن: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ ﴾[هود: ٨٠].

---

(١) العذب النمير (٤/٢٠٩).

(٢) خزانة الأدب (٣/ ٢٩٦)،

فالإسلام هو رابطتنا الحقة التي تجعلنا كالجسد الواحد، ولا ينافي ذلك أن لكل منا بعض الروابط الخاصة في حدود الدين الحنيف، فإذابة معنى الأسرة إذابة كلية أقرب إلى الشيوعية منه إلى الإسلام، أما رابطة الإسلام فهي التي يُنادى بها، ولا يجوز أن يُنادى بغيرها محاولة للقضاء على الروابط السماوية التي هي الرابطة حقًّا، وكل تضامن يخالفها فهو باطل، والله تعالى يقول:﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] أي: لئلا يتعصب كل شخص(١).

٤- **ترك الحقد، ومكافأة الشرّ بالخير**: الله جَلَّوَعَلَا يوم القيامة ينزع من صدور المؤمنين في الجنة جميع الأحقاد، فلا يكون هنالك أحد يضمر حقداً لأخيه، ولا بغضاً، ولا حسداً، ولا غشاً، بل ليس بينهم إلا التواد الكامل، والتعاطف والتناصح، يحب بعضهم بعضا، ومن آثار ذلك أن منازلهم متفاوتة ينظر بعضهم منازل بعض فوقه كما ننظر النجم في السماء، ومع ذا لا يحسده على ارتفاع منزلته عليه، بل هو يحبه(٢).

وقد بين جَلَّوَعَلَا أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وما يقوله أهل الجنة من حمد الله، والثناء عليه للتوفيق، والغبطة بالخلود، ونزع الأحقاد والغلال التي كانت بينهم، لما بيّن هذا كله؛ بيّن أن أهل الجنة ينادون أهل النار كالموبخين على نوع من التوبيخ والشماتة بهم؛ لأنهم كانوا يكذبون في الدنيا بالنار والجنة(٣).

ومن أعظم كمال اللذات حيث يكون الإنسان خالداً مخلداً، وحيث يكون هو وإخوانه ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء، ولا عداوة، ولا حقد، ولا

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٩٢).
(٢) العذب النمير (٣/ ٢٦١).
(٣) العذب النمير (٣/ ٢٧١).

حسد، ولا مخاصمة، وكل هذا من كمال النعيم(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢]. الأمر من الله للمؤمنين إذا أساء إليهم بعض إخوانهم المسلمين أن يعفوا عن إساءتهم ويصفحوا. والمعنى: فليطمسوا آثار الإساءة بحلمهم وتجاوزهم، والصفح: قال بعض أهل العلم مشتق من صفحة العنق، أي: أعرضوا عن مكافأة إساءتهم حتى كأنكم تولونها بصفحة العنق، معرضين عنها. وما تضمنته هذه الآية من العفو والصفح جاء مبينا في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثاً على ذلك، ودلت أيضا: على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به. والعفو والصفح على المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل(٢).

وأشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع العفو إلى تعافي الزوجين فيما بينهما، كما في نصف الصداق اللازم، للزوجة بالطلاق، قبل الدخول. ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن؛ لأن الله شرعه في كتابه في قوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ مع أنه رغب كل واحد منهما، أن يعفو للآخر عن نصفه، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقد قال تعالى:﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، ثم أرشد إلى الأحسن بقوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ

(١) العذب النمير (٣/ ٢٦٤).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٤٨٧).

قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثم أرشد إلى الأحسن، في قوله: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾[١].

٥- **استعمال اللطف**: أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن اللطف أصله في لغة العرب: هو إيصال النفع والإكرام والبر بالطرق الخفية[٢]. فكل ما يوصل إليك النفع والبر والإحسان فإنه لطيف بك. والعرب تقول: "صديق ملاطف"، إذا كان يلاطفك بالبر والإحسان والإكرام. والصديق الملاطف هو ما أشار إليه الشاعر بقوله:

إن أخاك الحق من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

فعلى كل حال اللطف: إيصال البر والإكرام والإحسان. وكثيرا ما يطلق على إيصاله بالطرق الخفية التي لا يعلمها كل الناس.

والله جَلَّوَعَلَا لطيف بخلقه، محسن إليهم، يدرك حقائقهم، ولا يخفى عليه منهم شيء، لطيف إليهم، محسن برّ بهم، يوصل لهم طرق الإكرام والبر والإحسان من حيث لا يشعرون[٣].

وقد نقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة الإنكار على السلطان كلام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيه: "واعلم أن الحديث الصحيح قد بين أن أحوال الرعية مع ارتكاب السلطان ما لا ينبغي ثلاث: الأولى: أن يقدر على نصحه وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، من غير أن يحصل منه ضرر أكبر من الأول، فآمره في هذه الحالة مجاهد سالم من الإثم ولو لم ينفع نصحه، ويجب أن يكون نصحه له بالموعظة الحسنة مع اللطف؛ لأن ذلك هو مظنة

(١) أضواء البيان (٦/ ٣٥٨)، المثل العليا في الإسلام (ص: ١٣٤).
(٢) المفردات (مادة: لطف) (ص٧٤٠)، الكليات (ص: ٧٩٧).
(٣) العذب النمير (٢/٥٩).

الفائدة"[1].

السماحة:

وصف الشيخ أحمد بن محمد الأمين بن أحمد بن المختار الجكنيّ الشنقيطي (المتوفى: ١٤٣٤ هـ)، مجالس الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: " والناظر المتفحص لهذه المجالس تتجلى له هذه الظاهرة البيئية عن المجتمع الديني المحيط بشيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما كان عليه أهل الفضل والعلم في زمنه من التواصل والمباسطة، وما تحلوا به من السماحة وآداب المباحثة وأخلاق الحوار الراقية؛ تتجلى وتضيء بلا خفاء. فرحم الله تلك المجالس العامرة ورحم عمارها"[2].

الكـــــــــرم:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يؤخذ من قصة إبراهيم مع ضيفه هؤلاء أشياء من آداب الضيافة: منها تعجيل القرى؛ لقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ ﴾ [هود: ٦٩]. ومنها كون القرى من أحسن ما عنده؛ لأنهم ذكروا أن الذي عنده البقر وأطيبه لحما الفتي السمين المنصح. ومنها تقريب الطعام إلى الضيف. ومنها ملاطفته بالكلام بغاية الرفق، كقوله ألا تأكلون"[3].

وقد ذبح إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عجله، وتعب هو وامرأته في إنضاج العجل، ولم يدر أن ضيفه ملائكة حتى قدم العجل المنضج إلى الملائكة، ولما رآهم لا يمدون إليه أيديهم نكرهم وخاف منهم[4].

---

(١) أضواء البيان (١/ ٤٦٦).

(٢) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٧).

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٨٦).

(٤) العذب النمير (٢/ ٤٠).

ومن إكرام الضيف؛ تهيئة النُزل له. و«النزل» هو ما يقدم للضيف عند نزوله، والقادم عند قدومه[١]. وقد أورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصة الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، أمها حليمة السعدية، أخت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، حين كانت في السبايا التي جيء بها إليه، وكانت تقول لهم: "مهلا علي لا تزعجوني فإني أخت صاحبكم من الرضاعة". فلما جاءت أخبرت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسألها عن العلامة فقالت له: "عضة عضضتنيها في كتفي وأنا متوركتك". فعرف صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وأكرمها غاية الإكرام، وخيرها أن تبقى معه محبة مكرمة أو أن يردها إلى أهلها ويمتعها. فاختارت الرد إلى أهلها فمتعها[٢].

وقد تطرق الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصفه لكرم قبيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فذكر أنها سجية في جميعهم، وأمرٌ يشب فيه الصغير، ويشيب عليه الكبير. وقد ألفوا الضيف لنجعة منازلهم. ومن عاداتهم إذا نزل وفد على بيت فإن أهل هذا المنزل يرسلون لأهل بيت المضيف حتى لو كان معدماً غداً واجداً، ويرحل الوفد وهو في غاية الرضا[٣].

الإيثار:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الرجل يترقب النقص في حياته، فإنه يبذل دائما النفقات في صدقات الزوجات، والإنفاق عليهن، وفي مؤن الجهاد، وفي نوائب الدهر، فهو غارم باذل دائما، والمرأة تترقب طول حياتها الزيادة، وأن يملأ كيسها، تترقب رجلاً يدفع لها مالاً كثيراً

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٤٩).
(٢) العذب النمير (٥/ ٣٩٦). وانظر قصة الشيماء في مغازي الواقدي (٣/ ٩١٣).
(٣) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٣٠)، جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف (١/ ٣٠).

في صداقها، ويقوم بجميع مؤنها ولوازمها في الدنيا، فهي تترقب الزيادة دائما، والرجل يترقب النقص دائما. فلما كان الحكيم الخبير أراد أن يقسم عليهما الميراث آثر مترقب النقص دائما على مترقب الزيادة دائما جبرا لبعض نقصه المترقب؛ ولذا تجد الرجل وأخته، تجد أخته تدفع لها الأموال الكثيرة في صداقها، ويقوم غيره بنفقاتها وكل ما يلزم لها، والرجل أخوها الآخر هو الذي يبذل ما عنده في نفقات زوجاته ومهورهن، ونوائب الدهر، ومعونات الجهاد، وغير ذلك.

وإذا وجدنا من يقسم على اثنين أحدهما يترقب النقص دائما، والثاني يترقب الزيادة دائما، فآثر مترقب النقص دائما على مترقب الزيادة دائما جبرا لبعض نقصه المترقب لقلنا له: إن إيثارك لهذا وزيادتك لهذا عن هذا واقعة موقعها عن حكمة بالغة، ووضع أمر في موضعه، وإيقاعه في موقعه، ولهذا كان جَلَّ وَعَلَا يفضل في الميراث الذكر على الأنثى؛ لأن الذكر باذل يبذل في مهور الأزواج وفي نفقاتهن وفي نفقات الأولاد، وفي مؤن الجهاد وغير ذلك من وجوه البر[1].

وحقيقة الإيثار على النفس هو بذل المال للغير عند حاجته مقدماً غيره على نفسه[2][3].

---

(١) العذب النمير (٣/ ٣٢٣).

(٢) أضواء البيان (٨/ ٤٣).

(٣) تطرق الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى إيثار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: "وقد وجدت منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ العناية والرعاية كأحد أبنائه كأشد ما يرعى الوالد ولده، وقد أجد منه الإيثار على نفسه في كثير من أحيانه، مما يطول ذكره، ولا ينسى فضله. وأعز من الإيثار ما منحني من العلوم والآثار، والتوجيه الأدبي، والفضل الخلقي، والسمو النفسي، في مجالسه وأحاديثه، ودروسه من غير ما حد وبدون تقيد بوقت، إذ كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ كل مجالسه مجالس علم، وكل أحاديثه أحاديث أدب وتوجيه، ولم يكن يحتاج إلى تحضير لدرس، ولا مراجعة لجواب على سؤال. انظر: ترجمته لشيخه في أضواء البيان (٩/ ٤٧٧)، وكتابه: مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٢٦).

المواســـــــاة:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إيجاب الدية على العاقلة ليس من تحميلهم وزر القاتل، ولكنها مواساة محضة أوجبها الله على عاقلة الجاني؛ لأن الجاني لم يقصد سوءاً، ولا إثم عليه البتة فأوجب الله في جنايته خطأ الدية بخطاب الوضع، وأوجب المواساة فيها على العاقلة، ولا إشكال في إيجاب الله على بعض خلقه مواساة بعض خلقه، كما أوجب أخذ الزكاة من مال الأغنياء وردها إلى الفقراء، واعتقد من أوجب الدية على أهل ديوان القاتل خطأ كأبي حنيفة وغيره أنها باعتبار النصرة فأوجبها على أهل الديوان، ويؤيد هذا القول ما ذكره القرطبي في تفسيره، قال: " وأجمع أهل السير والعلم: أن الدية كانت في الجاهلية تحملها العاقلة، فأقرها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإسلام، وكانوا يتعاقلون بالنصرة ثم جاء الإسلام فجرى الأمر على ذلك[1].

وذكر أن الحكمة في الزكاة مواساة المحتاج؛ لأنها رديفة للصلاة في القرآن، والأظهر أنه أعم من الزكاة، أنهم ينفقون مما رزقهم الله النفقة الواجبة وغيرها من النفقات المستحبات المرغب فيها من مواساة الفقراء، وصلات الأرحام، ونحو ذلك[2].

المسامحـــة، والعفـو، والصفـح:

يقرر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة مهمة وهي أن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة والمساهلة، وحقوق الآدمي مبنية على الشح والتضييق؛ ولأن حق الآدمي تلزمه غرامته، وحق الله لا عوض له[3].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٦٥).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٤٨٠). قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منهج التشريع الإسلامي (ص: ٥٨) :"وأما الزكاة، فهي مواساة كريمة للفقراء والمحاويج".

(٣) أضواء البيان (١/ ٦٨).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العفو: أن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك[1]. والعفو: هو ما تسهل لك من أخلاق الناس[2]. وقد بين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ [النور: ٢٢] أن أصل العفو: من عفت الريح الأثر إذا طمسته، والمعنى: فليطمسوا آثار الإساءة بحلمهم وتجاوزهم، والصفح: قال بعض أهل العلم مشتق من صفحة العنق، أي: أعرضوا عن مكافأة إساءتهم حتى كأنكم تولونها بصفحة العنق، معرضين عنها. وما تضمنته هذه الآية من العفو والصفح جاء مبينا في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤]، وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ والعفو عن الناس من صفات أهل الجنة، وكفى بذلك حثا على ذلك، ودلت أيضا: على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله المتصفين به، وكقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾ [النساء: ١٤٩]، وقد بين تعالى في هذا الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثاً عليه، وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ ﴾ [النور: ٢٢]، دليل على أن العفو والصفح على المسيء المسلم من موجبات

(١) العذب النمير (٤/ ٤٣٧).
(٢) العذب النمير (٤/ ٤٣٨).

غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل، ولذا لما نزلت قال أبو بكر: " بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه "[1] [2].

ودعا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة:٢٣٧]، إلى النظر إلى ما في هذه الآية من الحض على مكارم الأخلاق من الأمر بالعفو والنهي عن نسيان الفضل[3]. وبيّن عند وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ما ينبغي أن يعامل به الجهلة من شياطين الإنس والجن. وأن شيطان الإنس يعامل باللين، وأخذ العفو، والإعراض عن جهله وإساءته، وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة بالله منه[4].

وذكر أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ ﴾[النحل: ١٢٦]، نزلت بالمدينة في تمثيل المشركين بحمزة ومن قتل معه يوم أحد، فقال المسلمون: "لئن أظفرنا الله بهم لنمثلن بهم"[5]. فنزلت الآية الكريمة، فصبروا لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ ﴾ مع أن سورة النحل مكية، إلا هذه الآيات الثلاث من آخرها. والآية فيها جواز الانتقام والإرشاد إلى أفضلية العفو[6].

وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩ ﴾ [الزخرف: ٨٩]. تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة أمور:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيح (٣/ ١٧٣).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٤٨٥).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٥٠) .
(٤) أضواء البيان (٢/ ٤٧) .
(٥) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٦).
(٦) أضواء البيان (٢/ ٤٦٦).

الأول: أمره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصفح عن الكفار[1].

والثاني: أن يقول لهم سلام.

والثالث: تهديد الكفار بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار.

وأما الصفح، فهو: الإعراض عن المؤاخذة بالذنب. قال بعضهم: وهو أبلغ من العفو. قالوا: لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العنق، فكأنه يولي المذنب بصفحة عنقه معرضا عن عتابه فما فوقه. وقد بين جَلَّ وَعَلَا أنه هو شأن عباده الطيبين[2].

وفي بيان أحوال الاجتماع بين المجتمع، ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن في هذه المسألة قد شفى الغليل، وأنار فيها السبيل، فنبّه المرء على الحذر والحزم من مجتمعه الخاص به، وأمره إن عثر على ما لا ينبغي أن يعفوا ويصفح، فيأمره أولا بالحزم والحذر، وثانيا بالعفو والصفح. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا

(١) المتتبع لسيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه من بعده، سيجدها مليئة بنماذج لسماحة الدين الإسلامي، وتسامح المسلمين مع غيرهم، ومن ذلك موادعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليهود المدينة وكفالته لحقوقهم ما وفّوا ولم يخونوا. وقد استوقفت المفكر (إسرائيل ولفنسنك) سماحة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين غنم المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتسليمها لهم، مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكر بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم سنة (٧٠م)، إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة، هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب، د. إسرائيل ولفنسون (ص: ١٧٠).

(٢) أضواء البيان (١٦٩/٧).

لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التغابن: ١٤] (١).

وقد أمر الله جَلَّوَعَلَا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾[الحجر: ٨٥]، أن يصفح عمن أساءَ الصفح الجميل، أي: بالحلم والإعضاء. وقال علي وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: "الصفح الجميل؛ الرضا بغير عتاب"(٢). وأمره صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يشمل حكمه الأمة؛ لأنه قدوتهم والمشرع لهم. وبين تعالى ذلك المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩](٣).

ومن مُثل الإسلام العليا: أنه يشرع فيه الحَسَن ثم يرشد فيه أيضًا إلى ما هو أحسن منه، فالانتقام من الظالم حَسَن بين تعالى حُسْنه، ومعلوم أن انتصاف المظلوم من الظالم حَسَن، ثم أرشد إلى ما هو أحسن بالعفو والتجاوز، فهو أحسن من الانتقام. وبين جَلَّوَعَلَا أن جزاء سيئة سيئة مثلها، ثم أرشد إلى ما هو أحسن منه وهو العفو، وأن الانتصار بعد الظلم حسن، وما هو أحسن منه الصبر، وأن الله جَلَّوَعَلَا لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم، ثم أرشد إلى ما هو أحسن منه وهو العفو عن السوء، وبيّن جَلَّوَعَلَا أن الجروح قصاص، ثم أرشد إلى ما هو أحسن بقوله: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وإنظار المعسر إلى الميسرة حَسَن وإبراؤه من الدَّين أحسن منه، وأَخْذ كلِّ واحد من الزوجين نصف المهر في حالة الطلاق من قبل الدخول حَسَن، وعفو كل واحد منهما عن الآخر في نصفه حسن، وقد أرشد الله إليه بقوله:

(١) مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٢١).
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٥/ ٩٤).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٣١٣).

﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ثم نهى عن نسيان هذا الفعل الكريم بقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧][(١)].

مساعدة المحتاجين والفقراء:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن خالق السماوات والأرض جَلَّوَعَلَا يدبر على البعض من البعض، ويأمر البعض بمساعدة البعض، إكراما وجرياً على مكارم الأخلاق، كما أمر بأن تؤخذ الزكاة من أغنيائنا وتُردُّ على فقرائنا، فهذه إعانة محضة، ومكارمُ أخلاقٍ جاء القرآن بها معاونة لذلك الإنسان، كما أوجب الزكاة مساعدة للفقير، وما جرى مجرى ذلك[(٢)].

ويرى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إعطاء ابن السبيل المتغرب عن أوطانه من الزكاة، من محاسن دين الإسلام، ومن مكارم الأخلاق[(٣)].

الإحسان:

عند قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾[النساء:٣٦]. علّق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: "فانظر إلى هذا من مكارم الأخلاق، والأمر بالإحسان إلى المحتاجين والضعفاء"[(٤)].

ومن الآيات التي أمر فيها بالإحسان قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥]، وقوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء:٣٦]، وقوله: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [القصص:٧٧]، وقوله: ﴿مَا عَلَى

(١) المثل العليا في الإسلام (ص: ١٣٣).
(٢) العذب النمير (٢/ ٦٣٤).
(٣) العذب النمير (٥/ ٥٩٧).
(٤) العذب النمير (٣/ ٥٠) .

ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة:٩١] [١].

وفي الإحسان إلى المساكين ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ينبغي لصاحب الحائط إذا أراد الجذاذ ألا يمنع المساكين من الدخول، وأن يتصدق عليهم؛ لقوله تعالى في ذم أصحاب الجنة المذكورة في سورة القلم: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ الآيات [القلم:١٧] [٢].

ومن الآيات التي أمر فيها بإيتاء ذي القربى قوله تعالى:﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم ٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات[٣].

وفي قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:٩٠]. ذكر جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية الكريمة: أنه يأمر خلقه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وأنه ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ لأجل أن يتعظوا بأوامره ونواهيه، فيمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه. وحذف مفعول «يأمر» ، «وينهى»؛ لقصد التعميم[٤].

ومن الآيات التي جمع فيها بين الأمر بالعدل والتفضل بالإحسان، قوله تعالى:﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ﴾ [النحل:١٢٦]، فهذا عدل، ثم دعا إلى الإحسان بقوله:﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦]، وقوله: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى:٤٠]،

(١) أضواء البيان (٢/٤٣٦).
(٢) أضواء البيان (١/٥٢٠).
(٣) أضواء البيان (٢/٤٣٦).
(٤) أضواء البيان (٣/٥٠).

وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:٤٥]، فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾[المائدة:٤٥]، وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى:٤١]، فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[الشورى:٤٣]، وقوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[النساء:١٤٨]، فهذا عدل. ثم دعا إلى الإحسان بقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩] ، إلى غير ذلك من الآيات [١].

وفي الأمر بالإحسان إلى الوالدين، قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء:٢٣]، أمر جَلَّوَعَلَا في هذه الآية الكريمة بإخلاص العبادة له وحده، وقرن بذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين. وجعله بر الوالدين مقرونا بعبادته وحده جَلَّوَعَلَا المذكور هنا ذكره في آيات أخر.. وبين في موضع آخر أن برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما .. وذكره جَلَّوَعَلَا في هذه الآيات بر الوالدين مقرونا بتوحيده جَلَّوَعَلَا في عبادته، يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين. وجاءت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلك أحاديث كثيرة[٢]. وقوله جَلَّوَعَلَا في الآية المذكورة: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، بينه بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾[الإسراء:٢٣]؛ لأن هذا من الإحسان إليهما المذكور في الآيات[٣].

(١) أضواء البيان (٢/٤٣٦) .
(٢) أضواء البيان (٣/٨٥) .
(٣) أضواء البيان (٣/٨٥) .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ معناه: أمر وألزم، وأوجب ووصى ألا تعبدوا إلا إياه(١).

وقد جرت العادة في القرآن أن الله يقرن برّ الوالدين بتوحيده جَلَّوَعَلَا في عباداته .. ولا شك أن الله لم يجعل بر الوالدين مقرونا بتوحيده دائما إلا لعظمة بر الوالدين، فإن بر الوالدين من أعظم الحسنات والقربات عند الله، وعقوق الوالدين من أخبث الخبائث وأكبر الذنوب، فعلينا معاشر المسلمين أن من كان عنده إما والد أو والدة أن يتحمل أذاه ويبره ويحسن إليه، ويسارع في مرضاته الأيام القليلة من الدنيا، حتى يموت وهو عنه راض. واعلموا أن من أعطاه الله شائبا أو شائبة أبا أو أما، فكأنه أعطاه وسيلة الجنة سهلة، ومن قصر فيها فهو مفرط مضيع، مع أن عقوق الوالدين مع ما فيه من إسخاط الله وإغضاب خالق السماوات والأرض وسبب دخول النار، وفيه أيضا القبح وعدم الإنسانية وخساسة فاعله.

فعلينا معاشر المسلمين أن نفهم هذا، وأن نعلم أن ربنا يجعل بر الوالدين دائما مع توحيده ومن كان منا عنده والد أو والدة فليسع كل السعي في أن يبره، وليعلم أن الكبير لا يتحمل على أذاه إلا من عنده تقوى؛ لأنه إذا شاب وكبرت سنه كان لا يتحمل؛ لأنه يكثر سؤاله عن الأشياء التي لا تعنيه، وتكثر أغراضه فيما لا تعنيه، وهذا يستلزم صبرا، فعلى الولد أن يتحمل، ويثابر على أن يفتيه في كل ما سأل مما لا يعنيه، ويصبر على جميع أذاه، ويحسن إليه، ويبره حتى يموت وهو عنه راض؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جاءت عنه الأحاديث التي لا تحصى في الترغيب في بر الوالدين واستجلابه الجنة، والترهيب من عقوق الوالدين، وما فيه من العقوبات، ونحن لا نحتاج أن ننوه بشيء من

(١) أضواء البيان (٣/٨٦) .

هذا بعد أن نرى خالق السماوات والأرض يجعل بر الوالدين مقرونا بتوحيده في عبادته جَلَّ وَعَلَا.

وعلينا جميعاً أن نعتبر بهذا، وأن نبر أمهاتنا وآباءنا، ونصبر على أذاهما، ولا نغلظ لهما القول، ولا نمنعهما من شيء يحبانه، بل نسارع في مرضاتهما بحسب الإمكان، ويكفيكم على هذا دليلا هو نص القرآن العظيم على أن الوالد يبره ولده وإن كان الوالد كافرا.. فبر الوالدين من أعظم الذخائر عند الله، ومن أعظم أسباب دخول الجنة، وعقوق الوالدين من كبائر الذنوب الموجبة لسخط الله ولدخول النار مع قبحها في الدنيا[1].

التواضع وخفض الجناح:

التواضع للمؤمنين وخفض الجناح لهم، من الأخلاق التي دعا إليها القرآن الكريم، وقد أمر الله جَلَّ وَعَلَا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله:، بخفض جناحه للمؤمنين. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]، ثم بين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن خفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح ... فلا تك في رفعه أجدلا[2]

وبين هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله في «الشعراء» : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء:٢١٥]، وكقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ إلى غير ذلك من الآيات[3].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٠) .

(٢) البيت بلا نسبة في كتب التفسير. انظر: الكشاف (٣/ ٣٤١)، و البحر المحيط (٨/ ١٩٧)، و السراج المنير (٣/ ٣٧)، و التحرير والتنوير (١٤/ ٨٣).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٣١٦).

وقد أخبر الله جَلَّ وَعَلَا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. أن المؤمنين إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضاً عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فأمره بلين الجانب للمؤمنين، ٢١٥]، وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾[التحريم: ٩]، وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين، وصرح بأن ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقد قال الشاعر في رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ :

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد

وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفي المهند[1]

وقال الآخر فيه:

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد[2][3]

---

(١) البيتان من قصيدة لأنس بن زنيم الديلي، قالها بعد فتح مكة معتذرا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٤٢٤).

(٢) البيت من قصيدة لمالك بن نمط الهمذاني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، يمدح فيها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ . انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٥٩٩).

(٣) أضواء البيان (٢/١٣٦-١٣٧).

وقد أشار تعالى إلى مكانة المتواضعين له عنده في قوله تعالى:﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله جَلَّ وَعَلَا:﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾[القصص: ٨٣]. وقد صح عنه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: «إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[(١)]. وقد قال الشاعر:

تواضع تكن كالبدر تبصر وجهه ... على صفـــــحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفســــــه ... إلى صفحات الجو وهو وضيع[(٢)]

وقال أبو الطيب المتنبي:

ولو لم يعل إلا ذو محـــــــل... تعال الجيش وانحط القتام[(٣)(٤)]

الرفـــــق واللين:

استنبط الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع ضيفه أشياء من آداب الضيافة: منها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق، كقوله: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧﴾ [الذاريات: ٢٧][(٥)].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله جَلَّ وَعَلَا بين أن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين، وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ومن عذاب الله تعالى وولاية الشيطان، خاطبه هذا الخطاب العنيف، وسماه باسمه

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٨).
(٢) البيتان بلا نسبة في تحرير التحبير (ص ٥١٢)، و الدر الفريد (٥/ ٤٤٧)، و غرر الخصائص (ص ٥٣).
(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص ١٠٢).
(٤) أضواء البيان (٢/٣٤٧-٣٤٨).
(٥) أضواء البيان (٢/١٨٦).

ولم يقل له «يا بني» في مقابلة قوله له: «يا أبت» وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان، أي: معرض عنها لا يريدها؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده جَلَّ وَعَلَا، وهدده بأنه إن لم ينته عما يقوله له ليرجمنه، قيل بالحجارة وقيل باللسان شتما، والأول أظهر، ثم أمره بهجره مليا أي: زمانا طويلا، ثم بين أن إبراهيم قابل أيضا جوابه العنيف بغاية الرفق واللين في قوله: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ ﴾ الآية [مريم: ٤٧]. وخطاب إبراهيم لأبيه الجاهل بقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ ﴾ قد بين جَلَّ وَعَلَا أنه خطاب عباده المؤمنين للجهال إذا خاطبوهم، كما قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وما ذكره تعالى هنا من أن إبراهيم لما أقنع أباه بالحجة القاطعة، قابله أبوه بالعنف والشدة، بين في مواضع أخر أنه هو عادة الكفار المتعصبين لأصنامهم، كلما أفحموا بالحجة القاطعة لجأوا إلى استعمال القوة(١).

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]. أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإن الله يأتي عوضا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذل للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الحجر: ٨٨]، وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ﴾ [التحريم: ٩]،

(١) أضواء البيان (٣/٤٢٧).

وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ الآية[آل عمران: ١٥٩]. وصرح بأن ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد قال الشاعر في رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وما حملت من ناقة فوق رحلها... أبر وأوفى ذمـــــة من محمد

وأعطى إذا ما طالب العرف جـــاءه ... وأمضى بحـــــد المشرفي المهند[(١)]

وقال الآخر فيه:

وما حملت من ناقة فوق رحلها .... أشد على أعدائه من محمد[(٢)]

ويفهم من هذه الآيات أن المؤمن يجب عليه أن لا يلين إلا في الوقت المناسب للين، وألا يشتد إلا في الوقت المناسب للشدة، لأن اللين في محل الشدة ضعف، وخور، والشدة في محل اللين حمق، وخرق، وقد قال أبو الطيب المتنبي:

إذا قيل حلم قل: فللحلم موضـــع ... وحلم الفتى في غير موضعه جهل[(٣)] [(٤)]

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الدعوة إلى الله بطريقين: طريق لين، وطريق قسوة، أما طريق اللين فهي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وإيضاح الأدلة في أحسن أسلوب

---

(١) البيتان من قصيدة لأنس بن زنيم الديلي، قالها بعد فتح مكة معتذرا لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٤٢٤).

(٢) البيت من قصيدة لمالك بن نمط الهمذاني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يمدح فيها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ٥٩٩).

(٣) ديوان المتنبي، الواحدي (ص ٤٥).

(٤) أضواء البيان (١/ ٤١٥).

وألطفه، فإن نجحت هذه الطريق فبها ونعمت، وهو المطلوب، وإن لم تنجح تعينت طريق القسوة بالسيف حتى يعبد الله وحده، وتقام حدوده، وتمتثل أوامره، وتجتنب نواهيه(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، أمر الله جَلَّوَعَلَا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذه الآية الكريمة أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة من إيضاح الحق بالرفق واللين...إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجادلهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون(٢).

وقد أمر الله جَلَّوَعَلَا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام: أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه «قولا لينا» أي كلاما لطيفا سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين جَلَّوَعَلَا المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩ ﴾ [النازعات: ١٧ – ١٩]، وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته ورقته كما ترى. وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]. ويؤخذ من هذه الآية الكريمة: أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالرفق، واللين. لا بالقسوة، والشدة، والعنف(٣).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله جَلَّوَعَلَا يقص خبر الأمم السابقة على هذه الأمة لتستفيد من ذلك فوائد عظيمة، فيخاف المكذبون للرسل الجاحدون بآيات الله أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك من المثلات، ومن عذاب الله المستأصل المتصل بعذاب النار، وكذلك يعلم الناس

(١) أضواء البيان (١/٤٦٤).
(٢) أضواء البيان (١/٤٦٥).
(٣) أضواء البيان (٤/١٥).

الآداب، وآداب الدعاة إلى الله في لينهم وعطفهم، ولين كلامهم، وكرم مخاطبتهم، وعدم بذاءتهم وكلامهم بكلام الجاهلين؛ فهذا نبي الله نوح لما قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠]، هو يعلم أنهم هم لضالون، وأنه هو المهتدي، والذي يعيبك ويلمزك بعيب أنت تعلم أنه فيه هو، وأنك أنت بري منه هذا مما يستدعي الغضب، والكلام الشديد، والرد العنيف، فنبي الله نوح لم يقل لهم شيئاً من ذلك، ولم يرد عليهم رداً عنيفاً، وإنما رد بأكرم العبارة، وألطف الرد، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: ٦١]، فلم يقل: أنتم هم الكفرة الفجرة الضلال، ولم يقذع فيهم بلسانه، بل بالعبارات اللطيفة اللينة، وهذا تعليم من الله لخلقه أن الداعي المتبع لآثار الرسل إذا قابله الجهلة ببذاءة اللسان وعابوه وتكلموا له بالقبيح أنه لا يقابلهم إلا بالقول اللين اللطيف، والحكمة والموعظة الحسنة، كما هي عادة الرسل في خطاباتهم لأممهم(١).

وبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الفتنة والفساد الكبير تتعدد أسبابها، ومن أعظم تلك الأسباب وأبرزها: مقاطعة المسلم للمسلم وموالاته للكافر، فهذا مما لا ينبغي، وهو من الأسباب العظيمة؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. فاللين للكفار والمحبة والمؤاخاة لهم ليست من شأن المسلمين، ولا من خلق النبي وأصحابه، فالله جَلَّ وَعَلَا أثنى على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أصحابه بأنهم لا يضعون اللين إلا في موضع اللين، ولا يضعون القسوة إلا في موضع القسوة، ليسوا بأصدقاء لهم –أي الكفار– ولا محبين ولا أولياء. هذه عادة المسلم أن يكون شديداً عظيماً على الكافر، رحيماً رفيقاً ذليلاً على المسلم، هذه عادة المسلمين وصفات المسلمين، وقد مدح الله بها قوماً في سورة المائدة حيث قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ

(١) أضواء البيان (٣/٤٧٤).

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، يعني لا يهتم بهم المسلمون لعدم صعوبتهم وذلهم وتواضعهم للمسلمين ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أشداء، فهو لا يوالي الكفار، بل هو ولي المسلمين. فيجب علينا الاقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنوالي المؤمنين ونلين لهم، ونرفق بهم[1]، ونعادي الكفار ونكون أشداء عليهم؛ لأن الشدة في محل اللين خرق وحمق، واللين في محل الشدة خور وضعف، والصحيح أن يكون كل شيء في محله، وهذا في موضعه، وهذا في موضعه، كما لا يخفى[2].

غض البصر عن المحرمات:

أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الله جَلَّ وَعَلَا أمر الله كل واحد من الجنسين بغض البصر عن الآخر، وبين أن ذلك الأدب السماوي أزكى لهم، أي أطهر من الريبة، وهدد من لم يمتثل للأمر من الجنسين بأنه خبير بما يصنع لا يخفى عليه منه شيء، وذلك في قوله

(١) وقد لفت نظر المفكر الألماني (هوفمان) حين زار مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسجد الحرام، هذا الخلق –أعني الرفق واللين– فيقول:"وإنني لأتذكر أنني هممت بمغادرة مسجد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، بعد أن انتهيت من الصلاة يوم (٢٦ ديسمبر ١٩٨٢م)، وعندما بلغت الباب الرئيس، كانت حركة السير بطيئة، وكان السبب أن أحد القادمين إلى الصلاة متأخراً لحق بها فور وصوله إلى الباب، وما زال يكمل صلاته على الدرج في هدوء تامّ، في حين انقسمت جموع المصلين المنصرفين من المسجد حوله كما تنقسم حول صخرة، ولم يجرؤ أحد على أن يزعجه، أو يشوش عليه في صلاته، أو أن يقتحم موضع صلاته، أما ما هو أشد غرابة وإثارة للدهشة، فذلك الذي رأيته في أثناء الطواف حول الكعبة في عام (١٩٩٢م)..فلقد راحت امرأة ضعيفة البنية تؤدي الصلاة دون اكتراث في قلب الزحام على مسافة بضعة أمتار من الكعبة، محاطة بأربعة رجال أشداء يصنعون لها سياجاً بسواعدهم، ومرة أخرى يتكرر ردّ الفعل الهادئ نفسه من جانب الناس، فلا لوم، ولا تأنيب، ولا كلمة غاضبة". انظر: الطريق إلى مكة، مراد هوفمان (ص: ٦٠).

(٢) العذب النمير (٥/٢٢١).

تعـــالى:﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ ﴾ [النـور: ٣٠] فـانظر قولـه: ﴿ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ ﴾ تجـده يتضمن أدباً سماوياً فيه غاية المحافظة على الفضيلة من أقذار الريبة، وانظر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ ﴾ فإنه تهديد عظيم لمن لم يغض طرفه بل تركه يتمتع بما حرمه الله، ثم قال تعالى:﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴾ [النور: ٣١] إلى آخر الآيات، وفيها تصريح الله جَلَّوَعَلَا بأمره كلا من الجنسين بغض الطرف عما لا يحل له من الآخر، وأتبع قوله: ﴿ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ بقوله: ﴿ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ﴾، فبدأ بالأمر بغض البصر قبل الأمر بحفظ الفرج؛ لأن النظر بالبصر هو السبب في الزنا بالفرج، لأن النظر بريد الزنا فقد يمتع الرجل عينه بالنظر إلى امرأة جميلة، فيستولي حبها على قلبه فيدغدغهما ذلك إلى الفاحشة، ولا سيما في هذا الزمان الذي نزعت فيه خشية الله من القلوب وانتشر فيه الفساد والإباحية، فلا تكاد ترى من يغض بصره حياء من الله وخوفا منه إلا من شاء الله من القليل النادر، نعوذ بالله من الخذلان وطمس البصيرة[1].

وقد بين مسلم بن الوليد الأنصاري في شعره سوء عاقبة النظر المحرم بقوله:

(١) لمّا كان غضّ البصر وحفظ الفرج عن المحرمات، والنهي عن التبرج وإبداء الزينة للرجال الأجانب من أسباب حفظ الأخلاق في المجتمع المسلم، فقد أمر الله جَلَّوَعَلَا المؤمنين والمؤمنات به في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور:٣١-٣٢]. ونهى عن التبرج فقال: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] .

كسبت لقلبي نظرة لتســـره ... عيني فكانت شقوة ووبـــــالا

ما مر بي شيء أشد من الهوى ... سبحان من خلق الهوى وتعالى[1]

وإذا تأملت هذه الآداب السماوية المذكورة في هذه الآية علمت أن دعاة السفور إلى يعارضونها بفلسفة شيطانية يكمن من ورائها ضياع الشرف والعفاف، ويتحصل بسببها تدنيس الأعراض وتقذير الفرش وعدم سلامة الأنساب وعدم صفائها من أقذار الاختلاط[2].

الحشمة:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا علمت بما ذكرنا أن حكم آية الحجاب عام، وأن ما ذكرنا معها من الآيات فيه الدلالة على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب، علمت أن القرآن دل على الحجاب، ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا شك أنهن خير أسوة لنساء المسلمين في الآداب الكريمة المقتضية للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الريبة، فمن يحاول منع نساء المسلمين كالدعاة للسفور والتبرج والاختلاط اليوم من الاقتداء بهن في هذا الأدب السماوي الكريم المتضمن سلامة العرض والطهارة من دنس الريبة غاش لأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مريض القلب كما ترى"[3].

وقد ساق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأدلة من السنة على احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب، فمن ذلك:

حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إياكم والدخول على النساء» ، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفرأيت

(١) شرح ديوان صريع الغواني، مسلم بن الوليد (ص: ٢٠١).
(٢) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٥٧).
(٣) أضواء البيان (٦/ ٢٤٨).

الحمو؟ قال: «الحمو الموت»[1]. فهذا الحديث الصحيح صرح فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتحذير الشديد من الدخول على النساء، فهو دليل واضح على منع الدخول عليهن وسؤالهن متاعا إلا من وراء حجاب؛ لأن من سألها متاعا لا من وراء حجاب فقد دخل عليها، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذره من الدخول عليها، ولما سأله الأنصاري عن الحمو الذي هو قريب الزوج الذي ليس محرما لزوجته، كأخيه وابن أخيه وعمه وابن عمه ونحو ذلك قال له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحمو الموت» ، فسمى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخول قريب الرجل على امرأته وهو غير محرم لها باسم الموت، ولا شك أن تلك العبارة هي أبلغ عبارات التحذير؛ لأن الموت هو أفظع حادث يأتي على الإنسان في الدنيا. فتحذيره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا التحذير البالغ من دخول الرجال على النساء، وتعبيره عن دخول القريب على زوجة قريبه باسم الموت دليل صحيح نبوي على أن قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ﴾ عام في جميع النساء، كما ترى. إذ لو كان حكمه خاصا بأزواجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حذر الرجال هذا التحذير البالغ العام من الدخول على النساء، وظاهر الحديث التحذير من الدخول عليهن ولو لم تحصل الخلوة بينهما، وهو كذلك، فالدخول عليهن والخلوة بهن كلاهما محرم تحريما شديداً، بانفراده، وقد أخرج الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث في باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، فدل على أن كليهما حرام.

وعن صفية بنت شيبة، أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا كانت تقول لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ ﴾ [النور: ٣١]. «أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها»[2]. وهذا الحديث الصحيح صريح في أن النساء الصحابيات

(١) صحيح البخاري (٧/ ٣٧).
(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٠٩).

المذكورات فيه فهمن أن معنى قوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾، يقتضي ستر وجوههن، وأنهن شققن أزرهن فاختمرن، أي: سترن وجوههن بها امتثالاً لأمر الله تعالى المقتضي ستر وجوههن، وبهذا يتحقق المنصف أن احتجاب المرأة عن الرجال وسترها وجهها عنهم ثابت في السنة الصحيحة المفسرة لكتاب الله تعالى، وقد أثنت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا على تلك النساء بمسارعتهن لامتثال أوامر الله في كتابه، ومعلوم أنهن ما فهمن ستر الوجوه من قوله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾، إلا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه موجود وهن يسألنه عن كل ما أشكل عليهن في دينهن، والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، فلا يمكن أن يفسرنها من تلقاء أنفسهن... فالعجب كل العجب، ممن يدعي من المنتسبين للعلم أنه لم يرد في الكتاب ولا السنة ما يدل على ستر المرأة وجهها عن الأجانب، مع أن الصحابيات فعلن ذلك ممتثلات أمر الله في كتابه إيمانا بتنزيله، ومعنى هذا ثابت في الصحيح، كما تقدم عن البخاري. وهذا من أعظم الأدلة وأصرحها في لزوم الحجاب لجميع نساء المسلمين، كما ترى.

ومن الأدلة: أن صلاة المرأة في بيتها خير لها من صلاتها في المساجد، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جدا، وفيما ذكرنا كفاية لمن يريد الحق[1].

وقد أجاب الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أدلة الذين قالوا بجواز إبداء المرأة وجهها ويديها، بحضرة الأجانب[2]. ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبالجملة، فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء في الكشف عن الوجه أمام الرجال الأجانب، مع أن الوجه هو أصل الجمال، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية

(١) أضواء البيان (٦/ ٢٤٨).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٢٥٢).

وداع إلى الفتنة، والوقوع فيما لا ينبغي[1].

وتطرق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسألة تتعلق بآية الحجاب، فقال: "اعلم: أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يصافح امرأة أجنبية منه، ولا يجوز له أن يمس شيء من بدنه شيئا من بدنها. ثم ساق الأدلة على ذلك[2].

ابتعاد المرأة عن مخالطة الرجال:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله أنزل في القرآن أدبا سماوياً أدّبَ به خير نساء الدنيا، وهن نساء سيد الخلق محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر فيه جميع الرجال أن لا يسألوهن متاعا إلا من وراء حجاب، ثم بين أن الحكمة في ذلك أن تكون قلوب كل من الجنسين في غاية الطهارة من أدناس الريبة بين الجنسين، وقد تقرر في علم الأصول أن العلة تعمم معلولها وتخصصه، والعلة في هذه الآية المتضمنة هذا الأدب السماوي الكريم الكفيل بالصيانة والعفاف وحفظ الكرامة والشرف معممة لحكم الآية الكريمة في جميع نساء المسلمين إلى يوم القيامة، وإن كان لفظها خاصا بأزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فدل ذلك بمسلك الإيماء والتنبيه من مسالك العلة أن علة السؤال من وراء حجاب هي: المحافظة على طهارة قلوب كل من الجنسين غاية الطهارة، حيث عبر تعالى بصيغة التفضيل في قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ﴾، ودل هذا التعليل بأطهرية قلوب الجنسين أن حكم الآية عام للنساء المسلمات إلى يوم القيامة؛ لأن أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة منهن مطلوبة إجماعا فلا يصح لقائل أن يقول: المطلوب طهارة قلوب أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) أضواء البيان (٦/ ٢٥٦).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٢٥٦).

فقط، وطهارة قلوب الرجال من الريبة معهن فقط، بل ذلك مطلوب في جميع النساء إلى يوم القيامة كما لا يخفى، فدل ذلك على أن العلة المشار إليها بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ مقتضية تعميم هذا الحكم السماوي النازل بهذا الأدب الكريم المقتضي كمال الصيانة والعفاف والمحافظة على الأخلاق الكريمة، والتباعد من التدنس بالريبة، فسبحان من أنزله ما أعلمه بمصالح خلقه وتعليمهم مكارم الأخلاق[1].

ولو سلمنا تسليماً جدلياً أن آية ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ خاصة بأزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يقوله بعض أهل العلم وجميع دعاة السفور، فإن أزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير أسوة وأفضل من يقتدي بهن نساء المسلمين، ولا سيما في أدب سماوي تصان به الكرامة والشرف والعفاف، فالاقتداء بهن في ذلك أولى من الاقتداء بإناث الإفرنج في الإباحية البهيمية القاضية على الأخلاق والشرف قضاء لا يترك للفضيلة والحفاظ أثرا، ولا يصح لعاقل منصف أن ينازع في أن الاقتداء بأزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعليم بوحي سماوي يحقق الحفاظ على الشرف والصيانة والكرم والعفاف والنزاهة والبعد من تقزز القلوب بأدناس الريبة خير وأولى من تقليد إناث الإفرنج الكافرات في كل ما يدنس العرض ويقضي على الكرامة والفضيلة، فمن حاول منع بنات المسلمين من الاقتداء بأزواج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الأدب السماوي الكريم، فهو مريض القلب غاش لأمته أشد الغش[2].

وفي معرض حديثه عن دعوى المساواة بين الذكر والأنثى في جميع الأحكام والميادين، وما تؤول إليه تلك الدعوى، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "واعلم وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه، أن هذه الفكرة الكافرة، الخاطئة الخاسئة، المخالفة للحس والعقل، وللوحي السماوي

(١) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٥٤).
(٢) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٥٦).

وتشريع الخالق البارئ من تسوية الأنثى بالذكر في جميع الأحكام والميادين، فيها من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني ما لا يخفى على أحد إلا من أعمى الله بصيرته، وذلك لأن الله جَلَّوَعَلَا جعل الأنثى بصفاتها الخاصة بها صالحة لأنواع من المشاركة في بناء المجتمع الإنساني، صلاحا لا يصلحه لها غيرها، كالحمل والوضع، والإرضاع وتربية الأولاد، وخدمة البيت، والقيام على شئونه من طبخ وعجن وكنس ونحو ذلك. وهذه الخدمات التي تقوم بها للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر وصيانة، وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة والقيم الإنسانية، لا تقل عن خدمة الرجل بالاكتساب، فزعم أولئك الجهلة من الكفار وأتباعهم أن المرأة لها من الحقوق في الخدمة خارج بيتها مثل ما للرجل، مع أنها في زمن حملها ورضاعها ونفاسها، لا تقدر على مزاولة أي عمل فيه أي مشقة كما هو مشاهد، فإذا خرجت هي وزوجها بقيت خدمات البيت كلها ضائعة من حفظ الأولاد الصغار، وإرضاع من هو في زمن الرضاع منهم، وتهيئة الأكل والشرب للرجل إذا جاء من عمله، فلو أجروا إنسانا يقوم مقامها، لتعطل ذلك الإنسان في ذلك البيت التعطل الذي خرجت المرأة فرارا منه، فعادت النتيجة في حافرتها على أن خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين؛ لأن المرأة متاع، هو خير متاع الدنيا، وهو أشد أمتعة الدنيا تعرضا للخيانة؛ لأن العين الخائنة إذا نظرت إلى شيء من محاسنها فقد استغلت بعض منافع ذلك الجمال خيانة ومكراً، فتعريضها لأن تكون مائدة للخونة فيه ما لا يخفى على أدنى عاقل، وكذلك إذا لمس شيئاً من بدنها بدن خائن سرت لذة ذلك اللمس في دمه ولحمه بطبيعة الغريزة الإنسانية، ولا سيما إذا كان القلب فارغا من خشية الله تعالى، فاستغل نعمة ذلك البدن خيانة وغدرا، وتحريك الغرائز بمثل ذلك النظر واللمس يكون غالباً سبباً لما هو شر منه كما هو مشاهد بكثرة في البلاد التي تخلت عن تعاليم الإسلام، وتركت الصيانة. فصارت نساؤها يخرجن متبرجات عاريات الأجسام إلا

ما شاء الله؛ لأن الله نزع من رجالها صفة الرجولة والغيرة على حريمهم، نعوذ بالله من مسخ الضمير والذوق، ومن كل سوء، ودعوى الجهلة أن دوام خروج النساء بادية الرؤوس والأعناق والمعاصم، والأذرع والسوق، ونحو ذلك يذهب إثارة غرائز الرجال؛ لأن كثرة الإمساس تذهب الإحساس كلام في غاية السقوط والخسة؛ لأن معناه: إشباع الرغبة مما لا يجوز، حتى يزول الأرب منه بكثرة مزاولته، وهذا كما ترى، ولأن الدوام لا يذهب إثارة الغريزة باتفاق العقلاء؛ لأن الرجل يمكث مع امرأته سنين كثيرة حتى تلد أولادهما، ولا تزال ملامسته لها، ورؤيته لبعض جسمها تثير غريزته كما هو مشاهد لا ينكره إلا مكابر. وقد أمر رب السموات والأرض، خالق هذا الكون ومدبر شؤونه، العالم بخفايا أموره وبكل ما كان وما سيكون بغض البصر عما لا يحل... ونهى المرأة أن تضرب برجلها لتسمع الرجال صوت خلخالها، ونهاهن عن لين الكلام، لئلا يطمع أهل الخنى فيهن[1].

وفي رحلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أفريقيا، وحين سُئل عن حكمة جعل الطلاق بيد الرجل..؟ ذكر في معرض جوابه: أن المرأة لا يجوز لها أن تجعل نفسها مائدة للخونة، وربما كان الخائن يريد النظرة الفاجرة يحبها ويقدمها على كل شيء، كما قال أحدهم:

قلت اسمحوا لي أن أفوز بنظرة ... ودعوا القيامة بعد ذاك تقومُ[2]

فهذه العين الخائنة التي تتمنى الخيانة بالنظر إلى هذا الحدّ لا ينبغي للإنسان. وعلى كل حال فكل من فيه مروءة يعلم هذا، لو عرضنا على أطرف إنسان فيه مروءة وقلنا له: أتحب أن تخرج أخواتك وبناتك وزوجتك أمام الناس وأمام أعين الخونة يتمتعون بجمالهن

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٧).

(٢) البيت في خريدة القصر (٢/ ٩٣٥) منسوب إلى ابن أضحى.

ظلمًا ومكرًا وغدرًا وجناية على الشرف والرذيلة، وجناية على المرأة؟ فكل العقلاء يقولون: لا ينبغي هذا.

فيُعلم من هذا أن المرأة إذا زاولت بعض الأعمال في صيانة وستر وعفاف فلا مانع، وإذا أرادت أن تزاول بعض الأعمال في تكشف وأمور لا تليق بالفضيلة، بل هي تليق بالرذيلة والانحطاط الخلقي وضياع القيم العليا والمُثُل العظيمة للإنسانية هذا أمر لا ينبغي. وعلى كل حال فكل من فيه مروءة يعلم هذا، لو عرضنا على أطرف إنسان فيه مروءة وقلنا له: أتحب أن تخرج أخواتك وبناتك وزوجتك أمام الناس وأمام أعين الخونة يتمتعون بجمالهن ظلمًا ومكرًا وغدرًا وجناية على الشرف والرذيلة، وجناية على المرأة؟ فكل العقلاء يقولون: لا ينبغي هذا[1].

الاستئذان:

في تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لآية الاستئذان في سورة النور، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور: ٢٧]، ذكر جملة من المسائل والتنبيهات المتعلقة بهذا الأدب الربّاني، ومنها:

المسألة الأولى: أن هذه الآية الكريمة دلت بظاهرها على أن دخول الإنسان بيت غيره بدون الاستئذان والسلام لا يجوز؛ لأن قوله: ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾ الآية، نهي صريح، والنهي المتجرد عن القرائن يفيد التحريم على الأصح، كما تقرر في الأصول[2].

(١) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ١٣٣).

(٢) في عام (١٩٨٢م) اقتحم شخص يدعى (مايكل فاجان)، قصر باكنجهام، حتى دخل غرفة نوم الملكة (إليزابيث الثانية)، ونشرت الخبر العديد من الصحف وقتئذ، وقد علق الدكتور: حمود حمبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأستاذ بجامعة (تيزي وزو) في الجزائر، على هذه الحادثة في محاضرة له ألقاه في (١٩٩٢/٣/١٧م)، عنوانها:

المسألة الثانية: أن الاستئذان ثلاث مرات، يقول المستأذن في كل واحدة منها: "السلام عليكم أأدخل"؟ فإن لم يؤذن له عند الثالثة، فليرجع، ولا يزد على الثلاث، وهذا لا ينبغي أن يختلف فيه، لأنه ثابت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثبوتاً لا مطعن فيه[1].

ومن التنبيهات التي تتعلق بهذه المسألة:

التنبيه الأول: أن المستأذن إن تحقق أن أهل البيت سمعوه لزمه الانصراف بعد الثالثة؛ لأنهم لما سمعوه، ولم يأذنوا له دل ذلك على عدم الإذن، وقد بينت السنة الصحيحة عدم الزيادة على الثلاثة، الذي يظهر لنا رجحانه خلافاً لمن قال من أهل العلم: إن له أن يزيد على الثلاث مطلقا، وكذلك إذا لم يدر هل سمعوه أو لا، فإنه يلزمه الانصراف بعد الثالثة. والصواب -إن شاء الله تعالى- عدم الزيادة على الثلاث، وهو الذي يظهر لنا رجحانه؛ لأنه ظاهر النصوص، ولا يجوز العدول عن ظاهر النص إلا بدليل يجب الرجوع إليه كما هو مقرر في الأصول.

التنبيه الثاني: قال بعض أهل العلم: إن المستأذن ينبغي له ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكنه يقف جاعلاً الباب عن يمينه أو يساره، ويستأذن وهو كذلك، فعن عبد الرحمن عن عبدالله بن بشر قال: "كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتى باب قوم لم

(حقوق الإنسان بين النظم الوضعية والشريعة الإسلامية)، فذكر أنه حينما أرادوا معاقبته، لم يجدوا نصاً قانونياً يمنع دخول المساكن دون إذن. شاهد المحاضرة على رابط اليوتيوب: www.youtube.com [عند الدقيقة ٢٨:٢٦].

(١) جاء في صحيح البخاري (٨/ ٥٤)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثلاثاً، فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع».

يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن، أو الأيسر، ويقول: (السلام عليكم، السلام عليكم)، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور"[1]. وفيما ذكرنا دلالة على أن المستأذن لا يقف مستقبل الباب خوفا أن يفتح له الباب، فيرى من أهل المنزل ما لا يحبون أن يراه، بخلاف ما لو كان الباب عن يمينه أو يساره فإنه وقت فتح الباب لا يرى ما في داخل البيت.

المسألة الثالثة: إذا قال له رب المنزل: "من أنت"؟، فلا يجوز له أن يقول له: "أنا"، بل يفصح باسمه وكنيته إن كان مشهوراً به؛ لأن لفظة أنا يعبر بها كل أحد عن نفسه فلا تحصل بها معرفة المستأذن، وقد ثبت معنى هذا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثبوتا لا مطعن فيه، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أتيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا» فقلت: أنا، فقال: «أنا، أنا» كأنه كرهها[2]. وتكريره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفظة: "أنا" دليل على أنه لم يرضها من جابر؛ لأنها لا يعرف بها المستأذن فهي جواب له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لا يطابق سؤاله، وظاهر الحديث أن جواب المستأذن بـ:"أنا"، لا يجوز لكراهة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك وعدم رضاه به خلافا لمن قال: إنه مكروه كراهة تنزيه، وهو قول الجمهور.

المسألة الرابعة: الأظهر الذي لا ينبغي العدول عنه أن الرجل يلزمه أن يستأذن على أمه وأخته، وبنيه وبناته البالغين؛ لأنه إن دخل على من ذكر بغير استئذان فقد تقع عينه على عورات من ذكر، وذلك لا يحل له.

المسألة الخامسة: إن لم يكن مع الرجل في بيته إلا امرأته أن الأظهر أنه لا يستأذن عليها، وذلك يفهم من ظاهر قوله تعالى: ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴾، ولأنه لا

(١) سنن أبي داود (٤/ ٣٤٨).
(٢) صحيح البخاري (٨/ ٥٥).

حشمة بين الرجل وامرأته، ويجوز بينهما من الأحوال والملابسات ما لا يجوز لأحد غيرهما، ولو كان أباً أو أماً أو ابناً، كما لا يخفى.

المسألة السادسة: إذا قال أهل المنزل للمستأذن: ارجع، وجب عليه الرجوع؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ ﴾ [النور: ٢٨]، وكان بعض أهل العلم يتمنى إذا استأذن على بعض أصدقائه أن يقولوا له: "ارجع"، ليرجع، فيحصل له فضل الرجوع المذكور في قوله: هو أزكى لكم؛ لأن ما قال الله إنه أزكى لنا لا شك أن لنا فيه خيرا وأجرا.

المسألة السابعة: أقوى الأقوال دليلاً وأرجحها فيمن نظر من كوة إلى داخل منزل قوم ففقأوا عينه التي نظر إليهم بها، ليطلع على عوراتهم أنه لا حرج عليهم في ذلك من إثم ولا غرم دية العين ولا قصاص، وهذا لا ينبغي العدول عنه لثبوته عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ثبوتا لا مطعن فيه، ولذا لم نذكر هنا أقوال من خالف في ذلك من أهل العلم لسقوطها عندنا، لمعارضتها النص الثابت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ووجه دلالته على أنه لا شيء في عين المذكور، وثبوت هذا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يدل على أنه لما تعدى وانتهك الحرمة، ونظر إلى بيت غيره دون استئذان، أن الله أذن على لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في أخذ عينه الخائنة، وأنها هدر لا عقل فيها، ولا قود، ولا إثم، ويزيد ما ذكرنا توكيداً وإيضاحا ما جاء عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ منه أنه هم أن يفعل ذلك. وهذه النصوص الصحيحة لا ينبغي العدول عنها، ولا تأويلها بغير مستند صحيح من كتاب أو سنة، ولذلك اخترنا ما جاء فيها من أن تلك العين الخائنة يحل أخذها، وتكون هدرا، ولم نلتفت إلى قول من أقوال من خالف ذلك، ولا لتأويلهم للنصوص بغير مستند يجب الرجوع إليه.

المسألة الثامنة: إذا أرسل صاحب المنزل رسولاً إلى شخص ليحضر عنده، فإن أهل العلم قد اختلفوا: هل يكون الإرسال إليه إذناً؛ لأنه طلب حضوره بإرساله إليه، وعلى هذا القول إذا جاء منزل من أرسل إليه فله الدخول بلا إذن جديد اكتفاء بالإرسال إليه، أو لا بد من أن يستأذن إذا أتى المنزل استئذانا جديداً، ولا يكتفي بالإرسال؟ وكل من القولين قال به بعض أهل العلم.. وقد جمع بعض أهل العلم بين أدلة القولين بتنزيل ذلك على اختلاف حالين: إن طال العهد بين الطلب والمجيء احتاج إلى استئناف الاستئذان، وكذا إن لم يطل لكن كان المستدعي في مكان يحتاج معه إلى الإذن في العادة، وإلا لم يحتج إلى استئناف إذن.. قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق الخلاف في المسألة: "وأقربها عندي الجمع الأخير"[(١)].

ومما يدخل في الاستئذان؛ حقّ الآخرين في عدم التعدي على ذواتهم أو أشخاصهم، ومن ذلك تصويرهم دون إذن منهم، أو في غفلتهم. قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "لأن تصوير الإنسان دلت الأحاديث الصحيحة على أنه حرام، وظاهرها العموم في كل أنواع التصوير، ولا شك أن ارتكاب أي شيء حرمه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه من الأقذار والأنجاس المعنوية"[(٢)].

حُسن المعاملة:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويأمرنا القرآن بما نعامل به الأعداء، وما نعامل به الإخوان، فالمسلم رحيم بالمسلم، شديد على عدو المسلم، ومن صفات المسلم أن يكون ليناً هيناً على أخيه المسلم، وأن يكون غليظاً فظاً على أعدائه[(٣)].

(١) أضواء البيان (٥/ ٤٩٣).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٢٩٨).
(٣) العذب النمير (٢/ ٥٤٣).

الوفاء بالعهد والوعد:

ويدخل في المتقين دخولاً أولياً؛ الذين لا ينقضون العهود ويوفون بالعهود؛ لأن الوفاء بالعهد وعدم نقضه ونكثه من تقوى الله جَلَّوَعَلَا، والمتصف بالتقوى يحبه الله. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة: ٤][(١)].

والله أمر المسلمين بالوفاء بالعهود في آيات كثيرة، وهي شروط عامة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾[الأنعام: ١٥٢]، يعني: أن عهد الله هنا يشمل جميع الأمانات، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، ويدخل فيه الوفاء بالنذور، ويدخل فيه عهود المسلمين بعضهم على بعض، وشروط بعضهم على بعض؛ لأن المسلمين عند شروطهم، فكل شرط اشترطه مسلم على مسلم، وكان ذلك الشرط لا يحل حراما حرمه الله، ولا يحرم حلالا أحله الله، فهو في كتاب الله؛ لعموم الأدلة على وجوب الوفاء بالعهود، والشروط من أوكد العهود التي أمر الله بالوفاء فيها، وقد ثبت عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديث المتفق عليه أنه قال: «إن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج»[(٢)] فما تشترطه المرأة على زوجها بالعقد إن كان لا يحل حراماً، ولا يحرم حلالا. أما الشرط الذي أحل حراماً أو حرم حلالا فهو ليس في كتاب الله، فهو باطل وإن كان مئة شرط، وهذا معنى قوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾. والوفاء بالعهود وعدم النكث والنقض من تقوى الله جَلَّوَعَلَا وهو كذلك[(٣)].

وتطرق الشيخ جَلَّوَعَلَا إلى مسألة في لزوم الوفاء بالعهد، وذكر أن العلماء مختلفون في ذلك، فقال بعضهم: يلزم الوفاء به مطلقا، وقال بعضهم: لا يلزم مطلقا، وقال

(١) العذب النمير (٥/٢٦١، ٢٨٨).
(٢) صحيح البخاري (٥/ ٣٢٣)، وصحيح مسلم (٢/ ١٠٣٥).
(٣) العذب النمير (٢/ ٥٢٢، ٥/٢٦٠).

بعضهم: إن أدخله بالوعد في ورطة لزم الوفاء به، وإلا فلا، ومثاله ما لو قال له: تزوج، فقال له: ليس عندي ما أصدق به الزوجة، فقال: تزوج والتزم لها الصداق وأنا أدفعه عنك، فتزوج على هذا الأساس، فإنه قد أدخله بوعده في ورطة التزام الصداق، واحتج من قال يلزمه، بأدلة منها آيات من كتاب الله دلت بظواهر عمومها على ذلك وبأحاديث، فالآيات كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ونحو ذلك من الآيات. والأحاديث كحديث «العدة دين»[(١)] فجعلها دينا دليل على لزومها. واحتج من قال بأن الوعد لا يلزم الوفاء به بالإجماع على أن من وعد رجلاً بمال إذا أفلس الواعد لا يضرب للموعود بالوعد مع الغرماء، ولا يكون مثل ديونهم اللازمة بغير الوعد، حكى الإجماع على هذا ابن عبد البر، كما نقله عنه القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة، وفيه مناقشة، وحجة من فرق بين إدخاله إياه في ورطة بالوعد فيلزم، وبين عدم إدخاله إياه فيها فلا يلزم، أنه إذا أدخله في ورطة بالوعد ثم رجع في الوعد وتركه في الورطة التي أدخله فيها، فقد أضر به، وليس للمسلم أن يضر بأخيه، للحديث «لا ضرر ولا ضرار»[(٢)]. قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ساق الخلاف في المسألة: "فإذا علمت أقوال أهل العلم في هذه المسألة، وما استدل به كل فريق منهم، فاعلم أن الذي يظهر لي فيها -والله تعالى أعلم- أن إخلاف الوعد لا يجوز، لكونه من علامات المنافقين، ولأن الله يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[الصف: ٣] ، وظاهر عمومه يشمل إخلاف الوعد، ولكن الواعد إذا امتنع من إنجاز الوعد لا يحكم عليه به ولا يلزم به جبراً، بل يؤمر به ولا يجبر عليه؛ لأن

(١) المعجم الأوسط، الطبراني (٤/ ٢٣).
(٢) موطأ مالك (٤/ ١٠٧٨).

أكثر علماء الأمة على أنه لا يجبر على الوفاء به؛ لأنه وعد بمعروف محض، والعلم عند الله تعالى"[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ [النحل: ٩١] أمر جَلَّوَعَلَا في هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا. وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس. وكرر هذا في مواضع أخر، وبين في مواضع أخر أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك؛ وذلك في قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمَۢا ١٠ ﴾ [الفتح: ١٠]، وبين في مواضع أخر: أن نقض الميثاق يستوجب اللعن ؛ وذلك في قوله:﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾ [المائدة: ١٣] [(٢)].

ومن الوفاء؛ التزام الشيخ الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما كان يلتزم به من وعود؛ فكان أثناء تأليفه لتفسير أضواء البيان، إذا مرّ بآية فيها جملة من الأحكام الفقهية، يعدُ بالحديث عن هذه الأحكام عند تفسيره للآية المناسبة لها في سورة أخرى، فإذا وصل إلى هذه السورة والآية، وفّى بما وعد"[(٣)].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٣٨).

(٢) أضواء البيان (٢/ ٤٣٨).

(٣) ومن ذلك: قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المسألة الخامسة: في تحقيق المقام فيما للإمام أن ينفله من الغنيمة، وسنذكر أقوال العلماء في ذلك، وأدلتهم، وما يقتضي الدليل رجحانه. اعلم أن العلماء اختلفوا في هذه المسألة، كما أشرنا له في أول هذه السورة الكريمة، ووعدنا بإيضاحه هنا...". انظر: أضواء البيان (٢/ ٧٩). وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المسألة الثانية: اعلم أن الاجتهاد في الأحكام في الشرع دلت عليه أدلة من الكتاب والسنة، منها هذا الذي ذكرنا هنا. وقد قدمنا في سورة بني «إسرائيل» طرفا من ذلك، ووعدنا بذكره مستوفى في هذه السورة الكريمة وسورة الحشر، وهذا أوان الوفاء بذلك الوعد في هذه السورة الكريمة". انظر: أضواء البيان (٤/ ١٧٢).

الوفاء في المكاييل والموازين:

في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذكر أن من أخل بإيفائه من غير قصد منه لذلك، لا حرج عليه لعدم قصده، ولم يذكر هنا عقاباً لمن تعمد ذلك، ولكن توعده بالويل في موضع آخر، ووبخه بأنه لا يظن البعث ليوم القيامة، وذلك في قوله: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ١ – ٦]، وذكر في موضع آخر أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٣٥﴾ [الإسراء: ٣٥][1]. وإيفاء الميزان وإيفاء الوزن معناهما واحد، والله جَلَّوَعَلَا يعلم أن بعض الأخساء من الذين يتولون الكيل والوزن عندهم حيل دقيقة، ينقصون بها حقوق الناس إذا كانوا يكيلون للناس، ويزيدون حقوقهم إذا كانوا يكيلون لأنفسهم، فحذرهم الله من هذا الفعل الخسيس، وعظم شأنه، وتوعد عليه التوعد العظيم الهائل بالويل؛ وذلك لأن المال هو شريان الحياة، والطعام الموزون المكيل هو الذي به حياة الدنيا وقوامها، فالآلات التي

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولذا بين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعدي بن حاتم أنهم لما اتبعوا نظامهم في التحليل والتحريم وشرعهم المخالف لشرع الله كانوا عبدة لهم، متخذيهم أربابا، والآيات القرآنية في المصحف الكريم المصرحة بهذا المعنى لا تكاد تحصيها، ومن أصرحها: المناظرة التي أشرنا لها، ووعدنا بإيضاح مبحثها هنا، وهي المناظرة التي وقعت بين حزب الرحمن وحزب الشيطان في حكم تحليل لحم الميتة وتحريمه..". انظر: العذب النمير (٥/ ٤٤١).

(١) أضواء البيان (١/ ٥٤٧).

نصبت عدلاً لذلك ينبغي الاحتياط الكامل في إقامتها على وجهها، وعدم الغش والخديعة فيها، ولذا كثر في القرآن العظيم الإيصاء بإيفاء الكيل والوزن، وذكر الله عن نبيه شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مواضع متعددة من ذلك. والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن يكون عليه من الصفات الكريمة؛ من عدم الغش وعدم الخيانة[1]. وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ أوامر اجتماعية عظيمة، تدل على كمال تشريع الإسلام، ورعاية دين الإسلام لمصالح البشر، كبيرها وصغيرها، جليلها وحقيرها[2].

النزاهـــــة:

عند تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ذكر أن الآية الكريمة عامة، والخطاب بها عام، فيجب على كل مكلف أن يتباعد من كل معصية خسيسة، سواء كان ذلك ظاهراً بمرأى الناس، كالذي يزني والناس ينظرون، أو يقتل والناس ينظرون، أو يرتكب محرماً ظاهراً علناً يراه الناس، وكالذي يفعل الفواحش سراً من غير اطلاع الناس، سواء الذي يزني من غير أن يراه الناس، والذي يسرق خفية من غير أن يراه الناس، وهذا لا يفعله إلا من هو في غاية الجهل؛ لأنه إذا خاف أن يطلع الناس عليه، وترقب للفاحشة أن تكون باطنة لا يراها الناس، أليس هو يعلم أن خالقه يراه؟ وأن الحفظة الملائكة الكرام حاضرون معه، يسجلون عليه ما فعل؟!. فعلى المسلم إذا خلا بالأمر، وسول له الشيطان أن يفعل تلك الفاحشة؛ لأن الناس لا يرونه، وأنه لا يطلع عليه أحد، كالذي يخلو بامرأة في محل

(١) العذب النمير (٢/ ٥١٣، ٥٤٣).
(٢) العذب النمير (٢/ ٥١٣).

مقفول، يأمن عيون الناس فيه، فيخول له الشيطان الريبة معها، عليه أن ينظر أن الله رقيب عليه، وأن الملائكة الكرام معه، وعلى الشخص أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فالذي يستحيي من البشر الضعاف الذين لا يقدرون أن يضروه، ولا يستحيي من خالق السماوات والأرض، فهو مجنون جاهل.

وإذاً فإنا نعلم أن من الفواحش الباطنة أكل الرشا، فهذا الإنسان الخسيس الذي يخاف أعين الناس، ثم يأخذ الرشوة بحيث لا يراه أحد ظلماً وعدواناً، خيانة لولي أمر المسلمين، الذي ولاه المركز على أنه يكون ناصحاً في غاية النصح والنزاهة والأمانة، وخيانة لربه المطلع عليه، حيث يستخفي من الناس ولا يستخفي من الله.

وعلى كل حال فهذه الآية الكريمة نهى الله فيها جميع خلقه عن أن يقربوا من خصلة خسيسة محرمة، أن يقربوا منها فضلاً عن أن يرتكبوها، سواء كان في الظهور والعلن بحيث يراه الناس، أو في الباطن بحيث لا يطلع عليه إلا الله والحفظة الكرام الكاتبون معه... فعلى كل مسلم إذا قام بخدمة لأمته أن يخدم أمته بشرف وكرامة ونزاهة؛ ليرضي بذلك الله، ويرضى عنه الحفظة الذين معه، ولا يرفعوا عنه في ليله ونهاره إلى السماء إلا عملاً يبيض وجهه، ويرضي الله، ثم يكون مرضياً ضميره، أما الذي يلغي هذه الأوامر، ويتنازل إلى هذه الخسة لينال عرضاً قليلاً من الدنيا فهذا ساقط المروءة والدين، وهو عند الله في شر مكانة -والعياذ بالله- ألا ترون أن عنترة بن شداد كافر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولم يأته نذير، بل هو جاهلي، إلا أن عنده ضميراً حياً وشيمة عربية، يقول في معلقته:

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنـــــال به كريم المأكل[1]

(١) انظر البيت في معلقته في: جمهرة أشعار العرب، محمد بن أبي الخطاب القرشي (ص: ٣٤٩).

فالذي يكون غير محتاج، وهو يقع في هذه المآثم الخسيسة، هذا لا ينبغي، فنحن نحذر منه إخواننا، ونرجو الله لنا وللجميع أن يوفقهم إلى ما يرضيه من نزاهة تليق، ومعاملة سليمة، والقيام بالخدمة على الوجه اللائق الذي يرضي الله، ويرضي الضمير الإنساني[1].

الإعراض عن الجاهلين:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإعراض عن الجاهلين خُلُقٌ سماوي أمر الله به نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعلم خلقه هذا الخُلق الكريم، والأدب السماوي العظيم أنه إذا جهل عليك جاهل فأساء إليك أن تعرض عنه ولا تأخذه بزلته، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢]. ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩][2].

وفي قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾، بين الله جَلَّ وَعَلَا فيها آداباً اجتماعية يجب على كل مسلم أن يتفهمها ويتدبرها ويعمل بها؛ لأنه ينتفع بها في طول حياته انتفاعاً تاماً، وهي من تعاليم خالق السماوات والأرض، وسنلم بهذه الآيات ونذكر هذه الآداب الاجتماعية التي دلت عليها التي يحتاج إلى تعليمها كل إنسان. اعلموا أولاً أن الله أجرى العادة بأنه لا يخلو أحد كائنا من كان من عدو مناوئ له من بني آدم ومن الشياطين، لا بد للإنسان من عدو يناوئه من بني جنسه ومن الشياطين. وهذا أمر غالباً، وخير الناس الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ

(١) العذب النمير (٢/ ٤٨٣).
(٢) العذب النمير (٤/ ٤٤٢).

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام: آية ١١٢]، فلا يخلو إنسان من عدو من بني جنسه وعدو من الشياطين.

ليس يخلو المرء من ضد ولو ... حاول العزلة في رأس جبل(١)

وفي هذه الآية والآيتان الأخريان بيان ما يتلقى الإنسان به العدو من جنسه والعدو من الشياطين؛ ليكتفي شرهما ويكسر أصل هذه العداوة المضرة الشنيعة التي لا يسلم منها أحد، وذلك أن عدوك من بني جنسك أنك تقابل إساءته بالإحسان، ومنكره بالمعروف، وإساءته بالحلم والصفح، فإن ذلك الإحسان وذلك الحلم والصفح يقضي على إساءته ويذهبها حتى يضطر إلى أن يصير في آخر الأمر من أصدق الأصدقاء. وأما إذا كان العدو من الشياطين فإن الملاينة لا تفيد فيه، وأنت لا تراه ولا لك فيه حيلة إلا الاستغاثة بخالق السماوات والأرض والاستعاذة به منه. قال هنا فيمن يتسلط عليك من الإنس: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال في صاحبه الآخر من شياطين الجن:﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ لا دواء له إلا ذلك : ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

الموضع الثاني: في سورة (قد أفلح المؤمنون) قال تعالى في عدوك من بني جنسك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾، يعني: ادفع سيئات المسيئين بمقابلتها بالتي هي أحسن ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. ثم قال في العدو الثاني من شياطين الجن: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: الآيات ٩٦ - ٩٨].

(١) البيت لابن الوردي، في لاميته. انظر: الكشكول، الهمذاني (١/ ٢٣٤)، و نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، الشرواني (ص: ١٥٦) .

الموضع الثالث: في (حم السجدة) زاد فيه تعالى أن هذا الدواء السماوي والعلاج القرآني الذي يكسر عداوة هذين العدوين لا يعطيه الله لكل أحد، وإنما يخص به من شاء ممن له عنده الحظ الأعظم، وزاد أن هذا دواء نافع وعلاج عظيم حيث قال في العدو من الإنس: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ ﴾ [فصلت: ٣٤] في غاية الصداقة؛ لأن مقابلة إساءته بالإحسان تخجله وتقضي على عداوته حتى يضطر إلى أن يرجع صديقا.

وقال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ هذه الخصلة وهذا التعليم القرآني لا يعطاه كل الناس، لا يعطيه الله إلا لصاحب الحظ والبخت العظيم عنده من الصابرين؛ ولذا قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ ﴾ [فصلت: ٣٥]، ثم قال في رفيقه الآخر: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦ ﴾ [فصلت: ٣٥، ٣٦]، فهذا علاج قرآني ودواء سماوي نافع يحتاج إليه كل مسلم، ومحل هذا في غير الكفار المناصبين الناس بالعداوة، فالملاينة لهم لا تجوز؛ لأن الكفار يجب عليهم الغلظة والقوة والعزة، ولا يلاينون، ولا تقابل سيئاتهم بالحسنات، كما وصف الله بذلك نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾[الفتح: ٢٩] . قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [التوبة: آية ٧٣] مع أنه يقول: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾ [الحجر: آية ٨٨] ، ويقول في غيرهم: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [التوبة: آية ٧٣]، وقد مدح الله قوما بلين جانبهم لإخوانهم المسلمين وقوتهم على الكفرة، قال تعالى: ﴿ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ

عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ [المائدة: آية ٥٤]. والحاصل أن الشدة في محل اللين حمق وخرق، واللين في محل الشدة ضعف وخور، وكل مقال له مقام. وقد صدق أبو الطيب المتنبي في قوله:

إذا قيل رفقاً فقل للحلم موضع ... وحلم الفتى في غير موضعه جهل(١)

والسداد والحكمة أن تكون الشدة في محل الشدة، واللين في محل اللين. وفي قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال بعض العلماء: لما نزلت هذه الآية سأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها جبريل فقال له: حتى أسأل ربي، ثم رجع له وقال: ربك يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: صل من قطعك، وأعط من حرمك. ونحو ذلك ... فإن هذا هو العفو، بأن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك. قال بعض العلماء: (العفو) هو ما تسهل لك من أخلاق الناس، خذ ما وجدته سهلا من أخلاق الناس، ما وجدت منهم من طيب خذه، وما جاءك منهم من غير ذلك تجاوز عنه واصفح عنه.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، العرب تطلق لفظة العرف والمعروف والعارفة على كل خصلة جميلة تستحسنها العقول وتطمئن إليها النفوس؛ كالإعراض عن الجاهل، والعفو عن المسيء. وكان بعض علماء الأصول يقول: إن هذه الآية يدخل فيها ما يتعارف عليه الناس في معاملتهم وبيوعاتهم ونحو ذلك، ولذا قال العلماء: إذا جاء قاض إلى بلد وهو غريب عنها ليس من أهلها لا يجوز له أن يحكم ولا أن يفتي حتى يسأل عن عرفهم وعاداتهم في ماذا يريدون بالصيغ وألفاظ المعاملات؛ لأن الأحكام تختلف باختلاف الأعراف، قد يكون الناس يطلقون هذه الكلمة على معنى معين لا يريدون غيره فيحملها القاضي على لفظها اللغوي فيظلمهم، ويحملهم ما لا يقصدون. ومن هذا كان بعض

(١) ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ط/١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م (ص: ٤٥) .

علماء الأصول يقول: هذه المسألة التي دخلت في عموم هذه الآية إحدى القواعد الخمس التي أسس عليها الفقه الإسلامي، وبعضهم يقول: أصلها أربعة، زاد بعض الأصوليين فيها خامسة، وهي قواعد خمس:

- **أولها**: (الضرر يزال).
- **الثانية**: (المشقة تجلب التيسير).
- **الثالثة**: (لا يرتفع يقين بشك).
- **الرابعة**: قولهم (العرف محكم).
- **الخامسة**: (الأمور تبع المقاصد).

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[1].

المودة، والمحبّة:

العبادة لله جَلَّوَعَلَا هي الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة. فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة؛ لأن الإنسان إذا كان ذله متجردا عن محبة كان يبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبة خالصة لا خوف معها فإن المحب الذي لا يداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي[2].

وعلامة المحبة الصادقة لله ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هي اتباعه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر ؛ إذ لو كان محبا له لأطاعه، ومن المعلوم

(١) العذب النمير (٢/١٥٢، ٤/ ٤٣٣). وانظر: الإسلام دين كامل – ضمن «محاضرات الشنقيطي» (١/ ١٧)، ومجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ١٢٣).

(٢) العذب النمير (٤/ ٤٦٥).

عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة[1]. ولايؤمن أحد حتى يكون صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ومن كل شيء كائنا ما كان. وكذلك محبة الله جَلَّ وَعَلَا، فالمسلم يحب الله جَلَّ وَعَلَا ويحب رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. واعلموا أن العلامة الواضحة لمحبة الله ورسوله هي امتثال أمر الله واجتناب نهي الله فيما بلغه عنه رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا هو علامة المحبة.

واعلموا أن كل من يدعي محبة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يخالفه أنه كذاب، كذاب، لا يحب الله ولا رسوله، ومن يخالف الله فالحب منتقص بقدر المخالفة، والمحب جداً لا يخالف محبوبه، فعلامة حب الله وحب رسوله الواضحة والشهادة به القاطعة هي اتباع ما جاء عن الله على لسان رسوله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فمحبة الله ومحبة رسول الله علامتها القاطعة اتباع رسول الله، فكل من يدعي أنه يحب الله ويحب رسول الله ويرتكب الأمور المخالفة لما جاء به رسول الله عن الله فهو كذاب، كذاب، كذاب في دعواه المحبة. وهذا أمر معروف عند الناس؛ لأنه من الجبلة المعروفة عند العامة أن المحبة تقتضي الاتباع [2].

والمودة والتراحم بين المسلمين واجبة فيما بينهم. قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]. وفي الحديث « مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم،

(١) أضواء البيان (١/ ١٩٩). استنبط الشيخ عطيه سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين تحدث عن منطق الجماد بالتسبيح، واستشهد بما أورده مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموطأ لما رجع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سفر طلع عليهم أحد فقال: (هذا جبل يحبنا، ونحبه). قال الشيخ عطيه سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا جبل من كبار جبال المدينة يرتحف لصعود النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فيخاطبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطاب العاقل المدرك: (اثبت أحد؛ فإن عليك نبيا، وصديقا، وشهيدين)، فيعرف النبي، ويعرف الصديق، والشهيد فيثبت، فبأي قانون كان ارتجافه؟ وبأي معقول كان خطابه؟ وبأي معنى كان ثبوته؟ ثم ها هو يثبت له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المحبة المتبادلة بقوله: (يحبنا، ونحبه)". انظر: أضواء البيان (٨/ ١٠).

(٢) العذب النمير (٥/ ٣٦٢).

وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[١] وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢]. والأحاديث في مثل هذا كثيرة جدا[٣].

وقوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. يستلزم الإنصاف بينهم وعدم الظلم لمحبة بعضهم بعضًا وقوة دينهم، فالمسلم رحيم بالمسلم، شديد على عدو المسلم. وإذا اجتمعت قوة الدين وصدق المحبة انتفى الظلم[٤]. وهذه عادة المسلم أن يكون شديداً عظيماً على الكافر، رحيماً رفيقاً ذليلاً على المسلم، هذه عادة المسلمين وصفات المسلمين[٥].

وعندما تحدث الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العدل بين الزوجات وما يتخلل ذلك من الميل القلبي والمحبة، ذكر أن العدل بينهن قسمان: عدل ممكن[٦]، وعدل غير ممكن. فأما غير الممكن فهو الذي ليس تحت طاقة البشر ولا يقدر عليه، وهو المساواة بينهن في المحبة الطبيعية والميل النفساني؛ لأن المحبة ليست من الأفعال الاختيارية، وإنما هي من الانفعالات والتأثرات النفسانية التي لا تدخل تحت قدرة العبد. وهذا العدل في المحبة والميل الطبيعي النفساني لا يقدر عليه، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩]وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم بين أزواجه فيعدل، ثم يقول مبينا هذين القسمين: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا

(١) سبق تخريجه.
(٢)صحيح البخاري (١/ ١٢).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٧٠).
(٤) العذب النمير (٢/٥٤٤). المثل العليا في الإسلام (ص: ١٤٢).
(٥) العذب النمير (٥/ ٢٢١).
(٦) سبق الحديث عنه في قيمة العدل.

أملك»[(١)]. يعني الميل الطبيعي والمحبة؛ لأن هذا ليس تحت قدرة البشر، فالله جَلَّ وَعَلَا أباح للرجل أربع زوجات بشرط قدرته على العدل بينهن في الحقوق الشرعية، وإن كان الميل الطبيعي والمحبة النفسانية ليس بيده، إلا أن المساواة بالحقوق الشرعية هي في مقدوره، فإن كانت هذه أحب إليه طبيعة، وهو أميل إليها بالمحبة؛ فإنه يمكنه أن يسوي بينها وبين الأخرى، وينصف بينهما في الحقوق الشرعية كمال الإنصاف كما لا يخفى[(٢)].

الرحمة:

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجبول على الشفقة، وقد وصفه الله بالرأفة والرحمة بالمؤمنين.. وكان إذا امتنع الناس من الإيمان يأسف ويحزن حزناً شديدا ، ويضيق به صدره إعراضهم وتوليهم عن الحق؛ لما جبل عليه من الشفقة والرحمة، ولذا نهاه الله مرارا عن شدة أسفه وحزنه عليهم، فقال: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨][(٣)].

وأشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن الله مدح المؤمنين والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم في غاية اللين والرحمة للمؤمنين، وفي غاية الشدة والقسوة على الكفر[(٤)].

التواصي بالحق، والصبر، والمرحمة:

أشار الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلميذ الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تتمته لأضواء

(١) إسناده صحيح، كما قال ابن كثير في "التفسير" ٢/ ٣٨٢. وأخرجه ابن ماجه (١٩٧١)، والترمذي (١١٧٢)، والنسائي في "الكبرى" (٨٨٤٠).
(٢) العذب النمير (٤/ ٤٠٥).
(٣) العذب النمير (١/ ١٧٧، ١٨٦).
(٤) العذب النمير (٢/١٥٢).

البيان، عند تفسير سورة العصر، إلى أن القرآن حثّ على التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة. وبذلك تكتمل مقومات المجتمع المتكامل قوامه والقيم الفضلى؛ لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق، والاستقامة على الطريق المستقيم، وبالتواصي بالصبر، يستطيعون مواصلة سيرهم على هذا الصراط، ويتخطون كل عقبات تواجههم، وبالتواصي بالمرحمة: يكونون مرتبطين كالجسد الواحد، وتلك أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطاها في هذه السورة الموجزة. وبالله التوفيق[1].

الأمانة وحفظ العهد:

عند تفسير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: ٨]، ذكر أن من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس أنهم راعون لأماناتهم وعهدهم، أي: محافظون على الأمانات، والعهود. والأمانة تشمل كل ما استودعك الله، وأمرك بحفظه، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس، والعهود أيضا تشمل كل ما أخذ عليك العهد بحفظه، من حقوق الله، وحقوق الناس[2]، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من حفظ الأمانات والعهود جاء مبينا في آيات كثيرة[1].

---

(١) أضواء البيان (٩/ ٩٧).

(٢) يرعى المجتمع الغربي الأمانة وينادي بها، لكن من منطلق نفعي مادّي، ويسميها بميثاق الشرف، ويستوجب هذا المبدأ على الإنسان الغربي أن لا يغشّ أو يكذب أو يسرق، ولكن متى غابت عين الرقيب عنه، فإن خلق الأمانة يتلاشى. وقد تداولت وسائل التواصل الاجتماعي مساء السبت (١٤٤٢/١١/٢٣هـ)، مشهدين متفاوتين يحكيان خُلق الأمانة في المجتمع المسلم، والمجتمع الغربي. **ففي المشهد الأول:** بائع خضروات متجول في إحدى مدن المغرب العربي، سقطت بضاعته في منتصف الطريق، فهبّ لمساعدته جميع من في الشارع، وأعادوا بضاعته إلى عربته ولم يُسرق منها شيئاً. **وفي المشهد الآخر:** في إحدى المدن

الرفـــــــق[٢]:

يقرر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تمرد الكفار على ربهم وطغيانهم وعتوهم، وإعلانهم الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا، واستعمالهم جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته، وارتكاب ما يسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره، وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان، جعل مقابل ذلك عقوبة شديدة تناسب جريمتهم. فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلباً كليا. فأوجب على مالكيهم الرفق والإحسان إليهم، وأن يطعموهم مما يطعمون، ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، وإن كلفوهم أعانوهم كما هو معروف في السنة الواردة عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الإيصاء عليهم في القرآن في سورة النساء [٣].

الأمريكية، تعطّلت سيارة شركة (أمازونamazon)، فما كان من عابري الطريق، إلا أن قاموا بفتحها عنوة وسرقة ما فيها من بضائع وأمانات.

(١) أضواء البيان (٥/ ٣١٩).

(٢) يعلّمنا القرآن الكريم من قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أهمية تغليب جانب الرحمة والرفق، على العنت والمشقّة في جانب مهمّ من جوانب الحياة، ألا وهو النظام التعاقدي مع الأجير، فلا يكلّف مالا يطيق، قال جَلَّ وَعَلَا في معرض سرد قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع الشيخ الذي استأجره: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧]. قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن من مكارم الأخلاق، أن يحسن خلقه لأجيره، وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل". وهذا النظام سبق إليه الإسلام قوانين الغرب الوضعية التي لم تعرف حقوق العامل إلا مع اتفاقية (العمل الجبري)، سنة (١٩٣٠م)، و(اتفاقية حق التنظيم والمفاوضة الجماعية)، سنة (١٩٤٩م)، و(اتفاقية إلغاء العمل الجبري)، سنة (١٩٥٧م)، و(اتفاقية المساواة في الأجور)، سنة (١٩٥١م)، و(اتفاقية التمييز في الاستخدام والمهنة)، سنة (١٩٥٨م)، و(اتفاقية أسوأ أشكال عمل الأطفال)، سنة (١٩٩٩م).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٠).

ويشير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصة إبراهيم مع أبيه لمّا نصحه إلى ما فيها من الرفق واللين، وأن إبراهيم قابل جواب أبيه العنيف بغاية الرفق واللين، وذكر أنّ خطاب إبراهيم لأبيه هو خطاب عباده المؤمنين للجهال إذا خاطبوهم، وما ذكره تعالى من أن إبراهيم لما أقنع أباه بالحجة القاطعة، قابله أبوه بالعنف والشدة بين في مواضع أخر أنه هو عادة الكفار المتعصبين لأصنامهم، كلما أفحموا بالحجة القاطعة لجأوا إلى استعمال القوة[1].

التعـــــــــــاون[2]:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة مهمة، وهي أنه لا يجوز التوكيل إلا في شيء تصح النيابة فيه، فلا تصح في فعل محرم؛ لأن التوكيل من التعاون، والله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢][3].

ويشير إلى أهمية التعاون بين المسلمين في موضوع الاقتصاد، فذكر أنه يلزمهم في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض، على لسان النبي

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٤٢٧).

(٢) في آخر درس للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رمضان سنة (١٣٩٠ هـ) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمة هذا المجلس: «ونستودعكم الله، ونرجو أن تكون مجالسنا هذه من مجالس الخير، وأن نكون من الذين يتعاونون على البر والتقوى؛ لأنا نريد العمرة إلى مكة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» اهـ. انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٤/ ٢٢٣).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٣٠). قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويجوز التوكيل في المطالبة بالحقوق وإثباتها والمحاكمة فيها، سواء كان الموكل حاضراً أو غائباً، صحيحاً أو مريضاً. وهذا قول جمهور العلماء. قال الشيخ -عفا الله عنه- الذي يظهر لي والله تعالى أعلم في مسألة التوكيل على الخصام والمحاكمة: أن الصواب فيها التفصيل. فإن كان الموكل ممن عرف بالظلم والجبروت والادعاء بالباطل فلا يقبل منه التوكيل لظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء: ١٠٥]. وإن كان معروفاً بغير ذلك فلا مانع من توكيله على الخصومة، والعلم عند الله تعالى. انظر: أضواء البيان (٣/ ٢٣١).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعاً[1].

وحين تطرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسألة المصالح والمفاسد، ذكر أن من الذرائع التي أجمع العلماء على أن سده لا يجب؛ لأن المصلحة أرجح من المفسدة: مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد؛ لأن مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد بأن تكون هذه الدور متجاورة، هذه الدار فيها هذا الرجل وبناته وزوجاته وأخواته، وجاره الذي بجنبه معه أيضا بناته وزوجاته وأخواته؛ لأن المعاونة بين الرجال والنساء مصلحة عامة لا يستغني عنها العالم، فإن المرأة تقوم بشؤون خدمات البيت في خدرها وبيتها، فترضع الرضيع من الأولاد، وتحنو على الفطيم، وتؤانس المريض، وتقوم على شؤون البيت، وتكنس، وتعجن، وتخبز، فيأتي الرجل من عمله، أو من جهاده فيجد قرينه الآخر الكريم -الذي هو امرأته- قام له بجميع مصالح الدنيا، فهم محتاجون إلى هذا التعاون والاجتماع، مع أن اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد يكون ذريعة إلى وقوع الزنا من بعض الأفراد؛ لأن الرجل يمر من الطريق فتلقي إليه المرأة من الطاقة ورقة فيها موعد يجتمعان فيه، أو يعلو إلى السطح وهي على سطح فيتسايران، فهذا قد يقع منه الوصول إلى الزنا من بعض الأفراد، إلا أن هذه المفسدة التي تنشأ من اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد قد تنشأ من أفراد قليلة، وهي مغمورة في المصلحة العامة بمعاونة الجنسين التعاون الكريم، ولهذا لم يقل أحد من العلماء في جميع الدهر: إنه يجب سد هذه الذريعة، فيجب أن يعزل جميع الإناث من القرية، وأن يعزل جميع الذكور إلى جهة، وأن يكون جميع الإناث في حصن من الحديد عليه أبواب حديد قوية وأسلاك شائكة، لا يستطيع أحد خرقها،

(١) أضواء البيان (٦/ ٧٩).

وتكون المفاتيح في يد رجل شائب ذي زوجات معروف بالتقى والعفاف، لم يقل هذا أحد من العلماء! فهذه الذريعة ألغيت لهذه المصلحة التي هي أعظم منها[١].

والشيطان يسوؤه لعداوته للإنسان ما جاء به الإسلام من معاونة الرجل وامرأته على بناء أولادهما وأسرتهما، والمساعدة في مجتمعهما بأن يخرج الرجل؛ لأن فحولته وذكورته مناسبة للخروج، عظامه قوية وعضلاته قوية، وعيونه محمرة قوية لا يتلذذ به من رآه، وليس متعرضا للفتنة، يقوم في كدح الحياة لتحصيل شؤون الحياة، وفي الجهاد لرد الكفاح المسلح وإعلاء كلمة الله، ويترك قرينه الآخر الكريم وهو امرأته الكريمة العفيفة الصينة المطيعة لله جَلَّ وَعَلَا المحافظة على شرفها ودينها وكرمها، المبيضة وجه نفسها ووجه أسرتها، يتركها في بيته في صيانة وستر وعفاف فيجدها قائمة أحسن قيام، تحنو على الرضيع فترضعه، وعلى الفطيم فترحمه، وعلى المريض فتعالجه، وعلى شؤون البيت فتقوم بجميع مصالحها[٢]، فإذا جاء الرجل من عمله وجد قرينه الآخر الكريم قائما بأكبر مساعدة وأعظم معونة وأعظم تربية للأولاد الصغار، من تعليمهم الأدب ومبادئ الدين والإصلاح البيتي، فيجد قرينه الآخر الكريم قائما له بأعظم مساعدة على بناء الأسرة الخاص وبناء المجتمع العام؛ لأنه متركب من الأسر الخاصة، إلا أن الشيطان لعداوته لبني آدم يغيظه هذا التعاون الكريم الشريف النزيه، وبناء المجتمع من الطرفين على أكمل الوجوه وأتمها وأليقها بالشرف والمروءة[٣].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٣)، العذب النمير (٢/ ٩١)، (٣/ ٤٧٩)، (٤/ ٤١٢)، المصالح المرسلة (ص: ٤٧).

(٢) يرى المجتمع الغربي المعاصر أن قوامة الرجل في المجتمع المسلم تعبّر عن سلطة كبيرة مفرطة للرجل. انظر: الحضارة العربية، جاك ريسلر (ص: ٥٩). وهذا الرأي يعكس تصوراً خارجياً لم يتأت من خلال المعايشة داخل الأسرة المسلمة، فالمرأة بطبيعتها وخلقتها تبحث عن العيش في كنف الرجل الذي يحميها ويقوم على شؤنها، ولذلك تضطر الزوجة في الغرب إذا فقدت معنى القوامة إلى البحث عن صديق خارج إطار الأسرة.

(٣) العذب النمير (٣/ ٣٢٩). في المجتمع الغربي لا يتحرك الإنسان لإسعاد غيره طالما لا توجد له مصلحة ما، ولذلك يحذّر (بنثام) من أن "نتوقع من الآخرين أن يقوموا بعمل غيري لا مصلحة لهم فيه، ويقول: لا تحلم قط بأن الناس سيحركون خنصر أصابعهم لخدمتك إلا إذا كانت منفعتهم بتصرفهم هذا واضحة أمامهم،

النصيحة:

كل خالص لا شائبة فيه يسميه العرب (ناصحاً) والناصح: هو السالم من جميع الغش والخديعة. والأمين: هو الذي لا خيانة معه[١]. وعادة الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بعظم التذكير، وشدة النصح، ولطافة الأسلوب، والاجتهاد في هدى قومهم، ولكن الهدى بيد الله[٢].

وكان الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينصح للمسئولين، وإذا رأى ما لا ينبغي يكتب لهم، ويقول لهم دائماً: "أنتم أكرمكم الله بالحرمين، وما دمتم تتمسكون بهذا الدين فإن الله لن يضيعكم"[٣].

ومعلوم أن عمل الإنسان بما ينصح به غيره أدعى لقبول غيره منه، كما قال الشاعر:

فإنك إذ ما تأت ما أنت آمر ... به تلف من إياه تأمر آتيا[٤] [٥].

وعلى أن كل من تولى مصلحة اجتماعية عليه أن ينصح إخوانه المسلمين فيها، فالقرآن يذكر منه الآيات لينبه بها على غيرها[٦].

إنهم لم يفعلوا ذلك قط ولن يقدموا على فعله في مقبل أيامهم طالما كانت طبيعتهم البشرية مصوغة من مادتها الراهنة، ولكنهم يقبلون على خدمتك مختارين متى كان في ذلك تحقيق لخدمة أنفسهم، وما أكثر الفرص التي يمكنهم فيها أن يخدموا أنفسهم من خلال خدمتهم لك". انظر: مذاهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، د. توفيق الطويل (ص: ١٠٠).

(١) العذب النمير (٣/ ٤٨٢).

(٢) العذب النمير (٣/ ٤٩٠).

(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف (١/ ٢٧).

(٤) البيت بلا نسبة في شرح الأشموني (٣/ ٥٨٠)، وشرح قطر الندى (ص ٨٩)، والمقاصد النحوية (٤/ ٤٢٥).

(٥) أضواء البيان (٢/ ١٩٨).

(٦) العذب النمير (٢/ ٥١٥).

الأمر بالمعروف[١]:

تطرق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواطن كثيرة لبيان هذه الشعيرة العظيمة، وقد أفردتها في كتاب فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]، فأغنى ذلك عن تكراره هنا. وقد تضمن تمهيداً وتسعة عشر مطلباً[٣].

الطاعـــــة:

عرّف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ طاعة الله جَلَّ وَعَلَا بأنها امتثال أمره واجتناب نهيه[٤]. وأشار إلى أن الله جَلَّ وَعَلَا لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية، ولا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جَلَّ وَعَلَا[٥]. وفسّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدين في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] بطاعة الله بامتثال جميع الأوامر، أي: له جَلَّ وَعَلَا الطاعة والذل والخضوع دائما؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا، فإن الواحد منهم يكون مطاعاً له

---

(١) لقد أخذ الغرب أخذ بشيء من جوانب شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي إنكلترا اقتُرح عام (١٨٠١م) إنشاء جمعية لإزالة الرذيلة وتشجيع الدين والفضيلة، وجاءت في وثيقة قانونية ألمانية من عام (١٦١٦م) عبارة "الأمر بالحقّ والمنع من الظلم" بخصوص السلوك المطلوب من القاضي في إحدى المحاكم. وعرّف بلاكستون (ت: ١٧٨٠م) في مصنفه المشهور عن قوانين إنكلترا القانون البلدي بأنه [قاعدة للسلوك المدني تسنها السلطة العليا في الدولة، تأمر بما هو قويم، وتحظر ما هو سقيم]. **انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي، مايكل كوك (ص: ٧٧٩)**. ولأهمية الحسبة؛ فإن النصارى عندما أخرجوا المسلمين من الأندلس عام (١٤٩٢م) أبقوا على وظيفة الحسبة لفترة طويلة. انظر: مجلة العقيق (ص: ٨٤) عدد جمادى الثانية (١٤٢٣هـ).

(٢) طبعته ووزعته دار طيبة الخضراء في مكة المكرمة عام ١٤٤٣هـ.

(٣) العذب النمير (٢/ ٥١٥).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٤٧٥).

(٥) أضواء البيان (٢/ ٢٣٦).

السلطنة والحكم، والناس يخافونه ويطمعون فيما عنده برهة من الزمن، ثم يعزل أو يموت، أو يذل بعد عز، ويتضع بعد رفعة، فيبقى لا طاعة له ولا يعبأ به أحد، فسبحان من لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا[١].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]، أن الله جَلَّوَعَلَا نبّه من حملهم في السفينة مع نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على النعمة التي نجاهم بها من الغرق، ليكون في ذلك تهييج لذرياتهم على طاعة الله جَلَّوَعَلَا[٢].

ومن المسائل المهمة التي نبّه عليها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ شمول كلمة: «لا إله إلا الله» لجميع ما جاء في الكتب؛ لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده. فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة[٣].

وقرر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من اتبع هدى الله فآمن برسله، وصدّق كتبه، وامتثل ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه على ألسنة رسله، فإنه لا يضل في الدنيا، ولا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعروة الوثقى، ولا يشقى في الآخرة؛ لأنه كان في الدنيا عاملاً بما يستوجب السعادة من طاعة الله تعالى وطاعة رسله[٤].

وحين تطرق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبيان أحكام رمي الجمرات في الحجّ، ذكر أنّ الحكمة في الجملة هي طاعة الله، فيما أمر به وذكره بامتثال أمره على لسان نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥].

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٣٨٣).
(٢) أضواء البيان (٣/ ١٣).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٨).
(٤) أضواء البيان (٤/ ١٢٥).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٤٧٩).

وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن طاعة الله تعالى سبب للرزق[١]، وأن طاعة الله بالإيمان به، والعلم الصالح سبب للقوة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة[٢]، وأن طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعة الله[٣]. ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في نصوص الوحي، محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

والتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده، لأنه من خصائص الربوبية، فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومرضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جَلَّ وَعَلَا. وقد بين جَلَّ وَعَلَا في آيات كثيرة من كتابه أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى[٥].

والاعتراف لله جَلَّ وَعَلَا بأن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونحو ذلك مما ذكر في الآيات من خصائص ربوبيته جَلَّ وَعَلَا هو الحق، وهو من طاعة الله ورسوله، ومن تعظيم الله وتعظيم رسوله بالاقتداء به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تعظيم الله[٦].

ومن أنواع الصبر؛ الصبر على طاعة الله. ومن حبس نفسه على مكروهها في طاعة الله كان ذلك أكبر معين على الطاعة[١].

---

(١) أضواء البيان (٥/ ٥٣١).
(٢) أضواء البيان (٥/ ٥٥٣).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٣٠٢).
(٤) أضواء البيان (٧/ ٣٠٢).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٤٠٤).
(٦) أضواء البيان (٧/ ٤٠٥).

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الخروج عن طاعة الله جنس تحته نوعان:

أحدهما: الخروج الذي هو أكبر أنواع الخروج وأعظمها، وهو: الخروج عن طاعة الله بالكفر الصراح. هذا أكبر أنواع الفسق. **النوع الثاني من أنواع الفسق**: هو خروج دون خروج، وفسق دون فسق، بأن يخرج الإنسان عن طاعة الله إلى المعصية، خروجاً لا ينقله من اسم الإسلام إلى الكفر، كارتكاب الكبيرة[٢].

والخروج عن طاعة الله قد يكون أعظم أنواع الخروج وهو الكفر، وقد يكون خروجاً دون خروج وهو المعاصي، ومن هنا أطلق في القرآن الفسق على الكفر والمعاصي[٣].

وبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإسراف في الأكل والشرب يثقل البدن، ويعوق صاحبه عن الطاعة[٤]. وذكر أن طاعة الله كلها صلاح يستوجب المطيعون بها رحمة الله ونعيمه وعافيته[٥]. وشكر العبد لربه أن يستعمل جميع نعم الله فيما يرضي الله، فلا يستعمل حواسه إلا في طاعة الله[٦]. والمؤمنون إن ساروا في ضوء التعاليم السماوية، وكانوا في طاعة الله، وفي ذكر الله، وتقدموا صابرين في الميدان فإنهم لا يقوم أمامهم شيء، كما هو

---

(١) العذب النمير (١/ ٤٧، ٤٨).
(٢) العذب النمير (١/ ٢٨٧).
(٣) العذب النمير (٤/ ٥٩).
(٤) العذب النمير (٣/ ١٦٥).
(٥) العذب النمير (٣/ ٤٠٥).
(٦) العذب النمير (٤/ ٥٦٤).

مشاهد في التاريخ[1]. وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من عمارة المساجد طاعة الله فيها، واستدل بالآية في سورة التوبة[2].

المســـــــــاواة:

قرر القرآن مبدأ المساواة منذ ما يزيد على (١٤٠٠) عام، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وجاءت السنة لتبيّن التطبيق العملي لهذا المبدأ في أحاديث كثرة منها حديث المخزومية، وفيه قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها). صحيح البخاري (٥/ ١٥٢). وعن المعرور بن سويد، قال: لقيت أبا ذر بالربذة، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابيت رجلاً[1] فعيرته بأمه، فقال لي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم). صحيح البخاري (١/ ١٥). والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة. ولم تعرف النظم الوضعية هذا المبدأ إلا في آواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وقد طبّق الإسلام المساواة تطبيقاً شاملاً وعاماً، بخلاف النظام الوضعي الذي طبّقها تطبيقاً محدوداً بما يخالف شريعة الله وفطرته التي فطر الناس عليها، ويتجلى ذلك في مساواة الذكر بالأنثى في كل شيء، وغضت الطرف عن مساواة الأسود بالأبيض في الحقوق والمزايا. ففي الولايات المتحدة الأمريكية أهدرت المساواة بين الأفراد، وسادت التفرقة العنصرية، فحرم الزنوج –فترة من الزمن–بسبب لونهم وجنسهم من ممارسة

(١) العذب النمير (٥/ ٧٧).

(٢) مجالس مع الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ١٠٦). والآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. وانظر: من فتاوى العلامة محمد الأمين الشنقيطي (١/ ٩).

الأعمال الهامة المجزية مهما توفر فيهم من مهارة وثقافة، كما أنهم حرموا في فترة مضت من الانتفاع بالمرافق العامة التي تخصص للبيض كالمدارس والفنادق، كما أن المؤسسات والشركات الخاصة تمتنع عن تقديم خدماتها للزنوج والملونين، كل ذلك رغم صدور تشريعات بعض الولايات بتحريم التمييز العنصري(١).

١- **المساواة في الثروة والملكية:** أشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ابتزاز ثروات الناس بدعوى المساواة، فذكر أن تفاوت الناس في الأرزاق والحظوظ سنة من سنن الله السماوية الكونية القدرية، لا يستطيع أحد من أهل الأرض البتة تبديلها ولا تحويلها، بوجه من الوجوه ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ٤٣﴾ [فاطر: ٤٣]. وبذلك تحقق أن ما يتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجود الله ولجميع النبوات والرسائل السماوية إلى ابتزاز ثروات الناس، ونزع ملكهم الخاص عن أملاكهم، بدعوى المساواة بين الناس في معايشهم، أمر باطل لا يمكن بحال من الأحوال مع أنهم لا يقصدون ذلك الذي يزعمون، وإنما يقصدون استئثارهم بأملاك جميع الناس، ليتمتعوا بها ويتصرفوا فيها كيف شاءوا، تحت ستار كثير من أنواع الكذب والغرور والخداع، كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم وأحوالهم مع المجتمع في بلادهم(٢).

٢- **المساواة بين الذكر والأنثى:** وتطرق رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسألة المساواة بين الذكر والأنثى، فذكر أنه ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن الذكر والأنثى إذا تعاشرا المعاشرة البشرية الطبيعية التي لا بقاء للبشر دونها، فإن المرأة تتأثر بذلك تأثراً طبعيا كونياً قدرياً مانعاً لها من مزاولة الأعمال كالحمل والنفاس وما ينشأ عن ذلك من الضعف والمرض والألم، بخلاف الرجل فإنه لا يتأثر بشيء من ذلك، ومع هذه الفوارق لا يتجرأ على

(١) الحريات العامة، العيلي (ص: ٩٨).
(٢) أضواء البيان (٧/٣٠٤).

القول بمساواتهما في جميع الميادين إلا مكابر في المحسوس، فلا يدعو إلى المساواة بينهما إلا من أعمى الله بصيرته[1].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله تبارك وتعالى فرق بين الذكر والأنثى جبلةً وكوناً وقدراً وشرعاً، فمن يقول: "إن المرأة كالرجل في جميع الميادين، وأنها تزايل ما يزايله الرجل"، فهو مجنون كاذب مغلوب؛ لأنه يعاند القدر، ومن أراد أن يعاند قدر الله فهو المغلوب، مع أن المرأة التي يقولون إنها كالرجل في جميع الميادين بطبيعة حالها تمر عليها أوقات وهي لا تقدر على عمل، فهي في أوقات الحمل إذا صارت لها ستة أشهر ونحوها فإنها يثقلها الحمل، ولا تقدر على فعل شيء وفي بطنها إنسان، فأين هذه من الذكر؟!. الذكر لا يمكن أن يكون في بطنه إنسان، ولا يعجزه هذا الإنسان الذي في جوفه عن العمل، فأين الاتحاد، وأين المماثلة؟!. وكذلك إذا نفست فإن النفاس يمرضها ويضعفها، والرجل لا ينفس، فأين هذه المساواة، وأين هذا من هذا؟!. فهذه فوارق قدرية كونية، تترتب عليها فوارق شرعية وحسية، وهذا من المعلوم. فالحواجز والفوارق بين الرجل والمرأة موجودة عند نشأة الرجل الأول، وعند نشأة المرأة الأنثى؛ لأن المرأة الأنثى الأولى ما نشأت ولا وجدت وجوداً مستقلاً عن الرجل، بل خلقت من ضلع الرجل، فهي جزء منه، وجودها تابع لوجوده، مستندة في وجودها إليه، وهذا الأمر الكوني القدري الطبيعي الذي فعله خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير لوازمه سارية في جميع ميادين الحياة، والإفرنج يحاولون

(١) أضواء البيان (٤١٧/٧). في فرنسا -مثلاً- تختلط الذمة المالية للزوجة بذمة زوجها، وحتى إذا اختارت في عقد زواجها أن تكون ذمتها المالية منفصلة عن ذمة زوجها، فإن تصرفاتها المالية موقوفة على إجازته، وعلى ذلك فلا مساواة بينهما في التصرفات المالية، ثم إنها بمجرد الزواج تتخلى عن اسم أسرتها وتنتسب إلى زوجها. انظر: الحريات العامة، العيلي (ص: ٩٨).

أن يحطموا هذه الفوارق كلها وأتباعهم من الخفافيش. والغريب كل الغريب أنوثة الرجال وميوعة ضمائرهم.

وما عجب أن النساء ترجلت ... ولكن تأنيث الرجال عجاب[1][2]

والله جَلَّوَعَلَا خلق المرأة الأولى -التي هي مبدأ نشأة إيجاد النساء- خلقها من ضلع الرجل الأول؛ لتعلموا بذلك أن ابتداء نشأة الأنثى ومبدأ خلقها أنها لم تخلق مستقلة في الوجود عن الرجل، بل خلقت في أصل نشأتها الأولى التي أنشأها الله عليها وجودها تابع لوجود الرجل، ومستندة في وجودها على وجوده. وهذا الأمر أمر كوني قدري جبل الله عليه إيجاد الأنثى حيث أوجدها، وهذا الأمر الكوني القدري تحته لوازم عظيمة من عدم مساواة الرجل والأنثى في عشرات الميادين لعدم مساواتهما في النشأة الأولى والإيجاد الأول، فالرجل وجد ونشأ أولا مستقلا بوجوده عنها، لم يتوقف وجوده على وجودها، وهي في نشأتها الأولى وإيجادها الأول أنشئت جزءا منه، وجودها تابع لوجوده مستند إليه.

ولوازم هذه المسألة الكونية القدرية لم يهملها رب السماوات والأرض لأنه الحكيم الخبير، فتحت هذا الإيجاد الأول لوازم تابعة له كثيرة قد جاءت مبينة في الحس والعقل والشرع الكريم، نلم بشيء منها، وبهذا تعلمون أن ملاحدة الإفرنج الكفرة وأتباعهم من الخفافيش الذين يزعمون أنهم مسلمون، الذين يقولون: "إن الأنثى كالرجل في جميع الميادين"، يكذبون أولاً في النشأة الأولى والإيجاد الأول، فإنهما عندما أراد الله إيجادهما لم يبدأ إيجادهما بالتسوية، بل جعله إيجاداً متفاوتاً متبايناً، فجعل إيجاد هذا مستقلاً عن هذا، وجعل إيجاد هذا تابعاً لإيجاد هذا ومستنداً إليه، وهذا التبع الذي هو منشأ الأمر وأصله له لوازم رعاها الشرع جَلَّوَعَلَا ورعاها الحس والعادة، وهي أمور سنبين أطرافاً منها

(١) البيت لم أجد قائله.
(٢) أضواء البيان (٧/١١٤).

ليعلم الناس أن ما قدره الله في كونه وأزله أنه قد يراعه في شرعه، وأن من يريد أن يغالب قدر الله هو المغلوب؛ فالله جَلَّ وَعَلَا هو خالق هذا الكون، وهو المتصرف فيه بما شاء، وهو المميز بين أجزائه، والمخالف بين أنواعه، وما خالف الله بينه منها لا يمكن أحدا أن يماثله، ومن أراد أن يماثله فإنه مغلوب عاجز لا محالة، كما قال كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قريش:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب[1]

فمن لوازم كون المرأة تابع وجودها لوجود الرجل، ومستند عليه، ليس مستقلا له أنه كان الطلاق بيد الرجل لا بيد المرأة، ونسبة الأولاد إلى الرجل لا إلى المرأة، والرجل يفضل في الميراث على المرأة، والرجل يجمع بين امرأتين وثلاث وأربع، والمرأة لا تجمع بين رجلين ولا ثلاثة، إلى غير ذلك من الفوارق الشرعية، وهي حسية عقلية مستندة إلى فوارق كونية قدرية جبل الله عليها الجميع عندما أراد إيجاده، وسنلم ببعض الأطراف من هذا ليظهر للناس خزي فلسفة هؤلاء المتفلسفين الكفرة الفجرة ومن قلدهم من الخفافيش التي أعمت أنوار القرآن أبصارها.

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم[2]

يقولون مثلا: لم كان الطلاق بيد الرجل، ولم لم يؤخذ رأي المرأة فيه، وهذا ظلم من شرع الإسلام للمرأة؛ لأن ابتداء العقد أولاً لم يقع حتى أخذ رأيها فيه وأخذ رأيهما معاً، فمن أين أعطى الاستقالة للرجل وحده دون إذنها؟. ويفلسفون هذه الفلسفات.

ونحن نقول: إن كون الطلاق بيد الرجل هو الأمر المعقول الذي يشهد له الحس والفطرة والشرع، والنشأة الأولى؛ لأن من خلق الرجل وخلق المرأة هو خالق هذا الكون،

(١) ديوان كعب بن مالك (ص ١٨٢)، بلفظ : (جاءت سخينة كي تغالب ربها..)

(٢) منسوب للمتنبي، في المنصف (ص ٣٧٣)، ولابن الرومي، في: التمثيل والمحاضرة (ص ٣٧٤).

وهو أعلم بحقائقه وما يصلح كلا منه صرح في محكم كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه- أن النساء حروث ومزارع. ولو حاول الإفرنج ما حاولوا أن يكذبوا قوله: ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، لم يقدروا على كل حال؛ لأنه قول من خلق الجميع وفعله وكونه وقدره لا يمكن أحد أن ينفيه؛ لأن الرجل لم يكن في بطنه رحم يتربى فيها الولد، والنطفة المشاهدة أن تبذر في بطن المرأة، وأن تتربى فيها كما يتربى البذر في الأرض حتى يحصد تاماً، هذا أمر مشاهد يشهده الحس والعقل، لا يمكن المكابر أن ينكره. ومعلوم أن الحارث المزدرع فاعل، وأن الحقل المزروع مفعول به بطبيعة الحال وحقيقة الأمر الواقع المحسوس الذي لا يمكن أن ينكره المكابر. ومما يوضح هذا: أن آلة الازدراع -آلة التناسل- هي مع الرجل، فلو قلنا كما يقوله الإفرنج: إنه لا يتركها إلا برضاها، وأن ترضى مفارقته إياها، وصار مكرهاً عليها لا يريدها، فهو زارع مرغم على حقل لا يريد الزراعة فيه، فإنها لو أرادت أن تجامعه لتحصل منه على ولد فأنا أؤكد لكم أنها لا تقدر، ولا ينتشر ذكره، ولا يقوم إليها، ولا تقدر أن تأخذ البذر منه بحال من الأحوال، بخلاف الرجل الذي هو بطبيعة الحال فاعل، والذي هو زارع، فإنه قد يحبلها وهي كارهة، فتكون في أشد التمنع والكراهة ويرغمها ويقهرها فتحمل. وقد كان العرب يقولون: "إن المرأة التي حملت وهي مكرهة على الغشيان أن ولدها لا يطاق أبدا"، وهو أمر معروف عندهم مشاهد... فهذا يحبلها راغمة كارهة، وهي لا تقدر، فدل على أنه فاعل، وعلى أنها مفعول، والمباينة بين الفاعل والمفعول معروفة، ومن أراد أن يسوي بين الفاعل والمفعول فهو مطموس البصيرة ينكر القدر والأمور الحقيقية المحسوسة كما هو معروف.

وكذلك زعمهم أن تفضيل الرجل على الأنثى في الميراث أنه ظلم من الشرع؛ لأن الرجل والمرأة يدليان للميت بقرابة واحدة، فكيف تكون المرأة والرجل يمتان للموروث

بقرابة واحدة ونصيب الرجل أكثر من نصيب الأنثى؟! وهذا قولهم وفلسفتهم الشيطانية، والله جَلَّوَعَلَا في آية الصيف -أعني الآية الأخيرة النازلة في المواريث من آخر سورة النساء- بين جَلَّوَعَلَا فيها أن من سوى بين الذكر والأنثى في الميراث أنه ضال ولا شك في ذلك الضلال؛ لأن الله يقول: ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ﴿أَن تَضِلُّواْۗ﴾ كراهة أن تضلوا عن الطريق المستقيم، أو لأجل أن لا تضلوا. فالمسوي بينهما ضال بنص المحكم المنزل لا شك في ذلك، وإيضاح هذا بالمحسوس المعقول الذي لا يماري فيه إلا مكابر؛ أن الله جَلَّوَعَلَاجعل الذكورة بطبيعتها جمالاً وكمالاً وقوة خلقية، فنفس الذكورة جمال طبيعي، وكمال خلقي، وقوة طبيعية، كما أن الله جَلَّوَعَلَا أوجد الرجل -إيجاده الأول- إيجاداً مستقلاً، والأنوثة هي بحقيقة ذاتها وطبيعتها نقص جبلي خلقي، وضعف خلقي لا ينكره إلا مكابر، والله جَلَّوَعَلَا بين في كتابه أن الأنوثة أنها بطبيعة حالها ضعف جبلي ونقص خلقي منحط عن درجة الذكورة حيث قال: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾[الزخرف: ١٨]؛ أي أتجعلون لله ولدا وبعد ذلك تجعلون له أضعف الولدين وأنقصهما وأحوجهما إلى التكميل الذي ينشأ في الحلية من مدته وهو صغير.

وتنشئة الأنثى في الحلية: تثقب آذانها، وبعضهم يثقب أنفها، ويحطون لها الخلاخيل والأسورة والدماليج والثياب الجميلة، وسائر الحلي والحلل، ولا يفعلون شيئا من هذا للذكر. وهذا يدل على أنها جبلة طبيعية بشرية عامة أن جمال الذكورة وكمالها أغنى عن الحلي والحلل، وأن الضعف الملموس في الأنثى يحاول جبره بهذه الزينات ليجبر ذلك النقص، وقد صدق من قال:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفـــرا ... كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا (١)

كذلك قال في المرأة: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾؛ لأن أغلب طبيعة النساء أن المرأة لا تجابه ولا تقدر على مخاصمة فحول الرجال في الميادين التي تزدحم فيها الناس لضعفها الخلقي، ونقصها الجبلي. ومما يدل على أن هذا أمر جبلي مركوز في طبائع العقلاء؛ أن ضعف أركان المرأة وضعف عظامها ولينها وخنوثتها جمال فيها يستوجب محبتها ويزيد الميل إليها، وكذلك عدم إبانتها في الخصام من جميع محاسنها ولين أنوثتها الذي يجلب القلوب إليها بخلاف الرجال، وهذا كلام جاء في جبلات العقلاء فإنهم يشببون ويذكرون من محاسن النساء لينها وضعف أركانها، وعدم إبانتها في الكلام، ألا ترون إلى قول جرير وهو عربي فصيح:

إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله أركانا (٢)

فقوله: "وهن أضعف خلق الله أركانا"، مما يجر القلوب إليهن ويزيدهن محبة، وذلك يدل على أن الطبيعة كما ذكرنا، كذلك قال ابن الدمينة في امرأة لا تقدر أن ترد عن نفسها ما رميت به من ريبة:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ... لبعـــض الأذى لم يدر كيف يجيب

ولم يعتذر عذر البريء ولم يزل ... به سكتة حتى يقـــــال مريب (٣)

فشبب بها بهذا، وهذا الضعف الخلقي الجبلي أمر مشاهد لا ينكره العقلاء، فالإفرنج الذين يقولون: إن المرأة كالرجل في جميع الميادين ... يجعلون صبغ الحمرة على فم الأنثى ولا يجعلونه على فم الرجل، ألا ترون أنهم يضعون الحمرة على فم الأنثى ولا يضعونها على

(١) البيتان لابن الرومي. انظر: ديوان ابن الرومي (٢/١٠٠٧-١٠٠٨).

(٢) ديوان جرير (ص ٤٩٢).

(٣) ديوان ابن الدمينة الخثعمي (ص ١٣).

فم الرجل! ما هذا الفرق إلا لفوارق طبيعة جبل عليها عامة العقلاء حتى الإفرنج الذين عقولهم كعقول البهائم. فلما كانت الأنوثة ضعفاً خلقياً وعدم كمال جبلي، والذكورة كمال جبلي وقوة طبيعة خلقية، ولذا لا ترى ذكراً في الدنيا تثقب آذانه ليجعل فيها الحلي، ولا يثقب أنفه، ولا تجعل له الأساور والحلي ليكمل به؛ لأن شرف ذكورته وكمالها يكفيه عن التزين بالحلي. لما كان هذا النوع من أنواع الإنسان الذي خلق في مبدأ خلقه مستقلاً أقوى وأكمل من هذا النوع الآخر الذي خلق في مبدأ خلقه وجوده تابعا لوجود هذا ومستنداً إليه كما أجرى الله عادته وقدره بذلك كان اللازم أن يكون هذا القوي في خلقته الكامل في طبيعته، قائما على ذلك الضعيف بجبلته ليوصل له ما يعجز عن إيصاله من النفع لنفسه، ويدفع عنه ما يعجز عن دفعه من الضر عن نفسه، وهذا هو الأمر الكوني القدري المعضد بنور السماء ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] إنما جعل الرجال قوامين على النساء؛ لأن كمال الرجال بذكورتهم وقوتهم الطبيعية جعلتهم يقومون على النساء لضعفهن الخلقي الجبلي كما قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. فلما اقتضت طبيعة قوة الرجل وكمال ذكورته أن يكون قائماً على الأنثى، واقتضى ضعف الأنثى الخلقي، وعدم استقلالها في نشأتها، وتبعية وجودها في نشأتها لوجود الرجل، وعدم استغنائها عنه اقتضى ذلك أن يكون هذا الكامل القوي قائما على هذا الضعيف في خلقته ليدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من أنواع الضر، ويجلب له ما لا يقدر على جلبه من أنواع النفع وصار الرجال قوامين على النساء، ومن هنا صار الرجل يترقب النقص دائما؛ لأنه ينفق على نسائه، ويدفع لهن المهور، فهو يترقب النقصان دائما، والمرأة بحال طبيعتها ونقصها الجبلي تترقب الزيادة دائما، فإن المرأة تترقب رجلا يدفع لها مهرا ضخما ويقوم بلوازمها في الحياة من مطعم ومشرب ومأكل وملبس إلى غير ذلك، فالمرأة تترقب الزيادة والأخذ دائما،

والرجل يترقب النقصان والغرم دائما، والميراث ما تعبا فيه، ولا مسحا فيه عرقا، ملكهما الله إياه ملكا جبريا بحكمته وفضله، فاقتضت حكمة الخبير الحكيم العليم أن يؤثر مترقب النقص دائما ويكثر نصيبه على مترقب الزيادة دائما؛ ليكون في ذلك جبراً لبعض نقصه المترقب. ولو رأيت أحداً قد يعطي اثنين شيئاً وأحد هذين الإثنين يترقب النقص دائماً، وأحدهما يترقب الزيادة دائماً، وآثر في عطائه مترقب النقص ليجبر من نقصه لقلت: "أن تأثيره له حكمة واقعة موقعها على أحسن ما يكون"(١).

فعلينا معاشر المؤمنين أن نعلم أن بين الأنثى والذكر فوارق طبيعية جبلهما الله عليها لا يمكن لأحد أن يجهلها ولا يتجاهلها، ومن أراد أن يكسر هذه الحواجز التي بين الذكر والأنثى لبعدها وقوتها فهو ملعون في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: «لعن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»(٢). فالتي تترجل تحاول التشبه بالرجل في جميع الميادين هي ملعونة على لسان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها أرادت أن تحطم فوارق وحواجز وضعها خالق السماوات والأرض كونا وقدرا وشرعا لا يمكن لأحد أن يحطمها بوجه من الوجوه(٣).

والعجب كل العجب أن المرأة إذا ضُلّلت وسُفّه عقلها بالشعارات الزائفة، والفلسفات المضلة باسم التقدم، والحضارة، والتمدن ليضيع شرفها وتعرض للرذائل وضياع الشرف وسخط رب العالمين، فهي مع هذا تحاول أن تترجل، وأن تكون كالرجل في كل شيء، ولو كشفت ثيابها وكشف الرجل ثيابه لعلم أن هنالك مغايرة محسوسة طبيعية لا يمكن

(١) العذب النمير (٤/ ٣٩١).
(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٥٩).
(٣) العذب النمير (٤/ ٤٠١).

الإفرنج ولا أذناب الإفرنج أن يكسروها ولا يحطموها؛ لأنه قدر خالق السماوات والأرض وأفعال رب العالمين لا يمكن أن تكسر، ومع هذا فالمؤسف كل المؤسف أن الرجال يتأنثون وينماعون، ويترك الواحد حرمه -امرأته وبناته- ذاهبة في هذه التيارات المخزية الكافرة الفاجرة الملحدة.

فالعجب كل العجب أين ضاعت رجولة الرجال، وغيرة الرجال، وضمائر الرجال، أين ضاع هذا وتلاشى وانماع[1]؟! فالرجل إذا كانت حرمه تخرج مائدة لأعين الفجرة، متجردة من الدين والشرف وأخلاق الإسلام على فلسفات كاذبة خسيسة ملعونة جاء بها الإفرنج، كلها شعارات زائفة كاذبة: تمدن، حضارة، تقدم؛ ليضيع الشرف. ومعلوم عند الناس أن كل البلاد الإسلامية التي كانت متمسكة غاية التمسك، ورجالها فيهم غيرة على بناتهم، لما دخل عليها هذا التيار، وجاءتها هذه الشعارات: تمدن، حضارة، تق ومعلوم أن الله تبارك وتعالى فرق بين الذكر والأنثى جبلة وكونا وقدرا وشرعا، فمن يقول: إن المرأة كالرجل في جميع الميادين، وأنها تزايل ما يزايله الرجل فهو مجنون كاذب مغلوب؛ لأنه يعاند القدر، ومن أراد أن يعاند قدر الله فهو المغلوب، مع أن المرأة التي يقولون: إنها كالرجل في جميع الميادين بطبيعة حالها تمر عليها أوقات وهي لا تقدر على عمل، فهي في أوقات الحمل إذا صارت لها ستة أشهر ونحوها فإنها يثقلها الحمل، ولا تقدر على فعل شيء وفي بطنها إنسان، فأين هذه من الذكر؟! الذكر لا يمكن أن يكون في بطنه إنسان، ولا يعجزه هذا الإنسان الذي في جوفه عن العمل، فأين الاتحاد، وأين المماثلة؟! وكذلك إذا نفست فإن النفاس يمرضها ويضعفها، والرجل لا ينفس، فأين هذه المساواة، وأين هذا من هذا؟! فهذه فوارق قدرية كونية، تترتب عليها فوارق شرعية وحسية، وهذا من المعلوم. فقد بينا في هذه الآية أن الحواجز والفوارق بين الرجل والمرأة أنها موجودة عند نشأة

(١) انماع: الإماعة تحويل جامد إلى سائل المعجم الوسيط (٢/ ٨٩٤).

الرجل الأول، وعند نشأة المرأة الأنثى؛ لأن المرأة الأنثى الأولى ما نشأت ولا وجدت وجودا مستقلا عن الرجل، بل خلقت من ضلع الرجل، فهي جزء منه، وجودها تابع لوجوده، مستندة في وجودها إليه، وهذا الأمر الكوني القدري الطبيعي الذي فعله خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير لوازمه سارية في جميع ميادين الحياة(١).

الستر:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجوب ستر العورة في الصلاة، وأن ذلك مجمع عليه بين المسلمين. وقد دلت عليه نصوص من الكتاب، والسنة، ولا خلاف بين العلماء في منع كشف العورة أمام الناس(٢).

وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضوع مشاركة المرأة المسلمة في بناء المجتمع المسلم إلى أن الله تبارك وتعالى خلق المرأة -لما جبلها عليه من الطبيعة- مستعدة للمشاركة في بناء المجتمع الإنساني على أكمل الوجوه وأبدعها وأحسنها، ولا تقل خدمتها عن خدمة الرجل، إلا أن الله جعل تلك الخدمة التي تقوم بها المرأة لمجتمعها، جعلها في داخل بيتها في عفاف وصيانة وستر، ومحافظة على الشرف ومكارم الأخلاق، فهذه الخدمة التي قامت بها في داخل بيتها لا تقل عن خدمته هو في الخارج في ميدان الحياة، ومع هذا هي في صيانة وستر، ومحافظة على الشرف والفضيلة، ومرضاة لخالق السماوات والأرض جَلَّ وَعَلَا"(٣).

وفي إحدى محاضراته التي ألقاها اثناء رحلته إلى أفريقيا، وجه كلمة إلى عموم النساء في أقطار الدنيا، حثهن فيها على الالتزام بمكارم الأخلاق، والستر والعفاف والفضيلة(٤).

---

(١) العذب النمير (٤/ ٣٩١).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١١٥).

(٣) العذب النمير (٤/ ٣٩٩).

(٤) الستر قيمة عظيمة فُطرت البشرية عليها منذ خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قيام الساعة، ولا يختلف في ذلك إلا من انتكست فطرته، ولذلك فلا غرابة أن تُصدر محكمة فرجينيا في الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ

وبيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المرأة قد تضطر إلى أن تخرج من بيتها للعمل؛ كأن لا يكون لها زوج ولا قيّم يقوم بشؤونها، فلها أن تعمل، ولكن عليها أن تخرج في ستر وعفاف وصيانة وعدم ابتذال، وتزاول كل ما شاءت من الأعمال في ستر وعفاف، أما خروجها في حالات لا تليق بالشرف ولا بالفضيلة ولا بالإنسانية فهو أمر يعرق منه الجبين، ويخجل منه الإنسان[١].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٣] بيّن أن الحجاب واجب بدلالة القرآن على جميع النساء[٢].وأن على المرأة أن تستر جميع بدنها حتى وجهها، ثمّ ساق الأدلة على ذلك[٣]. وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ بعض أهل العلم أخذ من هذه الآية الكريمة[٤] وجوب ستر العورة، ويدل على قبح انكشافها،

(٢٠١٠/٧/٩م) قراراً يلزم مرتادي المحكمة بالتقيد بنظامٍ تضمّن جملةً من الآداب في الملبس، وألزمتهم بأن لا يرتادوا المحكمة إلا بملابس نظيفة مرتبة، وأن لا يدخلوها بملابس ممزقة، أو تكشف عن بعض أجزاء الجسد كالبطن، أو ظهور الملابس الداخلية، أو صدور النساء أو ظهورهنّ، كذلك منع دخول المحكمة بلباس الجنز أو السراويل القصيرة ..الخ. ويبدو أن هذا القرار صدر بعد أن رأت هيئة المحكمة أزمة أخلاقية تمثلت في تجاوز مرتادياها، والإسفاف في اللباس. وفي ظل طُغيان المادة، وهيمنة الوضعية على الأمم والشعوب، فكل أمة تلزم شعبها على نظامها الذي وضعته، فما يعتبره المسلمون حسنًا في شريعتهم الإسلامية، قد يعتبره آخرون خلاف ذلك، فالمسلمون في نظامهم الأخلاقي – مثلًا– يعتبرون العفة في الفتى والفتاة خلقاً كريماً، ينبغي أن يُربى وينمى ويحافظ عليها، ولكن هذه العفة في بعض مجتمعات العالم الغربي شذوذ، فالفتاة التي لا تمارس الزنا بعد بلوغها، ينظر المجتمع إليها أنها تعاني مشكلة نفسية، والحياء والستر عند المسلمين خلق كريم، بينما هو في بعض المجتمع الغربي كبت وتقييد ذميم.

(١) مجموعة المحاضرات للشيخ ضمن كتاب الرحلة إلى أفريقيا (ص ٦٠).

(٢) أضواء البيان (٦/٢٤٣).

(٣) أضواء البيان (٦/٢٤٨).

(٤) قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وأنه ينبغي بذل الجهد في سترها، وكذلك لا خلاف بين العلماء في منع كشف العورة أمام الناس[١]، وسميت العورة سوءة لأن انكشافها يسوء صاحبها[٢].

(١) أضواء البيان (٤/١١٥).
(٢) أضواء البيان (٤/١١٤).

المطلب العاشر

الأخلاق المذمومـــــــــــة

سبقت الإشارة إلى أن أسس القيم والأخلاق أربعة: **الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة.** ويقابلها رذائل أربعة، هي: **الجهل، والشره، والجبن، والجور.**

وأشير في هذا المطلب إلى ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بشأن هذه الرذائل المستقبحة.

الجهـــــــل:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأحسن تعاريف الجهل عند علماء الأصول: أنه هو انتفاء العلم بما من شأنه أن يقصد ليعلم، وللعلماء فيه أقوال متعددة محل ذكرها في فن الأصول"(١).

وقد استعاذ نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بربه جَلَّ وَعَلَا من أن يكون معدودا، وفي عداد الجاهلين. والآية(٢) تدل على أن من يستهزئ من الناس أنه جاهل(٣).

ومن لم يكن عنده من علم الكتاب إلا قراءة ألفاظ لا يفهم ما تحتها من المعاني فهذا جاهل لا علم عنده(٤).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القرآن نور يكشف الله به ظلمات الجهل والشك والشرك، كما تكشف بالنور الحسي ظلمات الدجى، وأنه يزيل ظلمات الجهل والشك كما يزيل النور الحسي ظلمة الليل(٥).

ومن ظنَّ أن صفةَ خالق السموات والأرض تشْبهُ شيئًا من صفات الخلق، فهذا مجنون جاهل ملحد ضال(٦).

الذي يستحيي من البشر الضعاف الذين لا يقدرون أن يضروه، ولا يستحيي من خالق السماوات والأرض، فهو مجنون جاهل(٧).

---

(١) العذب النمير (١/ ١٢٤، ١٩٤).

(٢) قوله تعالى حكاية عن نبيه موسى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧].

(٣) العذب النمير (١/ ١٢٤).

(٤) العذب النمير (١/ ١٦٦)، و مجالس مع فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ص: ٢٥٢).

(٥) أضواء البيان (١/ ١٥، ٣٢٤).

(٦) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص: ٨٨).

(٧) العذب النمير (٢/ ٤٨٤).

والإعراض عن الجاهلين خلق سماوي أمر الله به نبيه ليعلم خلقه هذا الخلق الكريم، والأدب السماوي العظيم، أنه إذا جهل عليك جاهل فأساء إليك أن تعرض عنه ولا تأخذه بزلته[١].

ومن الجهل؛ استعجال العذاب، فلا يستعجل به إلا جاهل[٢]. ولا يعصي الله أحد إلا هو متصف بجهالة؛ لأن المعاصي غالباً لا تحمل عليها إلا أغراض دنيوية عاجلة، ومن آثر هذا الغرض الدنيوي العاجل على ما عند الله جَلَّوَعَلَا فهو جاهل، وإن كان في الجملة يعلم أن فعله هذا حرام، وأنه عالم بما يأتي، فلا بد أن يكون جاهلاً من تلك الحيثية. وكل من وقع في أمر لا ينبغي تقول له العرب: «جاهل»، و «وقع فيه بجهل»، وهو كلام معروف في كلام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

على أنها قالت عشية زرتها .. .. جهلت على عمد ولم تك جاهلا[٣]

تعني أنه فعل ما لا ينبغي أن يفعل، وهذا معنى قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾[الأنعام: ٥٤][٤].

ومن الجهل؛ الكلام في أثناء الصلاة، فإنه استهزاء بخالق الكون، وتمرد على نظام السماء، وعدم اهتمام بأعظم دعيمة من دعائم الإسلام، ولا يفعله إلا جاهل ينزغ فيه الشيطان[٥].

وتطرق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسألة مهمة في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا وهي أنه يشترط في الآمر بالمعروف أن يكون له علم، يعلم به أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر؛ لأنه إن كان جاهلاً بذلك فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهى عما ليس

(١) العذب النمير (٤/ ٤٤٢).
(٢) أضواء البيان (١/ ٤٨٠).
(٣) البيت للنمر بن تولب في ديوانه (ص ٣٤٢).
(٤) العذب النمير (١/ ٣٤٦).
(٥) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ١٢٧).

بمنكر، ولاسيما في هذا الزمن الذي عم فيه الجهل وصار فيه الحق منكراً، والمنكر معروفاً. وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الداعي إلى الله لا بد أن يكون على بصيرة، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة، وحسن الأسلوب، واللطافة مع إيضاح الحق، فإن كانت دعوته إلى الله بقسوة وعنف وخرق، فإنها تضر أكثر مما تنفع، فلا ينبغي أن يسند الأمر بالمعروف إسنادا مطلقا، إلا لمن جمع بين العلم، والحكمة، والصبر على أذى الناس؛ لأن الأمر بالمعروف وظيفة الرسل، وأتباعهم، وهو مستلزم للأذى من الناس؛ لأنهم مجبولون بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة، وأغراضهم الباطلة، ولذا قال العبد الصالح لقمان الحكيم لولده، فيما قص الله عنه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ ﴾ [لقمان: ١٧]، ولما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لورقة بن نوفل: «أومخرجي هم؟» ، يعني قريشا، أخبره ورقة: أن هذا الدين الذي جاء به لم يأت به أحد إلا عودي، وروي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنه قال: «ما ترك الحق لعمر صديقا»(١). واعلم أنه لا يحكم على الأمر بأنه منكر إلا إذا قام على ذلك دليل من كتاب الله تعالى، أو سنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أو إجماع المسلمين(٢).

وقدّ نبّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما يزعمه البعض من أن تعدد الزوجات من التشريع الذي ليس بطيب. كل هذا قصور وجهل منهم؛ لأن تعدد الزوجات فيه مصلحة المرأة، ومصلحة

(١) في كشف الخفاء (٢/ ٢٥٧) قال العجلوني: قال النجم: هذا غير معروف في كتب الحديث في حق عمر لا عنه ولا عن غيره، وإنما رواه ابن سعد من قول أبي الدرداء في حق نفسه. وقال العجلوني في موضع آخر (١/ ٤٣٤): قال ابن عبد البر: وعن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: (الحق ثقيل، رحم الله عمر بن الخطاب تركه الحق ليس له صديق)، قال: وفي معناه ما في كتاب روح القدس في مناصحة النفس للشيخ الأكبر بلفظ: وقد ثبت أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: (ما ترك الحق لعمر من صديق)، هكذا لفظه من غير ذكر مخرجه وصحابيه، فلينظر.

(٢) أضواء البيان (١/ ٤٦٣).

الرجل، ومصلحة المجتمع، فهو تشريع سماوي يشمل جميع المصالح[١].

ودين الإسلام صالح لتنظيم أحوال البشرية في جميع أطوارها واتجاهاتها، ومعلوم أن المصالح التي يدور حولها التشريع ثلاثة: الأولى: درء المفاسد، والثانية: جلب المصالح، والثالثة: الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات. ودين الإسلام متضمن من المحافظة على تلك المصالح ما لا يخفى إلا على جاهل[٢].

الشـــــــره، والطمع، والحرص:

الشرة والطمع من صفات المنافقين، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٨ – ٥٩]. قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ثم إن الله بين قبائحهم وفضحهم بأن هذا القول الذي تجرؤوا عليه ما حملهم عليه إلا الطمع والشره ومحبة شيء يعطونه في خصوص أنفسهم؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾؛ فإن أعطوا من الصدقات رضوا ذلك العطاء وسكتوا وفرحوا ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ والمعنى: إذا لم يعطوا من الصدقات شيئاً فاجأ ذلك سخطهم، أي: غضبهم وعدم رضاهم. فبين الله أن سخطهم ورضاهم منوطان بمصلحتهم الخاصة إذا أعطوا شيئاً رضوا وفرحوا، وإذا لم يعطوا شيئا غضبوا وسخطوا. وهذه ليست حالة من يريد وجه الله ولا المصلحة العامة"[٣].

وقد دلت السنة الصحيحة على أنّ الكافر السمين العظيم البدن، لا يزن عند الله يوم

(١) العذب النمير (٣/ ٣٢٦).
(٢) رحلة الشنقيطي إلى إفريقيا (ص: ٨٨).
(٣) العذب النمير (٥/ ٥٨٣).

القيامة جناح بعوضة، قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية[١]: .. عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرءوا فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا»[٢]. وهذا الحديث يدل على أن نفس الكافر العظيم السمين لا يزن عند الله جناح بعوضة، وفيه دلالة على وزن الأشخاص... وفي هذا الحديث[٣] من الفقه ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية، المبتغى به الترفه والسمن. والسمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشره والدعة والراحة والأمن، والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام، وكل لحم تولد من سحت فالنار أولى به، وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل، فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم تنعمهم في كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان والقيام بوظائف الإسلام. ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائماً، وليله نائماً[٤].

والمعرض عن الدين يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة. ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة، والمسكنة بسبب كفره، وذلك من العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر الله. ولو تركوا الإعراض عن ذكر الله فأطاعوه تعالى فإن عيشهم يصير واسعاً رغدا لا ضنكاً[٥].

---

(١) قوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥].

(٢) صحيح البخاري (٦/ ٩٣).

(٣) نقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك عن القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٦٧).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٣٥٣).

(٥) أضواء البيان (٤/ ١٢٦).

الجُـــــــبن، والخوف:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. المقصود من هذه الآية الكريمة، تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، هانت عليه مبارزة الأقران، والتقدم في الميدان. وقد أشار تعالى أن هذا هو مراده بالآية حيث أتبعها بقوله: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٤]. وصرح بما أشار إليه هنا في قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ١٦]، وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال؛ لأنها تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه، ولو فرض نجاته منه فهو ميت عن قريب، كما قال قعنب ابن أم صاحب[١]:

إذا أنت لاقيت في نجدة .. .. فلا تتهيبك أن تقدما

فإن المنية من يخشهـــا .. .. فسوف تصادفه أينما

وإن تتخطك أسبابهـــا .. .. فإن قصاراك أن تهرما[٢]

وقال زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب.. .. تمته ومن تخطئ يعمـــر فيهرم[٣]

وقال أبو الطيب[٤]:

---

(١) قعنب بن ضمرة: وهو قعنب بن أم صاحب الفزاري، ذكره المدائني فيمن ينسب إلى أمه من الشعراء. توفي (نحو ٩٥ هـ) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩/ ٣٥٧)، و الأعلام (٥/٢٠٢).

(٢) نسب الدينوري، والجواليقي، والبغدادي، الأبيات لنمر بن تولب. انظر: المعاني الكبير في أبيات المعاني (٣/ ١٢٦٤)، وشرح أدب الكاتب (ص ١٨٦)، وخزانة الأدب (١١/ ١٠٠).

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى (ص ١١٠).

(٤) أبو الطيب أحمد بن الحسين، المعروف بالمتنبي، ولد بالكوفة، ونشأ بالشام، وأقام بالبادية، وطلب الأدب

وإذا لم يكن من المــوت بد .. .. فمن العجز أن تكون جبانا[١]

ولقد أجاد من قال:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمــة .. ..والمرء في الجبن لا ينجو من القدر[٢][٣]

وهذا هو المراد بالآيات المذكورة، ويؤخذ من هذه الآية عدم جواز الفرار من الطاعون إذا وقع بأرض وأنت فيها، وقد ثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي عن الفرار من الطاعون، وعن القدوم على الأرض التي هو فيها إذا كنت خارجا عنها[٤].

والخوف من الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله. وقد بين جَلَّ وَعَلَا في أن الشيطان يخوف المؤمنين الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه من الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]. والأظهر أن قوله: يخوف أولياءه حذف فيه المفعول الأول، أي: يخوفكم أولياءه، بدليل قوله بعده: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ الآية[٥].

والخوف في لغة العرب: الغم من أمر مستقبل. والحزن: الغم من أمر ماض. وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر.

وإطلاق الخوف على الغم أسلوب عربي معروف[٦].

وعلم العربية، وتعاطى قول الشعر في حداثته، حتى بلغ فيه الغاية، وأنهى فيه النهاية، وفاق فيه أهل عصره، توفي سنة (٣٥٤هـ). نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص ٢١٩)، تاريخ الإسلام (٨/ ٦٥) .

(١) ديوان المتنبي (ص ٤٧٤).

(٢) البيت بدون نسبة في: السحر الحلال في الحكم والأمثال (ص ٦٧).

(٣) أضواء البيان (١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٤) أضواء البيان (١/ ١٥٢).

(٥) أضواء البيان (٦/ ٣٦٤).

(٦) أضواء البيان (٧/ ١٤٠).

الجـــــــور:

نبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن أعظم الجور أن يشرك العبد مع خالق السموات والأرض معبوداً آخر، ومن أشرك بالله فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود؛ لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شؤونه.

ومن الجور مجاوزة الحد، ومنه أشط في السوم: إذا جاوز الحد، ومنه قوله تعالى:﴿وَلَا تُشۡطِطۡۖ﴾ [ص: ٢٢]، أو البعد، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تشط غدا دار جيراننا ... وللدار بعد غد أبعد(١)

ويكثر استعمال الشطط في الجور والتعدي، ومنه قول الأعشى(٢):

أتنتهون وإن ينهى ذوي الشطط ... كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل(٣).

ومن الجور؛ الغش والتطفيف في الكيل والوزن، ولذلك نبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى خطورة ذلك، فقال: فعلى من ولاه الله الكيل أو الوزن أن يحذر من الله، ويخاف من فضيحة الآخرة، ويوفي الكيل إيفاء تاما، ويوفي الميزان، ولا يغش وينصب فيستوفي لنفسه وينقص للناس، وهذا معنى قوله تعالى:﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[الأنعام: ١٥٢] القسط في لغة العرب معناه: العدل، والقسط -بالفتح- الجور، فالمقسطون من أهل الجنة، والقاسطون من أهل النار، كما قال تعالى:﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجن: ١٥]؛ لأن القاسط اسم فاعل القسط -بالفتح- من قسط الثلاثية، وهو الجائر الحائد عن الهدى، والمقسط: من القسط، وهو العدل. ومعنى كونه بالقسط؛ أي: بالعدل

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ٤٨).
(٢) انظر: ديوان الأعشى (ص ٦٣).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٢١٥).

التام، بحيث لا يزيد ولا ينقص، فلا يطلب المشتري زيادة على حقه، ولا ينقص البائع المشتري عن حقه، فليكن الحق كاملاً وافياً من غير زيادة ولا نقصان، وهذا معنى إيفائه بالقسط. ولما كان الإنسان قد يبالغ جهده في أن يوفي المكيل، وقد يتفاوت ذلك؛ فبعض المكاييل يبني عليه المكيل، ويرتفع بعضه فوق بعض، حتى يكون وافيا، وبعض الناس يجتهد في أن يفعل ذلك، ويختل عليه شيء من غير قصد منه، إذا كان الله يعلم صلاح نيته وقصده للإيفاء، إلا أنه وقع تقصير أو نقص من غير قصده، فهذا معفو عنه. فهذا الإيفاء في الكيل والوزن الذي كلفناكم به إنما نعني به حسب ما تستطيعون، فمن بذل مجهوده في إيفاء الكيل والوزن ثم وقع نقص من غير قصده فهو معفو عنه؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، هذا سبب نزول الآية، وهي عامة؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، أي: طاقتها، وهو الشيء الذي في طاقتها وقدرتها لا تعجز عنه، ولا يشق عليها مشقة عظيمة، وهذا من التسهيل على هذه الأمة، لا يكلفها الله ما أخطأت فيه وما نسيت(١).

وقد اقتضى التشريع الإسلامي -بما اشتمل عليه من الحكم الباهرة وحفظه المصالح العامة- صيانة المال والمحافظة عليه بأحكم الطرق وأحسنها وأقومها؛ ولذا حَرَّم على المسلم أن يأخذ شيئًا من مال أخيه إلا عن طِيب نفس منه، وحرَّم استلاب الأموال وابتزاز ثروات الأغنياء. وقد نهى الله جل وعلا خلقه في كتابه أن يجعلوا كون هذا غنيًّا وهذا فقيرًا ذريعة للجور وعدم العدل، ونهى الله جَلَّوَعَلَا عن الجور في الشهادة، ونهى أن تشهد للفقير على الغني لضعف الفقير وقوة الغني. وصرَّح بأنه هو أولى بهما منك. وبهذا تعلم أن الذي يأخذ مال الغني غصبًا، بدعوى أنه يعطيه للفقير ليساوي بينهما أنه متمرد على النظام السماوي، معترض قسمة خالق السموات والأرض التي تولاها بنفسه لحكمته

(١) العذب النمير (٢/ ٥١٦).

البالغة. والآيات الكريمة والأحاديث النبوية الدالة على حُرْمة مال المسلم ودمه وعرضه أظهر وأكثر من أن نحتاج للتعرض لها.

ولأجل صيانة المال والمحافظة عليه أوجب الله جَلَّوَعَلَا قطع يد السارق، فالله جَلَّوَعَلَا خلق له تلك اليد لتكون أعظم عونٍ له على عمل الخير والمعاونة على البر والتقوى. فلما مدها إلى تلك الرذيلة، التي هي السرقة، التي هي في غاية السقوط والانحطاط والتدنس والتقذر صارت تلك اليد في نظر الشرع الكريم كالعضو الفاسد الذي يُخْشى من بقائه فساد البدن كله، فقَطْعه وإزالته كعملية تطهيرية تصح بها بقية البدن وتطهره[1].

الفســـــــــق:

الفسق من أسوء الأخلاق، وهو: الخروج عن طاعة الله، كما قال تعالى:﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠] أي: خرج عن طاعة ربه. هذا هو معنى الفسق.

والخروج عن طاعة الله قد يكون خروجاً أعظم وهو الخروج المخرج عن دين الإسلام، وقد يكون خروجاً دون خروج وهو الفسق بارتكاب كبيرة. ولأجل هذا المعنى كان الفسق يطلق في القرآن على الخروج عن طاعة الله بمعناه الأعظم وهو الكفر بالله، وقد يطلق الفسق على خروج دون خروج بارتكاب بعض الكبائر[2].

---

(١) منهج التشريع الإسلامي وحكمته، الشنقيطي (ص: ٧١).

(٢) العذب النمير (٢٨٤/٤). قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والخروج عن طاعة الله جنس تحته نوعان: **أحدهما**: الخروج الذي هو أكبر أنواع الخروج وأعظمها، وهو: الخروج عن طاعة الله بالكفر الصراح. هذا أكبر أنواع الفسق. وكثيرا ما يطلق في القرآن اسم (الفسق) على هذا؛ لأنه صرح بأنهم كذبوا بآيات الله، وهذا أعظم الكفر، ثم سمى هذا الكفر فسقا بقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة: ٥٩]؛ لأنه أعظم أنواع الخروج عن طاعة الله. ومنه بهذا المعنى قوله:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾

وكون الفسق يطلق على الخروج معروف في كلام العرب، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يهوين في نجد وغورا غائرا ... فواسقا عن قصدها جوائرا (١)

فقوله: «فواسقا عن قصدها» أي: خوارج عن طريق القصد إلى طريق آخر(٢).

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تنبيه.. في هذه الآية الكريمة(٣) سؤال معروف، وهو أن يقال: إن الله أسند الفسق فيها لخصوص المترفين دون غيرهم في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ مع أنه ذكر عموم الهلاك لجميع المترفين وغيرهم، في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ يعني القرية، ولم يستثن منها غير المترفين؟.

والجواب من وجهين:

[السجدة: ٢٠]. هذا الفسق بمعنى الخروج الأكبر، أي: الخروج عن طاعة الله بالكفر والعياذ بالله. **النوع الثاني من أنواع الفسق**: هو خروج دون خروج، وفسق دون فسق، بأن يخرج الإنسان عن طاعة الله إلى المعصية، خروجا لا ينقله من اسم الإسلام إلى الكفر، كارتكاب الكبيرة. ومنه بهذا المعنى قوله في القاذفين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾[النور: آية ٤] فهذا القذف خروج عن طاعة الله، ولم يبلغ بصاحبه الكفر، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ﴾[النور: آية ١١]، ولم ينقلهم عن اسم المسلمين بسبب قذفهم. ولا يقال: إن عبد الله بن أبي منهم، وإنه منافق كافر؛ لأن دين الإسلام يحكم له بشهادة أن لا إله إلا الله في الظاهر، فكان يحضر جمعات المسلمين وجماعاتهم باسم الإسلام، فالله جَلَّ وَعَلَا يقبل من المنافقين كلمة (لا إله إلا الله) ظاهرا، كما أرادوا أن يخدعوه فهو يخدعهم حيث يقبلها منهم ظاهرا في الدنيا، وهو يعد لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[النساء: آية ١٤٢]". انظر: العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (١/ ٢٨٧).

(١) الدر المصون (١/ ٢٣٤).

(٢) العذب النمير (١/ ١١٩).

(٣) قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

الأول: أن غير المترفين تبع لهم، وإنما خص بالذكر المترفين الذين هم سادتهم وكبراؤهم؛ لأن غيرهم تبع لهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وكقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

الوجه الثاني: أن بعضهم إن عصى الله وبغى وطغى ولم ينههم الآخرون فإن الهلاك يعم الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وفي الصحيح[1] من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أنها لما سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» - وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها - قالت له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»[2].

الاستهزاء برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بشعائر الإسلام:

من قبيح وأقبح الأخلاق أن يستهزئ إنسان برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو بدين الله جَلَّ وَعَلَا. وقد نبّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ذلك فذكر أن عدم احترام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشعر بالغض منه، أو تنقيصه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ردة عن الإسلام وكفر بالله جَلَّ وَعَلَا. وقد قال تعالى في الذين استهزءوا بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦][3].

وبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ اتخاذ دين الله هزواً ولعباً ولهواً انتشر في أقطار الدنيا، ولا سيما من

(١) صحيح البخاري (٤/١٣٨).
(٢) أضواء البيان (٣/٧٨).
(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٠٣).

الشباب الذين يتسمون باسم المسلمين إذا رأوا رجلاً يذهب إلى الصلاة يصلي سخروا منه وهزؤوا به، وإذا رأوا رجلاً متسماً بسمت الإسلام، أو عليه سَمْت الإسلام، أو ينادي باسم الدين يقولون: هذا رجعي، هذا رجل لا يفهم، هذا لا يساير ركب الحضارة! ويتخذون العلماء، وحملة الدين، والنور السماوي، وتعاليم الدين يسخرون منها، ويضحكون ويستهزئون، فليحذروا من الاستهزاء بدين الله، ومن اتخاذ آيات الله هزوا ولعبا؛ لأن ذلك أمر عظيم عند الله [1].

وقد نهى الله جَلَّوَعَلَا في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ [الحجرات: ١١] عن السخرية من الناس، مبيناً أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر. ومن أقبح القبيح استخفاف الدنيء الأرذل بالأكرم الأفضل، واستهزاؤه به. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية جاء ذم فاعله وعقوبته عند الله في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة: ٧٩]. والكفار المترفين في الدنيا كانوا يسخرون من ضعاف المؤمنين في دار الدنيا، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين: ٢٩ – ٣٦]. فلا ينبغي لمن رأى

(١) العذب النمير (٣/ ٣١٠).

مسلماً في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف أن يسخر منه؛ لهذه الآيات التي ذكرنا[1].

وقد بيّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٩] أن الكفار كانوا إذا رأوا المؤمنين في الدنيا يحتقرونهم، ويسخرون منهم، ويغمز بعضهم بعضا فيقولون: هؤلاء الضعفاء الفقراء، والأعبد الموالي الذين لا يعبأ بهم أحد هم الذين يقول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إن لهم عند الله المكانة العظيمة، وأنهم خير منا، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: ٣٠]، أي: يغمز بعضهم بعضاً احتقاراً لضعفاء المؤمنين، كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا، ويتغامزون عليهم، ثم إنه يوم القيامة يكون أولئك الضعفاء في أعلى عليين، ويسخرون في ذلك الوقت من الذين كانوا يسخرون منهم، كما في قوله: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ [البقرة: ٢١٢] [2].

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ أصحاب الأعراف يوبخون رؤساء أهل النار، ويقولون لهم: أهؤلاء الضعفاء المساكين الذين كنتم تسخرون منهم في الدنيا، وتستهزئون بهم، وتضحكون منهم، وتقولون: الله أعظم من أن يعبأ بهؤلاء، والله لا يدخلهم جنة، ولا يدخلهم نعيما أبدا ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء المساكين الذين كنتم تستهزئون بهم في الدنيا وتسخرون منهم وتقسمون – تحلفون بالله – ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ ماذا قال لهم الله؟ قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾. وعلى هذا فيكون أصحاب الأعراف قد وبخوا رؤساء الكفر والقادة بأنهم لم يغن عنهم تكبرهم في الدنيا وجمعهم، وأن الضعفاء المساكين الذين كانوا

(١) أضواء البيان (٧/ ٤١٣).
(٢) العذب النمير (١/ ٣٢٧).

يسخرون منهم أحلهم الله دار كرامته، ونفى عنهم الخوف والحزن أبدا[1].

فعلينا أن نحذر من اتخاذ الدين هزؤا ولعبا؛ لأن الذين يتخذون الدين هزؤا ولعبا سيجدون غب ذلك. وأتباع هؤلاء كثروا في هذا الزمان والعياذ بالله؛ لأن كل نزعة كفرية تتجدد لها أغصان بعروقها القديمة، وهذه النزعة متجددة الآن تجدداً كثيراً؛ لأنك تجد كثيرا من الشباب في جميع أقطار المعمورة ممن ينتسبون إلى الإسلام يتخذون الدين هزؤا ولعبا، ويتمسخرون من الذي يصلي، ومن الذي يتسم بسمت الأنبياء، فهؤلاء ينالهم من وعيد الذين اتخذوا دينهم هزؤا ولعبا بقدر ما ارتكبوا. فيجب على كل مسلم شابا كان أو غيره أن لا يتخذ الدين هزوا ولعبا، وألا يتخذ الدين لهوا ولعبا، فلا يسخر من الدين، ولا يسخر من أهله، ولا يسخر من حملة الدين، ولا من العلماء، ولا من هيئاتهم. مع أن الذين يسخرون ذوقهم معكوس، وضمائرهم منطمسة؛ لأن هذا الذي يسخرون منه هو الشيء الذي ينبغي، وهم في الحالة التي يسخر منها، كما في أمثال العرب: (رمتني بدائها وانسلت)[2]. ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالاً للسخرية، فقال: "الآن إذا رأيت رجلاً ذقنه مثل ذقني، له لحية بيضاء موفورة لم تقطع منها شعرة، إذا سافر ورآه صبيان المسلمين وشبابهم في الخارج ينظرون إليه نظرة ازدراء واحتقار لا يفهم عن الدنيا، ولا يساير ركب الحضارة، مع أنه في الواقع أن الرجل المعفي ذقنه المتسم بسمة الأنبياء هو الرجل العاقل الآخذ بالسمت الكريم؛ لأن هذه اللحية هي أعظم ما يتميز به الذكر عن الأنثى، فحلقها والفرار منها فرار من كرم الرجولة وشرف الذكورة إلى أنوثة الخنوثة، يريد أن يتشبه

---

(١) العذب النمير (١/ ٣٣١).

(٢) قيل في مناسبة هذا المثل: أن سعد بن زيد مناة بن تميم كان تزوج رهم بنت الخزرج بن تيم الله، وكانت من أجمل الناس، فولدت له مالك ابن سعد وعوفا، وكان ضرائرها إذا سابينها يقلن: "يا عفلاء". فقالت لها أمها: إذا سابينك فأبدئيهن بعفال. فسابتها بعد ذلك امرأة من ضرائرها، فقالت: "يا عفلاء"، فقالت ضرتها: "رمتني بدائها وانسلت"، فأرسلت مثلا. أمثال العرب، المفضل بن محمد الضبي (ص: ٤٧).

بالأنثى!! وهذا شرف وكرم وجمال في وجهه، وميزة لفحولته وذكورته عن خنوثة الأنثى وضعفها. والرجال الكرام الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرى لم يكن واحد منهم يحلق شيئا من ذقنه، وكذلك سيد الخلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أجمل الناس، وأحسن الناس وجها، وأكثر الرجال نساء، ولحيته كثة معفاة، هي في غاية الجمال والكمال، فيجب على كل شاب وعلى كل مسلم أن لا يتمسخر من الإسلام، وأن لا يتخذ الإسلام لهوا ولعبا وأن لا يسخر من حملة الدين، ولا من هيئات العلماء، وليعلم أن هيئات العلماء هي السمت الذي كان عليه السلف الصالح، والصحابة الكرام، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سمت الأنبياء الكرام في ماضي الزمان. ومرادنا بهذا الكلام أن اتخاذ دين الله هزوا ولعبا ولهوا ولعبا انتشر في أقطار الدنيا، ولا سيما من الشباب الذين يتسمون باسم المسلمين إذا رأوا رجلا يذهب إلى الصلاة يصلي سخروا منه وهزؤوا به! يظنون أن الكرة رياضة خير من الصلاة، وإذا رأوا رجلا متسما بسمت الإسلام، أو عليه سمت الإسلام، أو ينادي باسم الدين يقولون: هذا رجعي، هذا رجل لا يفهم، هذا لا يساير ركب الحضارة!! ويتخذون العلماء، وحملة الدين، والنور السماوي، وتعاليم الدين يسخرون منها، ويضحكون ويستهزئون فليحذروا من الاستهزاء بدين الله، ومن اتخاذ آيات الله هزوا ولعبا؛ لأن ذلك أمر عظيم عند الله. والشاهد عندنا أن نحذر إخواننا المسلمين من أن يتخذوا دين الله وآيات الله هزوا ولعبا، لئلا يلحقهم ما لحق الكفار الذين اتخذوا دينهم هزوا ولعبا، فليحذر المؤمن كل الحذر أن يسخر من دين الله، وأن يستهزئ بآيات الله، وأن يسخر من حملة العلم ومن رجال الدين، وأن يتخذهم مسخرة ومضحكة، هذا لا ينبغي ولا يليق، فعلى المسلم أن يحترم الدين، ويعظم الدين، ويعظم كل ما جاء من ربه من الأوامر والنواهي، ويعظم العلماء وحملة العلم، والمتسمين بسمات العلم، ولا يحتقرهم، ولا يتخذهم هزوا. وإنما بينا هذا لكثرة ما نشاهد من شباب المسلمين في أقطار الدنيا،

يتخذون الدين مسخرة وملعبة ومضحكة، يضحكون ممن يصلي، ويستهزئون به، ويسخرون منه، ويتخذونه لهوا ولعبا كأنه مضحكة مسخرة!! هذا أمر خطير وعاقبته وخيمة. وقصدنا أن نحذر أنفسنا وإخواننا المسلمين منه، فعلينا أن نعظم آيات الله، ونحترم دين الله، ونحترم حملة الدين والعلماء المتصفين بحمل الدين، ولا نتخذهم لهوا ولعبا، ولا نسخر منهم، ولا نقلد عليهم التيوس إذا رأيناهم يعفون لحاهم، بل نعظمهم ونحترمهم؛ لئلا يلحقنا من الوعيد بقدر ما فعلنا من ذلك، فيجب على المسلم أن يكون محترما للدين، معظما لما جاء من الله، معظما لرجال العلم، محترما لرجال الدين، غير مستهزئ بالدين، ولا بحملة الدين، ولا متخذهم مسخرة، هذا هو اللازم[١].

الإفساد في الأرض:

الفساد في لغة العرب هو ضد الإصلاح، فكل أمر ليس على وجهه الصحيح الذي هو إصلاح تسمية العرب فاسدا[٢]. والإفساد في الأرض يشمل الشرك بالله وسائر المعاصي؛ لأن من أعظم الفساد في الأرض الشرك بالله. والشرك بالله ومعاصيه قد يحبس الله بسببها المطر فتموت الحبارى في وكرها، والجعل في جحره، بسبب ذنوب بني آدم[٣].

وأخطر أبواب الفساد في المجتمعات لهي عن المال أو الدم أو العرض، كما في الحديث في حجة الوداع: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا» إلى آخره[٤].

ومن الفساد في الأرض: قطع الدنانير، وإفساد السكة، وكل معصية لله وضرر على

---

(١) العذب النمير (١/ ٣٠٨).
(٢) العذب النمير (٥/ ٢١٨).
(٣) العذب النمير (٣/ ٤٠٤).
(٤) أضواء البيان (٩/ ١٨٥).

المسلمين وشرك بالله، جميع هذا من الفساد في الأرض الذي نهى الله عنه؛ لأن طاعة الله كلها صلاح يستوجب المطيعون بها رحمة الله ونعيمه وعافيته(١).

ومن الإفساد في الأرض؛ تلك الفكرة الخاطئة المخالفة للحس والعقل، وللوحي السماوي وتشريع الخالق البارئ من تسوية الأنثى بالذكر في جميع الأحكام والميادين التي فيها من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني ما لا يخفى على أحد إلا من أعمى الله بصيرته. وذلك لأن الله جَلَّ وَعَلَا جعل الأنثى بصفاتها الخاصة بها صالحة لأنواع من المشاركة في بناء المجتمع الإنساني، صلاحاً لا يصلحه لها غيرها، كالحمل والوضع، والإرضاع وتربية الأولاد، وخدمة البيت، والقيام على شؤونه. وهذه الخدمات التي تقوم بها للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر وصيانة، وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة والقيم الإنسانية، لا تقل عن خدمة الرجل بالاكتساب...فإذا خرجت هي وزوجها بقيت خدمات البيت كلها ضائعة: من حفظ الأولاد الصغار، وإرضاع من هو في زمن الرضاع منهم، وتهيئة الأكل والشرب للرجل إذا جاء من عمله، فلو أجروا إنسانا يقوم مقامها، لتعطل ذلك الإنسان في ذلك البيت التعطل الذي خرجت المرأة فرارا منه؛ فعادت النتيجة في حافرتها على أن خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين(٢). فمن جاء لأمور الناس وهي صالحة قائمة على أوامر الله وشرعه الذي جاءت به رسله وغير في ذلك وأفسد وأشرك وعصى فقد أفسد في الأرض بعد إصلاحها. وهذا هو الأظهر في معنى الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦](٣).

وذا انتشر الفساد في الأرض وكان الناس قادرين على أن يكفوه فلم يكفوه نزل البلاء

(١) العذب النمير (٣/ ٤٠٥).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٢٧).
(٣) العذب النمير (٣/ ٤٦٤).

فعم الصالح والطالح، كما جاء في الأحاديث الكثيرة، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾[الأنفال: آية ٢٥]. ومن أوضح ذلك حديث النعمان بن بشير الثابت في الصحيح[١] الذي ضرب فيه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مثلاً للناس إن أخذت على أيدي السفهاء، ومنعتهم من معاصي الله، وأمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، وإن لم تفعل ذلك، فضرب لهم مثلا بقوم استهموا على سفينة، فكان بعضهم في أسفل السفينة، وكانوا إذا أرادوا أن يشربوا من الماء صعدوا فمروا على من فوقهم، فقالوا: لا ينبغي لنا أن نصعد ونمر على من فوقنا بل نخرق السفينة مما يلينا، ونشرب مما يلينا فلا نصعد حتى نمر على من بأعلاها. فبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنهم إن تركوهم وما أرادوا وخرقوا السفينة دخل الماء فيها فامتلأت فغرق الجميع، وإن زجروهم وكفوا أيديهم نجوا ونجا الجميع. نقلنا الحديث بالمعنى، وهو حديث صحيح، ثابت في الصحيح مشهور[٢].

الغدر والخيانة:

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن التعاليم السماوية والكتب الإلهية في غاية العدالة والإنصاف، حتى مع الكفار حيث نهى الله جَلَّ وَعَلَا نبيه أن يحارب أعداءه الذين نقضوا العهد، وهم في غفلة، بل أمره أن يعلمهم وينبذ إليهم العهد علناً حتى يستوي الجميع في العلم بالحال الواقعة ليستعدوا للحرب والقتال، ولئلا يؤخذوا على غرة، فهذه مكارم الأخلاق والعدالة

(١) عن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عن النبي ﷺ قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا). صحيح البخاري، (١٣٩/٣) برقم (٢٤٩٣)

(٢) العذب النمير (٣/ ٤٠٦).

الكاملة[1]. ولا ينبغي للإنسان أن يخون، وهذا من مكارم الأخلاق، وغاية عدالة الكتب السماوية وإنصافها[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج: ٣٨].صرح جَلَّوَعَلَا في هذه الآية الكريمة: بأنه لا يحب كل خوان كفور، والخوان والكفور كلاهما صيغة مبالغة، والآية قد صرحت بأن الله لا يحب المبالغين في الكفر والمبالغين في الخيانة، ولم تتعرض لمن يتصف بمطلق الخيانة ومطلق الكفر من غير مبالغة فيهما، ولا شك أن الله يبغض الخائن مطلقاً، والكافر مطلقاً، وقد أوضح جَلَّوَعَلَا ذلك في بعض المواضع، وعلى كل حال فالهدى كل الهدى في كتاب الله وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والقرآن كفيل بتنظيم الحياة بجميع أنواعها، بتنظيم حياة الرجل في نفسه، وما يأمره أن يكون عليه من الصفات الكريمة من عدم الغش وعدم الخيانة[3].

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم؛ قطع يد السارق... وذلك أن هذه اليد الخبيثة الخائنة، التي خلقها الله لتبطش وتكتسب في كل ما يرضيه من امتثال أوامره واجتناب نهيه، والمشاركة في بناء المجتمع الإنساني، فمدت أصابعها الخائنة إلى مال الغير لتأخذه بغير حق، واستعملت قوة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر، وأخذ أموال الناس على هذا الوجه القبيح، يد نجسة قذرة، ساعية في الإخلال بنظام المجتمع، إذ لا نظام له بغير المال، فعاقبها خالقها بالقطع والإزالة، كالعضو الفاسد الذي يجر الداء لسائر البدن، فإنه يزال بالكلية إبقاء على البدن وتطهيرا له من المرض، ولذلك فإن قطع اليد يطهر السارق من دنس ذنب ارتكاب معصية السرقة، مع الردع البالغ بالقطع عن

(١) العذب النمير (٥/ ١٤١).
(٢) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٥٦).
(٣) أضواء البيان (٥/ ٢٦٢).

السرقة. وقد عرف من الشرع أن اليد فيها نصف الدية، ودية الذهب ألف دينار. فتكون دية اليد خمسمائة دينار، فكيف تؤخذ في مقابلة ربع دينار، وما وجه العدالة والإنصاف في ذلك؟. **فالجواب**: أن هذا النوع من اعتراضات الملحدين الذين يؤمنون بالله ورسوله، هو الذي نظمه المعري بقوله:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار (١)

وللعلماء عنه أجوبة كثيرة نظماً ونثراً ؛ منها قول القاضي عبد الوهاب مجيباً له في بحره ورويه:

عزّ الأمانة أغلاها وأرخصها ... ذل الخيانة فافهم حكمة الباري(٢)

وقال بعضهم: "لما خانت هانت". ومن الواضح: أن تلك اليد الخسيسة الخائنة لما تحملت رذيلة السرقة وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير كثمن المجن والأترجة، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك الشيء القليل، الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى. فانظر ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، والتنزه عما لا يليق، وقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدا يدل على أن التشريع السماوي يضع درجة الخائن من خمسمائة درجة إلى ربع درجة، فانظر هذا الحط العظيم لدرجته بسبب ارتكاب الرذائل(٣).

ومن أعظم الخيانة أن ينتهك الرجل عرض امرأة على وجه الخيانة والغدر، وذلك أن الزاني ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض، وتقذير الحرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله، ومن كان كذلك فهو

(١) البيت ليس في اللزوميات، ولا السقط للمعري، وهو منسوب للمعري في التعريفات (ص ١١٨).
(٢) البيت لعلم الدين السخاوي. انظر: معاهد التنصيص (١/ ١٤٣).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٣٢).

نجس قذر لا يصلح للمصاحبة[١]... وشدة قبح الزنى أمر مركوز في الطبائع، وقد قالت هند بنت عتبة وهي كافرة: "ما أقبح ذلك الفعل حلالاً، فكيف به وهو حرام". وتشريع الحكيم الخبير جَلَّوَعَلَا مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات[٢]. والله جَلَّوَعَلَا لا يحب المبالغين في الكفر والمبالغين في الخيانة[٣].

القُرب من الفواحش:

في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، سر عظيم، وتعليم كبير؛ لأنه لم يقل: (ولا تفعلوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)، لم ينه عن فعلها فحسب، بل نهى عن قربانها؛ لأن من قرب من الشيء قد يقع فيه، والراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وهذه الآية الكريمة من الأدلة القرآنية على وجوب سد الذرائع؛ لأن القرب من الشيء ذريعة للوقوع فيه[٤]، فإذا نهي عن القرب منه

---

(١) بسبب بعد المجتمعات الغربية عن الله جَلَّوَعَلَا فقد أفقدها ذلك كثيراً من القيم والأخلاق، فالخيانة –مثلاً– أصبحت تهدد العلاقات الزوجية في تلك المجتمعات، وقد ذكر المفكر الغربي (جيمس هاسيت) في كتابه (وجهات نظر في الشخصية الاجتماعية والحياتية والتكيف الشخصي) عام (١٩٨١م): أنه على الرغم من أن الغالبية العظمى من الناس يفضلون الأمانة كأحسن سياسة، إلا أنهم في الواقع قد يسلكون عكس ذلك، وعلى سبيل المثال هناك اتجاهات مزعجة لدى المجتمع الإنجليزي من الناحية الخُلقية عن العلاقات الغرامية، فقد أسفرت نتائج دراسة ميدانية قام بها (هاسيت) عن ارتفاع نسبة العلاقات الغرامية بعد الزواج، حيث أجاب (٦٨%) من أفراد العينة، بعدم موافقتهم على خداع الزوجة.

(٢) أضواء البيان (٣/ ٣٧).

(٣) أضواء البيان (٥/ ٢٦٢).

(٤) تعدّ تجارة الجنس في بلاد الغرب تجارة مربحة بالنسبة للمرأة، فقد نشرت قناة (dw) الوثائقية تقريراً وثائقياً عن تجارة الجنس والدعارة في قرية (لاجونكيرا) الأسبانية، والتي أصبحت محطة للباحثين عن الفاحشة تحت ما يسمونه السياحة الجنسية. كما نشرت القناة تقارير أخرى عن الدعارة القسرية في أوروبا، وإجبار النساء

كان ذلك سداً لذريعة الوقوع فيه، وقد أجمع العلماء على وجوب سد الذرائع في الجملة، ودل عليه في الجملة الكتاب، والسنة، والإجماع[١].

وتأملوا لم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل: (ولا تزنوا)؛ لأن النهي عن القرب منه يستلزم التباعد من جميع الوسائل التي توصل إليه، ولأن من قرب من الشيء كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه. فما أجمل تعاليم القرآن وآدابه السماوية، وما أحسن ما تدعو إليه من النزاهة والفضيلة والتباعد عن الرذائل[٢].

الفخر، والخيلاء، والرياء، والبطر، والكبر، والتجبر والتبختر:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله نهى المؤمنين أن يكونوا كالكفرة الفجرة أصحاب الفخر والخيلاء والرياء، فإن الفخر والخيلاء والرياء أوصاف ليست بأوصاف المسلمين. والبطر في لغة العرب: هو التكبر عن قبول الحق مع غمط الحقوق. وقال بعض العلماء: البطر: التكبر عن الحق مع غمط الناس حقوقهم، وقال بعضهم: البطر: سوء احتمال النعمة، فمن أنعم الله عليه نعمة وصار يعمل فيها عمل الإسراف فيما لا يرضي فهو من البطرين[٣].

عليها، بل ويبعهن في الخارج لممارسة الجنس مقابل المال. **انظر التقرير في اليوتيوب، بعنوان: جنس بسبب الفقر** (١٤٢٢/١١/٢٥هـ/ ٦:٠٠م). ويعود انتكاس الأخلاق لدى الإنسان الغربي إلى عدم إيمانه بالله جَلَّ وَعَلَا، وإلى إنكاره البعث والجزاء والثواب، فيعيش حياته في أزمة حقيقية في هذا الجانب، ومن ثمّ لا تجد جانباً أخلاقياً في تعامله مع غيره من الناس إذا كان ذلك يهدد مصالحه وملذاته وإشباع غرائزه، ولذلك لا يمانع الآباء في الغرب من اقتياد أبنائهم الصغار ليقدموهم لمن يمارسون الفاحشة مقابل حفنة من المال، وقد عرضت القنوات الفضائية تقارير وثائقية عن تجارة الأطفال في أوروبا وأمريكا.

(١) العذب النمير (٢/ ٤٧٥).

(٢) فتوى في تحريم التعليم المختلط (ص: ١٦١).

(٣) العذب النمير (٥/ ٩٠).

والإنسان يخرج من بطن أمه وحيداً فريداً، لا مال له حافياً عارياً لا نعال له ولا لباس، غير مختون، لا خدم له، ولا حشم، كذلك يخرج من قبره وحيداً فريداً متجرداً من الأبهة التي كان فيها، ليس معه خادم، ولا وزير، ولا مال، ولا نعل، ولا لباس، يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا [1].

وقد بيّن الله **جَلَّ وَعَلَا** في قوله: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣]، أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيرا ذليلاً، متصفا بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿ فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾، والصغار: أشد الذل والهوان، وقوله: ﴿ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ ﴾ [الأعراف: ١٨]، ونحو ذلك من الآيات. ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك. وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ [غافر: ٥٦] . وبين في مواضع أخر كثيراً من العواقب السيئة التي تنشأ عن الكبر، أعاذنا الله والمسلمين منه، فمن ذلك أنه سبب لصرف صاحبه عن فهم آيات الله، والاهتداء بها كما في قوله تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ومن ذلك أنه من أسباب الثواء في النار كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الصافات: ٣٥]، ومن ذلك أن صاحبه لا يحبه الله تعالى كما في قوله: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

(١) العذب النمير (١/ ٥٢٥)

يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النحل: ٢٣]، ومن ذلك أن موسى استعاذ من المتصف به ولا يستعاذ إلا مما هو شر، كما في قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر: ٢٧]، إلى غير ذلك من نتائجه السيئة، وعواقبه الوخيمة، ويفهم من مفهوم المخالفة في الآية: أن المتواضع لله **جَلَّوَعَلَا** يرفعه الله[١].

وقد أمر الله جَلَّوَعَلَا الإنسان أن ينظر مِمّ خُلِق في قوله: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ [الطارق: ٥]، وفي ذلك تنبيه له على حقارة ما خلق منه؛ ليعرف قدره، ويترك التكبر والعتو، ويدل لذلك قوله: ﴿ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٠]، وبين جَلَّوَعَلَا حقارته بقوله: ﴿ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المعارج: ٣٨ - ٣٩]، والتعبير عن النطفة بما الموصولة في قوله: ﴿ مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ، فيه غاية تحقير ذلك الأصل الذي خلق منه الإنسان. وفي ذلك أعظم ردع، وأبلغ زجر عن التكبر والتعاظم[٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان:١٨]. في الآية نهي عن التكبر على الناس[٣]. والصعر: الميل، والمتكبر يميل وجهه عن الناس متكبراً عليهم معرضا عنهم، والصعر: الميل، وأصله: داء يصيب البعير يلوي منه عنقه، ويطلق على المتكبر يلوي عنقه ويميل خده عن الناس تكبرا عليهم، ومنه قول عمرو بن حني التغلبي:

(١) أضواء البيان (٢/ ١٠).
(٢) أضواء البيان (٢/ ٣٣١).
(٣) أضواء البيان (٦/ ١٨٠).

وكنا إذا الجبار صعر خده .. .. أقمنا له من ميله فتقوما [١]

وقول أبي طالب:

وكنا قديما لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الرءوس نقيمها [٢]

ومن إطلاق الصعر على الميل؛ قول النمر بن تولب العكلي[٣]:

إنا أتيناك وقد طال السفر ... نقود خيلا ضمرا فيها صعر [٤][٥]

وإذا علمت أن معنى قوله:﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تتكبر عليهم، فاعلم أن الآيات القرآنية الدالة على التحذير من الكبر لكثرة عواقبه السيئة [٦].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ ﴾ [الإسراء:٣٧]، نهى الله جَلَّوَعَلَا الناس في هذه الآية الكريمة عن التجبر والتبختر في المشية، والتكبر على الناس[٧]. وقد بيّن تعالى في قوله: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ ﴾ [الأعراف:١٣]. أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً،

---

(١) البيت للمتلمس في ديوانه (ص ٢٤).

(٢) الحماسة المغربية (١/ ١٠٢).

(٣) النمر بن تولب، من عكل. وكان شاعراً جواداً، ويسمّى الكيّس، لحسن شعره، وهو جاهليّ، وأدرك الإسلام فأسلم، وهو القائل لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

إنّا أتيناك وقد طال السّفـر ... نقود خيلاً ضمّرا فيها عسر

نطعمها الشّحم إذا عزّ الشّجر ... والخيل في إطعامها اللّحم ضرر

انظر ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/ ٢٨)، و الشعر والشعراء، الدينوري (١/ ٢٩٩).

(٤) الشعر والشعراء (١/ ٢٢).

(٥) أضواء البيان (٦/٥٩٤).

(٦) أضواء البيان (٥/ ١٨١).

(٧) أضواء البيان (٣/١٥٦).

متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾. والصغار: أشد الذل والهوان[١].

وقد أشار جَلَّوَعَلَا إلى مكانة المتواضعين له عنده في مواضع أخر كقوله:﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾[الفرقان:٦٣]، وقوله:﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص:٨٣]، وقد صح عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: (إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد)[٢][٣]. والاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار[٤].

البخل، والإسراف:

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله تعالى نهى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن البخل بقوله : ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ونهاه عن الإسراف بقوله: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩]، فيتعين الوسط بين الأمرين، كما بينه بقوله:﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان:٦٧]، فيجب على المنفق أن يفرق بين الجود والتبذير، وبين البخل والاقتصاد. فالجود غير التبذير، والاقتصاد غير البخل. فالمنع في محل الإعطاء مذموم. وقد نهى الله عنه نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقوله:﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]،

(١) مختار الصحاح (ص: ١٧٦).
(٢) صحيح مسلم (٤/٢١٩٨) برقم (٦٤) .
(٣) أضواء البيان (٢/١١).
(٤) أضواء البيان (٧/٢٣١).

والإعطاء في محل المنع مذموم أيضا وقد نهى الله عنه نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾، وقد بين تعالى في مواضع أخر أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك، إلا إذا كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله. كقوله تعالى:﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥]، وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرة على صاحبه في قوله:﴿إِنَّ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنفال:٣٦] .. فإن قيل: هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا، وذلك في قوله:﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩]. فالظاهر في الجواب – والله تعالى أعلم– هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالا، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعا، وذلك كما إذا كانت على المنفق نفقات واجبة، كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق في غير واجب، وترك الفرض لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وابدأ بمن تعول) [1] وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم مالهم، فلا يجوز له ذلك، والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة وكان واثقا من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال، وأما على القول بأن قوله تعالى:﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة:٣] يعني به الزكاة، فالأمر واضح [2]. وقد قال الشاعر:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت .. .. يداه كالمزن حتى تخجل الديمـــا

(١) صحيح البخاري (٢/١١٢) برقم (١٤٢٦).
(٢) أضواء البيان (١/١١).

فإنها فلتات من وساوســـــــــه .. .. يعطي ويمنع لا بخلا ولا كـــــرما[1].

وقد بين تعالى أن الإنفاق المحمود لا يكون كذلك، إلا إذا كان مصرفه الذي صرف فيه مما يرضي الله، وصرح بأن الإنفاق فيما لا يرضي الله حسرة على صاحبه، وقد قال الشاعر:

إن الصنيعة لا تعد صنيعة ... حتى يصاب بها طريق المصنع[2][3].

والله مدح عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون، أي: لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم[4].

والإسراف المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾، للعلماء وجهان:

أحدهما: أن المعنى لا تسرفوا في الأكل والشرب فتأكلوا فوق الحاجة، وتشربوا فوق الحاجة؛ لأن الإسراف في الأكل والشرب يثقل البدن، ويعوق صاحبه عن طاعة الله، والقيام بالليل، فيجعل صاحبه كلما كانت بطنه ملأى من الأكل والشرب كان ثقيل الجسم، لا ينهض لطاعة الله، فنهاهم الله عن الإسراف في الأكل، وكذلك يسبب الأمراض. وعلى هذا القول فالإسراف المنهي عنه في الأكل بما يسبب من التكاسل عن طاعات الله، وما يسبب من الأمراض وغير ذلك.

الوجه الثاني: أن معنى: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾ أي: لا تجاوزوا حدود الله، فتحرموا ما أحل الله كالودك للمحرم، وكاللباس للطائف، فهذه أمور لم يحرمها الله، ولا تسرفوا في التحريم

(١) البيتان للقاسم الضرير، ويروى لدعبل. انظر: التذكرة الحمدونية (٥/ ١٦٠).
(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب ٨/ ٢١٢ (صنع)؛ وتهذيب اللغة ٢/ ٣٩؛ وتاج العروس ٢١/ ٣٦٦ (صنع)؛ وكتاب العين ١/ ٣٠٥. انظر: المعجم المفصل في شواهد العربية (٤/ ٤٠٧).
(٣) أضواء البيان (١/ ١١).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٧٥).

والتحليل بأن تحرموا ما أحل الله، وتحللوا ما حرم الله، وكلا الإسرافين إسراف. ولا مانع من أن تشمل الآية الجميع. فلا يجوز الإسراف بتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، كما لا يجوز الإسراف الكثير بملء البطن ملئا شديدا من الأكل والشرب حتى يتكاسل الإنسان ولا يتنشط لطاعة الله، وتأتيه الأمراض؛ لأنه ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه؛ فإن من كان كثير الأكل والشرب لا تراه يقوم الليل، ولا يتنشط للعبادات، ولا ينشط لسانه لذكر الله، فهو كسول ملول، وكذلك ربما نشأت له الأمراض[1].

والبخل من صفات المنافقين، وقد قرنه الله بمقارفة المنكر فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ﴾[التوبة: ٦٧]، والمراد بقبض اليد هنا كناية عن البخل وعدم مد الأيدي بما ألزم الله بإعطائه، فهم لا يزكون ولا ينفقون، فالعرب تقول: فلان يتعود قبض اليد، ويده مقبوضة، ويقبض يده يكنون بذلك عن البخل. يعنون: "لا يجود". فبسط اليد معناه الجود، وقبض اليد معناه البخل، قال بعض العلماء: قبضهم أيديهم: بخلهم بما يلزمهم من الزكوات وسائر الإنفاق. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[2]:

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... دعاها لقبض لم تجبه أنامله[3].

الكذب والبهتان:

أعظم الكذب وأشنعه؛ الكذب على الله جَلَّ وَعَلَا. وفي ذلك يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة الكفر بعد الإيمان". واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ ﴾ [الزمر: ٦٠][1].

(١) العذب النمير (٣/ ١٦٥).
(٢) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه (٣/ ٢٩).
(٣) العذب النمير (٥/ ٦٢١).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الذين يفترون عليه الكذب – أي يختلقونه عليه – كدعواهم أنه حرم هذا وهو لم يحرمه، ودعواهم له الشركاء والأولاد لا يفلحون؛ لأنهم في الدنيا لا ينالون إلا متاعاً قليلاً لا أهمية له، وفي الآخرة يعذبون العذاب العظيم، الشديد المؤلم(٢).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب بادعاء أن له شريكا(٣).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم بأن الإفك هو أسوأ الكذب؛ لأنه قلب للكلام عن الحق إلى الباطل، والعرب تقول: أفكه بمعنى قلبه"(٤). وأشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن البهتان أشد الكذب(٥).

شهادة الزور، وقول الزور:

وفي قول الزور ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله تعالى أمر في قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾[الحج:٣٠]، باجتناب قول الزور، وهو الكذب والباطل كقولهم: "إن الله حرم البحيرة والسائبة"، ونحو ذلك، وكادعائهم له الأولاد والشركاء، وكل قول مائل عن الحق فهو زور، لأن أصل المادة التي هي الزور من الازورار بمعنى الميل، والاعوجاج .. وإذا علمت ذلك فاعلم أنه هنا قال: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ بصيغة عامة، ثم بين في بعض المواضع بعض أفراد قول الزور المنهي عنه كقوله تعالى في الكفار الذين كذبوه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان:٤]، فصرح بأن قولهم هذا من الظلم والزور،

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢٠٥).
(٢) أضواء البيان (١/ ٤٦٣).
(٣) أضواء البيان (٣/ ٢١٦).
(٤) أضواء البيان (٦/ ١٥).
(٥) أضواء البيان (١/ ٣٢١).

وقال في الذين يظاهرون من نسائهم، ويقول الواحد منهم لامرأته: أنت علي كظهر أمي قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[المجادلة:٢]، فصرح بأن قولهم ذلك، منكر وزور، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) ثلاثا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئا فقال - ألا وقول الزور)، قال: "فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت" اهـ[1].

وقد جمع تعالى هنا بين قول الزور والإشراك به تعالى في قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج:٣٠]، وكما أنه جمع بينهما هنا، فقد جمع بينهما أيضا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[الأعراف:٣٣]؛ لأن قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ هو قول الزور، وقد أتى مقرونا بقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وذلك يدل على عظمة قول الزور؛ لأن الإشراك بالله قد يدخل في قول الزور، كادعائهم الشركاء، والأولاد لله، وتكذيبه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكل ذلك الزور فيه أعظم الكفر والإشراك بالله، نعوذ بالله من كل سوء[2].

التعصّب:

قال الشيخ جَلَّ وَعَلَا: "حين نصرح بمنع النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ونقيم الأدلة على منع ذلك، لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى

(١) صحيح البخاري (٢/١١٢) برقم (١٤٢٦).
(٢) أضواء البيان (٥/٢٥٥).

الإسلام بصلة، كما نفع الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعمه أبي طالب، وقد بين الله جَلَّ وَعَلَا أن عطف ذلك العم الكافر على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من منن الله عليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:٦]، أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب. ومن آثار هذه العصبية النسبية قول أبي طالب فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم .. .. حتى أوسد في التراب دفينا (١)

وقد نفع الله بتلك العصبية النسبية شعيباً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى عن قومه: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾[هود:٩١]. ونفع الله بها نبيه صالحا أيضا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما أشار تعالى لذلك بقوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝٤٩﴾[النمل:٤٩]، فقد دلت الآية على أنهم يخافون من أولياء صالح، ولذلك لم يفكروا أن يفعلوا به سوءا إلا ليلا خفية. وقد عزموا أنهم إن فعلوا به ذلك أنكروا وحلفوا لأوليائه أنهم ما حضروا ما وقع بصالح خوفا منهم، ولما كان لوط عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لا عصبة له في قومه ظهر فيه أثر ذلك حتى قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾[هود:٨٠] (٢). قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد قدمنا هذا مستوفى في «سورة هود»"(٣).

والرابطة الحقيقية هي دين الإسلام قوله تعالى في أبي لهب عم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾[المسد:٣]، ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من

(١) خزانة الأدب (٣/ ٢٩٦).
(٢) أضواء البيان (٣/٥٢٩).
(٣) انظر: أضواء البيان (٣/٥٥-٥٨).

الفضل والمكانة عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، وقد جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال فيه: «سلمان منا أهل البيت» ، رواه الطبراني والحاكم في المستدرك، وجعل عليه صاحب الجامع الصغير علامة الصحة، وضعفه الحافظ الذهبي، وقال الهيثمي فيه، عند الطبراني كثير بن عبد الله المزني ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات. وقد أجاد من قال:

لقد رفع الإسلام سلمان فارس.. .. وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب (١)

وقد أجمع العلماء: على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر، أن إرثه يكون للمسلمين بأخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة، فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من البنوة النسبية(٢).

الغيبة والوقوع في الأعراض:

جاء القرآن بالمحافظة على العرض بأقوم الطرق وأعدلها، فنهى المسلم عن أن يتكلم في أخيه بما يؤذيه، وأوجب عليه إن رماه بفرية حد القذف ثمانين جلدة، وقبح جَلَّ وَعَلَا غيبة المسلم غاية التقبيح، وبيّن جَلَّ وَعَلَا للإنسان خبث عرض أخيه وقال له: كأنك إن أكلت عرض أخيك فأكلت لحمه، ووقعت في عرضه كأنك أكلته ميتا بعد أن أنتن، وصار فيه الدود، وصرت تبتلع لحمه، في قوله بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وهذا غاية التقبيح من الوقوع في أعراض الناس، والكلام فيهم بالغيبة، ثم إن الله جعل حد القذف ثمانين جلدة، حفاظا على أعراض الناس، فقال جَلَّ وَعَلَا في إيجاب حد القاذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) البيت بلا نسبة في جامع العلوم والحكم (٢/ ٣١٠).
(٢) أضواء البيان (٣/٥٣١-٥٣٢).

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ [النور: ٤] كل هذا محافظة على أعراض الناس، فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع في عرض أخيه(١).

وفي محاضرته: (الإسلام دين كامل)، نبّه إلى مسألة مهمة، وهي: (أحوال الاجتماع)، فذكر أن الإسلام يأمر أفراد المجتمع العام أن يتعاملوا به فيما بينهم، بالعدل، والإحسان، وإتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. ويأمر باجتناب الظن، والتجسس، والغيبة، والسخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب. ويأمر بالتعاون على البر والتقوى، وينهى عن التعاون على الإثم والعدوان، ويأمر بالشورى. إلى غير ذلك(٢).

وقد سبقت الإشارة إلى أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان حسن المجلس، صاحب دعابة خالية من الغيبة، وخالية من القدح، ومما يغضب الناس(٣)، ولم يكن يغتاب أحداً أو يسمح بغيبة أحد في مجلسه، وكثيراً ما يقول لإخوانه (**أتكايسوا**) أي من الكياسة والتحفظ من خطر الغيبة. ويقول: "إذا كان الإنسان يعلم أن كل ما يتكلم به يأتي في صحيفته فلا يأتي فيها إلا الشيء الطيب"(٤). وكان ينكر إذا تكلم أحدٌ في أحد، وكان يقول لجلسائه: "يا إخواني إنكم إذا متم ولم تسبوا فرعون فلن يسألكم الله: لِمَ لَمْ تسبوا فرعون؟. فاتركوا أعراض الناس"(٥). وذكر أن رجلاً كبيراً اغتاب أحداً عنده فنهاه، فقال

(١) أضواء البيان (٣/٤٨، ٧/٤١٣)، العذب النمير (٢/ ٥٤١)، منهج التشريع الإسلامي (ص: ٧٠).
(٢) الإسلام دين كامل. ضمن «محاضرات الشنقيطي» (١/ ١٦).
(٣) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، الطويان (١/ ٣٥).
(٤) مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: ٥٦).
(٥) ذكر ذلك ابنه عبد الله في لقاء معه في مدينة جدة مساء يوم الثلاثاء الأول من شهر ربيع الآخر عام (١٤١٢هـ)، وتم رفعها على الشبكة العنكبوتية في موقع: [طريق الإسلام islamway.net]، كذلك في الندوة التي أقيمت ضمن [فعاليات المدينة المنورة عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠١٣م] وكانت مساء الأربعاء الخامس عشر من جماد الأول عام (١٤١٣هـ)، بعنوان: (حياة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ)،

المغتاب: "أنا المتكلم لا أنت"، فردّ عليه الشيخ بقوله: "أنا شايب بين جنبي سورة البقرة؛ تسكت بأدب أو تخرج"(١). وذكر ابنه الدكتور/ عبدالله، قال:"كنت يوماً أنا وأحد الطلاب، وكان عنده -أي والده الشيخ الأمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ- شيخ يصحح عليه تأليفاً له، وكنا في مكة، فقال أحد الجلوس: "ويكره التأليف من مقصر، فضحكت أنا، فغضب، وقال: "**يا بني ماذا فعلت لك؟. كيف تأكل الغيبة في المسجد الحرام**"(٢).

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كتاب الله جَلَّوَعَلَا جاء بالمحافظة على مصالح الخلق المصالح، وذكر أن عامة العقلاء مطبقون على أن المظالم التي تتظالم بها الناس في دار الدنيا، ويكون بعضهم ظالماً بعضاً ومعتدياً على حق بعض، أنها هي الست المعروفة بالضروريات: ستة أشياء، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال، والعرض. فأما الأعراض، فقد منع القرآن وقوع المسلم في عرض أخيه. ثم أورد الآيات في ذلك. وأشار إلى أن القرآن بين للإنسان خبث عرض أخيه وقال له: كأنك إن أكلت عرض أخيك فأكلت لحمه، ووقعت في عرضه كأنك أكلته ميتاً بعد أن أنتن، وصار فيه الدود، وصرت تبتلع لحمه، في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]. وهذا غاية التقبيح من الوقوع في أعراض الناس، والكلام فيهم بالغيبة، ثم إن الله جعل حد القذف ثمانين جلدة، كل هذا محافظة على أعراض الناس(٣).

مسجلة على موقع اليوتيوب.

(١) ترجمة السديس، في مقدمة الأطروحة .

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، للطويان (١/ ٤٠).

(٣) العذب النمير (٢/ ٥٣٧). و المثل العليا في الإسلام (ص: ١٣٢). ومنهج التشريع الإسلامي وحكمته (ص: ٧٠).

اللغـــو:

اللغو في اللغة: هو الكلام بما لا خير فيه، ولا حاجة إليه، ومنه حديث: «إذا قلت لصاحبك، والإمام يخطب يوم الجمعة، أنصت، فقد لغوت أو لغيت»(١). واللغو: هو فضول الكلام، وما لا طائل تحته، ويدخل فيه فحش الكلام وباطله.

وقول العجاج(٢):

ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلم(٣)(٤)

واللغو كل كلام ساقط لا خير فيه(٥).

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ٣] ، ذكر جَلَّوَعَلَا في هذه الآية الكريمة أن من صفات المؤمنين المفلحين إعراضهم عن اللغو، وأصل اللغو ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، فيدخل فيه اللعب واللهو والهزل، وما توجب المروءة تركه. وما أثنى الله به على المؤمنين المفلحين في هذه الآية، أشار له في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ۝٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢]، ومن مرورهم به كراماً إعراضهم عنه، مكرمين أنفسهم عن الخوض معهم في لغوهم، وعدم مشاركتهم أصحابه فيه(٦).

---

(١) مسند الإمام أحمد (١٢/ ٢٨٥) برقم(٧٣٣٢)، (١٣/ ١١٥) برقم (٧٦٨٥).

(٢) رؤبة بن العجاج التميمي. من أعراب البصرة. كان لغوياً علامةً، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. توفي سنة خمس وأربعين ومائة. تاريخ الإسلام ت بشار (٣/ ٨٦٢)، و الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤).

(٣) ديوان رؤبة بن العجاج رواية الأصمعي وشرحه (١/ ٤٦٥).

(٤) أضواء البيان (٢/ ١٤٤)، و(٤/ ٤١٩) عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ [مريم:٦٢].

(٥) أضواء البيان (٦/ ٦٩)، (٧/ ٤٥٥).

(٦) أضواء البيان (٥/ ٣٠٦)، (٦/ ٧٩)

الضجر، والعجلة:

نبّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على شؤم الضجر والعجلة، فذكر أن نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كذبه قومه وعدهم بالهلاك، وأن العذاب ينزل عليهم، وخرج عنهم، وسافر من قبل أن يأذن له ربه، كأنه ضجر منهم وعجل. وذلك الضجر والعجلة هو الذي نهى الله عنه نبينا محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سورة القلم، مؤدباً له بالتأني والحمل والصبر، قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨]، يعني يونس بن متّى ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨]، حيث ضجر وعجل[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]: "وقد دلت هذه الآية من سورة الحجرات على أمرين:

الأول منهما: أن الفاسق إن جاء بنبأ ممكن معرفة حقيقته، وهل ما قاله فيه الفاسق –حق أو كذب– فإنه يجب فيه التثبت. وقرأ حمزة والكسائي: «فتثبتوا» بالثاء المثلثة بعدها ياء تحتية موحدة مشددة، ثم تاء مثناة فوقية. والأول من التبين، والثاني من التثبت، ومعنى القراءتين واحد، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبأ به الفاسق[(٢)].

المكر والخديعة:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ :" والمكر: إظهار الطيب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة. وقد بين جَلَّ وَعَلَا أن المكر السيئ لا يرجع ضرره إلا على فاعله، وذلك في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] [(٣)].

(١) العذب النمير (١/ ٤٦٣).
(٢) أضواء البيان (٧/ ٤١١).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٣٦٦).

النميمة:

نقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال:" النوع الثامن من أنواع السحر: السعي بالنميمة، والتضريب من وجوه لطيفة خفية وذلك شائع في الناس". انتهى منه[١]. والتضريب بين القوم: إغراء بعضهم على بعض. وقال ابن كثير بعد أن نقل هذا النوع الأخير عن الرازي، قلت: "النميمة على قسمين: تارة تكون على وجه التحريش بين الناس، وتفريق قلوب المؤمنين. فهذا حرام متفق عليه. فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس، وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء في الحديث «ليس الكذاب من ينم خيرا»[٢] أو يكون على وجه التخذيل، والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث «الحرب خدعة»[٣] ، وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة، جاء إلى هؤلاء ونمى إليهم عن هؤلاء، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئا آخر، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت. وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة. والله المستعان"[٤] [٥].

أكل المال الحرام:

خصص الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبحثاً في الربا، في تفسر أضواء البيان عند تفسيره لقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وأشار إلى أن الله جَلَّ وَعَلَا يمحق الربا ويذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به كما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٢٥٤).
(٢) مسند أحمد (٤٥/ ٢٤٣).
(٣) صحيح البخاري (٤/ ٦٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٢٥٤).
(٥) أضواء البيان (٤/٤٦).

قاله ابن كثير وغيره. وقد صرّح الله جَلَّ وَعَلَا بتحريم الربا في كتابه، وصرح بأن المتعامل بالربا محارب لله، وصرح بأن آكل الربا لا يقوم من قبره يوم القيامة إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ[1]. وأشار الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن أكل أموال اليتامى حوب كبير، أي: إثم عظيم[2]. ولا شك أن إحراق مال اليتيم، وإغراقه أنه حرام، لا فارق بينه وبين أكله[3]، ونفي الفارق هنا محقق[4].

كما نبّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على خطورة الرشوة، ثمّ قال: "فعلى هذا المسلم أن ينزه ضميره، ويكرم ربه، ويكرم الملائكة الذين معه، وأن يكرم ولي أمر المسلمين الذي حطه في ذلك الموضع، ولا يخون؛ لأن الإنسان إذا كان يجيئه مسكين ضعيف، له حق ثابت له شرعاً، سواء كان إدارياً أو قضائياً، ثم إنه يسوفه ويقول له: بعد بكرة، ثم بعد بكرة، ثم بعد أسبوعين!! وهو حقه جاهز لا شيء دونه ولا عقبة، ولم ينقصه إلا التوقيع، يريد بذلك أن يضطر المسكين إلى أن يعتصر منه فلوسا ظلما بسطوة الحكومة وسلطتها،

---

(١) أضواء البيان (١/١٦٠).

(٢) أضواء البيان (١/٢٢٠).

(٣) حفظ الإسلام حقوق اليتيم والقاصر قبل أن تعرف ذلك النظم الوضعية الغربية المعاصرة بعدة قرون، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الإسراء: ٣٤]. في حين لم تعرف الأسرة الغربية المعاصرة قانوناً يحفظ للأيتام والأطفال القاصرين أموالهم إلا في عام (١٩٣٨م) حين قام الطفل (جاكي كوجان) بعد بلوغه سن الثامنة عشرة من عمره برفع دعوى قضائية ضد والدته وزوجها (مدير أعماله السابق)، بعد أن اكتشف أنهما قد أنفقا كل ثروته التي تقدر بملايين الدولارات، والتي تحصلها من خلال قيامه في طفولته بمشاركة الممثل (تشارلي تشابلن) في بعض أفلامه، وعلى إثر هذه الدعوى قامت الهيئة التشريعية في ولاية كاليفورنيا بسنّ قانون عرف باسم (قانون كوجان)، يضمن للأطفال القاصرين حقوقهم المالية، ويحميها من الواصين عليها. انظر: الموسوعة البريطانية www.britannica.com تاريخ الرابط (١٤٤٢/١/٥هـ).

(٤) العذب النمير (٢/٣٧٠).

خيانة ومكراً وغدراً. فهذا الشيء الذي يعرق منه الجبين، فعلى الإنسان أن يتجنبه كل التجنب؛ لأنه مما بطن من الفواحش، ومع شدة حرمته عند الله، وخساسته من جميع الوجوه، وأن صاحبه لم يتق الله، بل خاف الناس، ولم يفعله أمام الناس خوفا من الناس، ولم يتق خالقه الذي شق عينيه، وفتح فمه وأنفه، ولم يتق الحفظة الكاتبين معه، فهذه أمور فظيعة شنيعة، نرجو الله أن ينقذنا وإخواننا المسلمين من الوقوع في أمثالها من السفالات التي ترأب الحمير عنها بأنفسها؛ لأن هذا أمر قبيح، والأمر إذا كان جامعاً بين شدة القبح وشدة التحريم عند الله فلا ينبغي للعاقل أن يرتكبه"(١) (٢).

---

(١) العذب النمير (٢/ ٤٨٤).

(٢) في تشريع الإسلام للأموال نهى عن الاستغلال المادي، أو الحرص على المال وسوء استغلاله، فحرم الربا، والرشوة، والاستيلاء على أموال الآخرين دون حق، وحرّم أكل أموال اليتامى، واستضعاف النساء واستغلالهنّ من أجل المال، ودعا إلى توثيق الديون والإشهاد عليها، وتوفير الضمان لها عند عدم توثيقها، كذلك الإشهاد على البيع، وأوجب أداء الأمانات إلى أهلها، والوفاء بالعقود والعهود، وتوصيل منفعة المال لمن هم أصحاب المنفعة فيه من أصحاب الحاجة، وحرم جرائم المال بأنواعها كالسرقة الجماعية والسرقة الفردية. انظر: منهج القرآن في تطوير المجتمع، محمد البهي (ص: ١٣١-١٩٩). وقد تطرق المحلّف الفرنسي (بومانوار) في حديثه إلى الطبقة البرجوازية في أوروبا، فقال: "إنك لترى الفقراء ومتوسطي الحال، ليس لهم مركز واحد من مراكز الإدارة في المدن، بينما الأغنياء مسيطرون عليها تماماً ". انظر: دراسات في العقائد، أحمد الشيباني (ص: ٢٣)، و ماذا بعد إخفاق الرأسمالية والشيوعية. د. حيدر غيبة (ص: ٢٣). وبسبب طغيان المادية في المجتمع الغربي المعاصر، وفقره في الناحية الخلقية الدينية، فإن مبدأ التعاون والتكافل بين أفراده شبه معدوم. ففي تحقيق نشره موقع (بي بي سي عربي)، بعنوان: **هل انهيار الحضارة الغربية أمر حتمي؟**. أشار إلى أن اتساع الهوة بين الأثرياء والفقراء في البلدان الغربية الأكثر ضعفاً سيؤدي إلى زعزعة استقرار المجتمع من الداخل، فيرى (راندرز) أنه مع حلول عام (٢٠٥٠م)، سينقسم المجتمع في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة إلى طبقتين، إذ تعيش حفنة من الأثرياء في رغد من العيش في حين تتدهور الأوضاع المعيشية للغالبية، ومن ثم ستنهار العدالة الاجتماعية. أمّا (هومر ديكسون)، فيرى أنه يمكننا أن نحافظ على مجتمعاتنا ونرتقي بها، رغم ما نواجهه من ضغوط في ظل التغير المناخي والنمو السكاني والانخفاض

والعالم اليوم بحاجة إلى النظام الاقتصادي الإسلامي الربّاني، والذي يستند إلى الواقعية الأخلاقية، ويراعي التوازن الدقيق بين الفردية والجماعية، فهو النظام الذي دعا قوم شعيب وكفار قريش قبل قرون من الزمان إلى إصلاح الفساد الاقتصادي بالحدّ من حرية الكسب الحرام، وحرّم أكل أموال الناس بالباطل، ودعا إلى كبح شهوات النفس وأطماعها عن الغش والخداع والوصول إلى الثراء الفاحش بالربا المحرم، وهو ما انتهجته الرأسمالية المتوحشة في هذا العصر، والتي اتخذت من القاعدة المكيافلية [**الغاية تبرر الوسيلة**] مبدأً لها، فما دام أن الثراء لا يمكن الوصول إليه إلا بالطرق المحرمة فلا مانع من سلوكها للوصول إليه.

موارد الطاقة، إلا أن هذا يستدعي أن نغالب رغباتنا الطبيعية في أن نصبح أقل تعاوناً أو كرماً أو تعقلا .
انظر: موقع بي بي سي عربي www.bbc.com/arabic تحقيق صحفي بعنوان: هل انهيار الحضارة الغربية أمر حتمي، منشور بتاريخ ٤/٥/٢٠١٧م.

الخاتمـــــــــة

وبعـــدُ: فهـذا أوان ختـم الكتـاب، جمعـت فيـه مـا استـطعتُ تتبعـه في مؤلفـات الشيخ، مما كتبه في منظومة القيم والأخلاق.

والحمـــدُ لله علـــى مَـــا أَوْلَى فَـــنِعمَ ... مَـــــا أَوْلَى وَنِعـــــمَ المـــــولَى
ثُمَّ الصَّـــلاةُ بعـــدَ حَمـــدِ الصَّـــمَدِ ... علـــى النَّـــبِيِّ المصـــطَفَى مُحَمَّـــدِ
وَآلـــه أَهْـــلِ التُّقَـــى والرَّشَـــدِ ... وَصَـــحْبِهِ قُـــدْوَةُ كُـــلِّ مُقْتَـــدِ[1]

إن أحسنتُ فمن الله، وأن أسأت فمن نفسي والشيطان. وأستغفر الله من الخطأ والزلل. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عبد الرحمن بن ظافر القشيري
محافظة جدة

(١) ملحة الإعراب (ص: ٨٧).

فهرس الموضوعات

مقدمة ٢
المطلب الأول: نبذة عن الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٥
المطلب الثاني: جوانب من القيم والأخلاق في حياة وشخصية الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ١٨
المطلب الثالث: حديث الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القيم ولأخلاق ٣٠
المطلب الرابع: مفهوم القيم والأخلاق عند الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٤٣
المطلب الخامس: مصادر القيم والأخلاق عند الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٤٦
المطلب السادس: صلة القيم والأخلاق بالدين ٦٠
المصدر السابع: الحضارة الغربية، ومفهوم القيم والأخلاق ٦٣
المطلب الثامن: القيم والأخلاق في الإسلام، والمذاهب المعاصرة ٧٢
المطلب التاسع: القيم والأخلاق المحمودة ٨٠
المطلب العاشر: الأخلاق المذمومة ١٩٥
الخاتمة ٢٣٨
فهرس الموضوعات ٢٣٩

للمؤلف:

1- اختيارات الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفقهية، 1415هـ . لم يُطبع.
2- كشاف المسائل الفقهية والعقدية في تفسير أضواء البيان، دار المسلم، الرياض 1416هـ.
3- فقه الموازنات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عند الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، 1438هـ. لم يطبع.
4- صور من احتساب الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، 1438هـ. لم يطبع.
5- دليل الحسبة في الأنظمة واللوائح السعودية، دار طيبة الخضراء، مكة المكرمة، 1439هـ، ومعه فريق عمل.
6- فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، دار طيبة الخضراء، مكة، 1442هـ
7- شواهد الشعر في تفسير أضواء البيان، 1444هـ، كتاب إلكتروني.
8- منظومة القيم والأخلاق، عند الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ 1445هـ، كتاب إلكتروني

منظومة القيم والأخلاق

عند الشيخ العلاّمة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ